





أحمد المسلماني




mohamed khatab

أحمد المسلماني



دار ليلى كيان كورب
للنشر والتوزيع

كيان كورب للنشر والتوزيع

دار ليلى

الكتاب:

ما بعد إسرائيل

المؤلف:

أحمد المسلماني

* * *

رقم الإيداع:

20005/2012

الترقيم الدولي:

978-977-5238-50-4

* * *

المدير الفني:

حسام سليمان

مدير التوزيع:

عبد الله شلبي

الإشراف العام:

محمد سامي

المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11

هاتف: 33370042 (02) (002) - 23886295 (012) (002)

البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

كيان كورب
للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

احمد المسلماني

ما بعد إسرائيل



إهداء

إلى روح الشيخ محمد السلماني.. والداً ومعلماً عاش حياته كلها ينتظر ما هو أفضل.

إنتهى الإنتظار ولم يشهد ذلك الأفضل.

لكنه أمضى حياته ممتلئاً بالقوة والثقة.

لقد كان يملك تلك الطاقة الأسطورية التي لاتنتهي.. الأمل.

من هنا نقرأ

ليس الهدف من هذه السطور تقديم دراسة تاريخية وافية، ولا تقديم متفرقات انطباعية عابرة.. بل توسّط الهدف غايتين بعيدتين، فبدا الكتاب عاجلاً لمن يأملون الفحص والتمحيص، وجاء وافياً لمن ينشدون فضائل الاختصار.

ليس الهدف أيضاً تقديم رأى قاطع في الحرب أو السلام.. في ضرورة التسوية أو في حتمية القتال، بل توسط الرأي وجهتين بعيدتين، مابين صراع قد لا يزول، وسلام قد لا يكون.. وبينهما واقع قد لا يدوم.

إنها قراءة لا كتابة، أفكار لا أحكام.. من منصة القارئ لا من سلطة القضاء.

مقدمة الطبعة الثانية

مضى على الطبعة الأولى من كتابى "ما بعد إسرائيل" قرابة العقد من الزمان.. ولاتزال رؤيتى عِنْد ما رأيت بل أقربَ مما رأيت.. إننا نمضي من "حقبة إسرائيل" إلى "حقبة ما بعد إسرائيل".

من حقبة إسرائيل التى عرفناها منذ أكثر من ستين عاماً إلى إسرائيل أخرى.. أوهَنَ قوة وأضعَفَ سُلطاناً.

• • •

نفدت الطبعة الأولى قبل سنوات، وكنت في كل مرة أنوى إصدار الطبعة الثانية من "ما بعد إسرائيل" أجد صعوبة فى ترميم المسافة بين توقيت صدور الكتاب وما جرى لاحقاً. ذلك أن الحوادث كانت عديدة وكثيفة. وقد خشيتُ أن يكون مدّ كل فصل إلى نهايته عملاً صعباً ومربكاً.. ذلك أن الإضافات الجديدة تأتي من قلب السياسة أما الإجتهادات السابقة فهي من قلب التاريخ. وكنتُ أتساءل كثيراً.. كيف يمكن أن أصِلَ فى أمانٍ حديث التاريخ بأحداث السياسة.

وبقيت على ذلك طويلاً حتى وجدت غايتى فى كتاب وزير الخارجية التركى أحمد داوود أوغلو "العمق الإستراتيجي".

حظِي كتاب أوغلو بالإهتمام والاحترام.. وقد وجدته يشير فى سطور مقدمته إلى المعضلة ذاتها التى واجهتني. يقول أوغلو: "منذ صدور هذا الكتاب وقعت متغيرات جذرية وتحولات كبيرة.. وقد أضفت لهذا الكتاب فصلاً لم يكن موجوداً فى الطبعة الأولى، يتناول

أهم التطورات التى جرت منذ نشر هذا الكتاب وحتى الوقت الحالى".

ولقد وجدتنى ماضياً وراء أوغلو فيما نذهب إليه من حلّ.. فهذا بالضبط ماكنت أحتاج إليه.. فصل جديد منفصل يتناول أهم التطورات التى جرت منذ نشر هذا الكتاب وحتى الوقت الحالى.

وهو الفصل الرابع من هذا الكتاب "ربيع العرب وخريف إسرائيل"

• • •

كنت أتحدث على شاشة التليفزيون عن رحيل بطل المخابرات المصرى الشهير أحمد الهوّان الذى اشتهر باسم "جمعة الشّوان" وبعد حديثى بقليل اتصل بى السيد "خالد مشعل" زعيم حركة حماس.

أبدى خالد مشعل احتراماً لما أطرحه بشأن الصراع العربى الإسرائيلى.. ثم تحدث عن الدور السياسى القادم للقاهرة فى تلك المنطقة الخطيرة من العالم.

وقد لفت انتباهى فى تلك المحادثة ماقاله بشأن المخابرات المصرية ودورها فى صفقة تبادل الضابط الإسرائيلى جلعاد شاليط مقابل أكثر من ألف من الفلسطينيين فى سجون إسرائيل.. قال لى خالد مشعل: إننى على اتصال دائم مع المخابرات المصرية وأعرف قادتها جيداً، وقد تعاملت مع رجالها فى زمن الرئيس السابق حسنى مبارك وفى زمن الثورة.. لقد تعاملت مع نفس الرجال، ولكنهم لم يكونوا بنفس الروح.. لقد عادت الروح إلى رجال المخابرات المصرية بعد الثورة.. إننا إزاء جهاز جديد وضباط جدد رغم أنهم لم يتغيروا.. إن الروح والكفاءة والإقتدار التى لازمتهم جعلتنى أرى مستوى آخر تماماً.. يدعو للفخر والإعتزاز.

يشغل "خالد مشعل" المنصب الأعلى فى حركة حماس، وأذكر أننى حين زرت غزة فى عام 2010م والتقيت رئيس الوزراء الفلسطينى السابق إسماعيل هنية، تحدثت مع كثيرين فى حماس وأدركت تماماً أن القرارات الكبرى فى غزة تأتى من خالد مشعل فى دمشق..

• • •

جاء الصعود الكبير لحركة حماس على الساحة الدولية بعد فوزها فى الإنتخابات الفلسطينية التى جرت فى يناير عام 2006م، حيث فاجأت "حماس" نفسها والعالم بالحصول على ضعف ماحصلت عليه حركة فتح.

وبعد أن كانت "حماس" تمثل المعارضة الرئيسية لحركة فتح.. أصبحت الحركتان فى السلطة معاً.. الرئاسة لفتح والحكومة لحماس.

لم يدم ذلك الوضع طويلاً.. فبعد عام ونصف العام أقال الرئيس محمود عباس حكومة حماس فى يونيو عام 2007م.

أقالت الرئاسة الحكومة، لكن الحكومة عارضت الرئاسة.. وقامت حماس بالسيطرة الكاملة على السلطة فى قطاع غزة.

أصبح العنوان الرئيسى للقضية الفلسطينية فى العالم هو الصراع بين فتح وحماس لا الصراع بين فلسطين وإسرائيل. لم يكن الصراع فى معظم مراحله يتسم بالمسئولية.. بل كان يتجه من سئ إلى أسوأ. وتسرّب الإحباط لدى أنصار الدولة الفلسطينية الذين فوجئوا أنهم إزاء دولتين فلسطينيتين.. واحدة فى غزة تديرها حماس والثانية فى رام الله تديرها فتح!

وجدت إسرائيل فى صعود حماس أمراً جيداً.. ثمة حركة يمكن إتهامها بالإرهاب أصبحت تحكم فلسطين الآن. وراحت تل أبيب تروج للإرهاب الفلسطينى وللحكومة المتطرفة التى تقتل الأطفال فى إسرائيل.

وفى عام 2008م شنت إسرائيل حرباً كارثية على غزة أهانت فيها المبادئ الإنسانية والقوانين الدولية. وهى الحرب التى أسقطت (1400) من الشهداء الفلسطينيين وأحالت قطاع غزة إلى قطاع من الجحيم!

• • •

كانت حركة حماس تتطور ولكن أحداً فى إسرائيل لا يريد سماع أخبار جيدة من الطرف الآخر.. إن حركة حماس التى لا تعترف بإسرائيل أصبحت راغبة وجاهزة

للاعتراف بإسرائيل شريطة إقامة دولة فلسطينية طبقاً لقرارات مجلس الأمن.

[illegible] وهو كاتب فرنسى يكتب فى صحيفة "لو فيجارو" أنه التقى خالد مشعل فى دمشق قبل ساعتين من الهجوم الإسرائيلى على غزة.. وأن مشعل قال له "إننى مستعد للاعتراف بإسرائيل والاتفاق معها على دولة فى حدود 1967.. إننا نلجأ إلى القوة للحصول على ذلك ولكننا إذا حصلنا على ذلك بالسلام فسوف نوافق".

وقد عرفت فيما بعد أن خالد مشعل قد أبلغ ذلك الرأى الذى يمثل تحوّلاً كبيراً فى أطروحات حركة حماس لعدد آخر من الشخصيات الدولية.

وحين التقيت رئيس الوزراء الروسى السابق "يفيجينى بريماكوف" فى جزيرة مالطة فى ربيع عام 2010، قال لى أنه التقى خالد مشعل فى دمشق وأنه سمع منه بوضوح أن حركة حماس تقبل بقرار مجلس الأمن (242) وبدولة فلسطينية على حدود 4 يونيو 1967 مقابل الاعتراف بدولة إسرائيل.

• • •

إن إسرائيل التى ترفض إقامة دولة فلسطينية على حدود عام 1967، لا ترغب على وجه العموم فى إقامة علاقات جيدة مع أى طرف.. لا الفلسطينيين ولا غيرهم. بل إن الدولة الأهم التى ربطتها اتفاقية سلام مع إسرائيل وجدت نفسها فى وضع العدو الدائم للسياسة الإسرائيلية.

وبدأت تتكشف تدريجياً حقائق مفزعة عن خطط إسرائيلية لتقويض الإستقرار فى مصر.. سواء عبر دعم فتنة داخلية بين المسلمين والمسيحيين أو عبر دعمها لدول حوض النيل للتضييق المائى على مصر.

وقد نشرت الصحف تقارير عن دراسة أعدها سفير إسرائيل السابق فى القاهرة "تسيفى مزرائيل" حول الصراع على النيل.. وفيها تحدث مزرائيل عن اتجاه عدد السكان فى أثيوبيا والكونغو للزيادة على نحو يجعل البلدين أكبر من مصر.. ومن ثم احتياجهم إلى

كميات مياه أكبر في السنوات القادمة.. وهو ما يجعل مصر في أزمة وربما يدفعها للحرب.

وانتهى مزرانيل في دراسته إلى ضرورة أن يتم تدويل النزاع على مياه النيل وأن يدخل العالم فيه قبل أن تعلن مصر قيام الحرب!

وهكذا.. فإن الدبلوماسي الإسرائيلي لايرى حلاً للأزمة التى تتمتع فيها مصر بموقف قانونى قوى للغاية.. إلا بالتدخل الدولى على حساب الحقوق المصرية في مياه النيل.

• • •

لقد كان نظام الرئيس السابق حسني مبارك هزيلاً.. وحين سقط النظام عادت مصر أكثر صلابة في مواجهة إسرائيل. وقد شنّ رئيس المخابرات المصرية السابق اللواء مراد موافي هجوماً شديداً على إسرائيل أثناء توليه منصب محافظ شمال سيناء عقب الثورة المصرية 2011.. واتهم اللواء موافي إسرائيل بلعب دور قذر مع دول حوض النيل.. وقال إن جهاز المخابرات الإسرائيلي "الموساد" خطط لإنشاء أنابيب لنقل المياه من أثيوبيا إلى إسرائيل..

وعلى خلاف تصريحات الساسة المصريين في عهد مبارك، قال اللواء موافي مهدداً "إن مصر تعي تماماً خطط إسرائيل القذرة.. ولكنه ليس بمقدور أحد أن يضُر ببلادنا"..

وبدورهم فإن قادة الجيش المصرى تحدثوا بقوة عن مواجهة أية مخططات تهدد الأمن القومي.. وقال قائد القوات الجوية المصرية وقتها الفريق رضا حافظ "إن الطائرات العسكرية المصرية لا تحتاج إلى إذن للعمل فوق سيناء.. وأن الطائرات المصرية تتحرك منذ قيام الثورة فوق كافة الأراضي المصرية".

والوقع أن الجيش المصرى كان يشعر فى السنوات الأخيرة بأن جولة جديدة من المعارك مع إسرائيل قد تكون وشيكة.. واستمر الفكر العسكرى المصرى يضع إسرائيل فى وضع الدولة التى قد نقاتلها قريباً.

وحين نفذ الجيش المصرى فى عام 2010م المناورة "بدر"، قالت صحيفة "إسرائيل

اليوم".. "إن الجيش المصرى يتدرب على غزو إسرائيل لأن المناورة بدر تقوم على عبور القوات المصرية لقناة السويس والتوغل فى أراضى العدو والأراضى الوحيدة قرب قناة السويس هى إسرائيل".

• • •

جاءت ثورة 25 يناير 2011 مفاجأة مذهلة لإسرائيل، ذلك أن عصر حسنى مبارك كان بالنسبة لإسرائيل أقرب إلى العنوان الشهير لريتشارد نيكسون "نصر بلا حرب" وبالنسبة للمصريين الذين تدهورت بلادهم فى عهد مبارك كانوا يرون عقود حكمه الثلاثة "هزيمة بلا حرب".

إن جهاز الموساد الذى يحظى بشهرة كبيرة لم يتوقع الثورة ولا الثائرين.. وفوجئت إسرائيل بمثل ما فوجئت الولايات المتحدة والعالم.. وأصبحت إسرائيل فى حيرة هى الأكبر منذ حرب أكتوبر عام 1973م.. ما الذى يجرى فى مصر؟

وما الذى سيجرى مع إسرائيل؟

كان الحقد الإسرائيلى على النجاح الكبير للثورة المصرية وللمكانة العالمية التى حظيت بها كبيراً وعميقاً.. وراح المحللون الإسرائيليون يحاولون إطفاء الأنوار.

• • •

"بينى موريس" واحد من أبرز الذين عبّروا عن الحقد الإسرائيلى على الثورة المصرية. كتب بينى موريس فى المجلة الشهرية الأمريكية "انترنشونال انترست" مقالاً بعنوان "ماذا يريد المصريون ؟"

قال بينى موريس: "إن كبرى شبكات الأخبار الأمريكية والأوروبية أجمعت على أن الديمقراطية هى دافع المصريين للثورة.. ثم استنتاج أن كل هذه الجموع من المتظاهرين المصريين يريدون نظام حكم ديمقراطى.. ثم الاعتقاد بأن تلك الديمقراطية هى التى حركت الناس فى شوارع القاهرة والإسكندرية بكافة الشرائح والمستويات".

ثم يمضى "بينى موريس" للقول: "للأسف.. كان هذا خداعاً بصرياً.. لقد كان الهدف الخبز فقط. لقد حرصت شبكتا CNN وBBC على إجراء حوارات مع النخب القادرة على التحدث بالإنجليزية وتلقت تعليماً أجنبياً.. ما أخشاه أن ينبهر الغرب بهذه النبرة الواعية عن الديمقراطية.. وأن يتناسى وسط ذلك كله عبارات "الله أكبر".. "تسقط أمريكا".. "الموت لإسرائيل"

• • •

لم يكن "بينى موريس" محظوظاً فى هذه الكراهية.. إذ سرعان ما اندلعت المظاهرات فى إسرائيل، وتزاحم أكثر من ربع مليون إسرائيلى فى أكبر مظاهرات تشهدها الدولة العبرية منذ تأسيسها.. لم يكن الهدف من المظاهرات فساد النخبة الحاكمة، ولا تدهور صورة إسرائيل فى الخارج.. بل كان خروج مئات الآلاف من الإسرائيليين من أجل أهداف معيشية محدودة.. السكن والعمل!

أصبحت مصر مصدر إلهام كبير للإسرائيليين، تعلّم الإسرائيليون من المصريين الجرأة والجسارة فى مواجهة فساد النخبة الحاكمة.. وخرجت مظاهرات إسرائيل تحمل شعارات ميدان التحرير.. وإزاء السقف الشاهق للثورة المصرية راح الإسرائيليون يقلّدون شباب التحرير فى المطالبة بإسقاط النظام فى إسرائيل.

كان الإسرائيليون يخرجون فى السابق فى قضايا محدودة وقد تعلموا من ثورة المصريين أن هناك أسباباً أخرى لأن يقول الشعب.. لا.

• • •

لم يترك الشباب المصرى مظاهرات إسرائيل تمّر دون استخدام سلاح السخرية القوى الذى ساهم فى إسقاط نظام مبارك.

وخرجت تعليقات الشباب على صفحات الفيس بوك تطلق النكات على مايجرى فى تل أبيب.. وكان من أبرز كتابات الشباب: "ماتعبناش ماتعبناش.. المجازر مش ببلاش".. "نزّل راسك تحت.. أنت إسرائيلى".. "الحاخام أبو اسحاق: التظاهر محّرم بنص التوراة..

وبدعة مصرية منهي عن اتباعها".. "ضبط أجندات مصرية في مظاهرات تل أبيب".. "الموساد: هناك شباب إسرائيلي تم تدريبهم في روض الفرج من أجل إشاعة الفوضى في إسرائيل".. "المتظاهرون الإسرائيليون حصلوا على علبة كشري وخمسين جنيه مصري".. "محامي رئيس الحكومة الإسرائيلية يقول: نتنياهو هو أول من أيدّ الثورة".

• • •

على الجانب الآخر كان الفلسطينيون يفكرون في بدء الإنتفاضة الثالثة، رأوا أن ذلك يتوافق مع موجة الربيع العربي.. بل إنه يتوافق مع الغضب الإسرائيلي ضد النظام الإسرائيلي. وبدأت صفحات الفيس بوك الفلسطينية تدعو للإنتفاضة الثالثة.. لكن القمع الإسرائيلي كان شديداً.. كما أن إنقسام السلطة الفلسطينية مابين "دولة فتح" و"دولة حماس" حال دون التوافق العام على الإنتفاضة.

استعدّت إسرائيل بقوة لاحتمالات الربيع الفلسطيني.. واستخدمت كل آليات القمع والتضييق.. وكانت لغة التهديد قائمة في دائرة القرار السياسي ودائرة الفكر السياسي معًا.

أحد المؤرخين الجدد في إسرائيل وهو "توم سيجيف" تحدث إلى مجلة "ديرشبيجل" الألمانية مهدداً.. "لقد جرّب الفلسطينيون الإنتفاضة، وإذا قاموا بذلك مرة ثالثة سوف يخسرون.. الإدارة الإسرائيلية لن تسمح بذلك.. ثم إن القادرين فعلياً على القيام بإنتفاضة جميعهم في السجون الإسرائيلية".

إن المفاجأة في تحليل "توم سيجيف" الذى يعارض أية إنتفاضة فلسطينية هي دعوته للثورة في المملكة الأردنيّة.

يقول سيجيف: "إذا انقلب نظام الحكم في الأردن.. سيكون ذلك فرصة مثالية لإنهاء الصراع العربي الإسرائيلي برمته.. في هذه الحالة يمكن أن تكون الأردن والضفة دولة واحدة.. فالأغلبية في الأردن من الفلسطينيين.. وهناك متسّع من الأرض وترحيب من الناس.. إن الثورة الأردنية هي الثورة المثالية التي يجب أن تقوم".

يمثل سيجيف تلك النزعة الإستعلائية لإسرائيل.. إن حل القضية الفلسطينية برأيه شطب الدولة الأردنية وتعليق لافتة فلسطين فوق العاصمة عمّان.. إنها نفس آلية الشطب الجغرافية التي اعتمدها المشروع الصهيوني حين شطب دولة فلسطين ووضع فوق أراضيها لافتة "دولة إسرائيل".

* * *

لكن الحالة النفسية لدى إسرائيل تزداد تدهوراً.. فالنزعة الإستعلائية أصبحت تطول الجميع.. إنها تصل إلى الولايات المتحدة وأوروبا..

أصبح ذلك الإنفلات يتخطّى الهجوم التاريخي على الإسلام والمسلمين إلى هجوم حديث على المسيحية والعالم المسيحي.. أصبحت إسرائيل تهاجم الغرب في الدين والسياسة.

خرج المذيع الإسرائيلي "ليؤورشلاين" في برنامج "الليلة" على القناة العاشرة في التليفزيون الإسرائيلي ليقول: "لا تصدقوا الكنيسة.. إن المسيحيين يعتقدون أن السيدة مريم عذراء.. وهذا خاطئ وكاذب.. السيدة مريم ليست طاهرة ولا شريفة ولا عذراء"!

وهو مادعى مجلس كنائس الشرق الأوسط لتوجيه إنتقادات شديدة لإسرائيل التي طعنت في شرف السيدة مريم.. أم المسيح.

وربما كان ذلك من الأسباب التي دعت بابا الفاتيكان للقيام بأول زيارة في تاريخ البابوية إلى المسجد الأقصى.. وهي الزيارة التي خلع فيها البابا الحذاء للمرة الأولى عملاً بالأعراف الإسلامية ودخل المسجد وخرج مؤيداً لإقامة الدولة الفلسطينية المستقلة.

لكن المفاجأة الأكبر في زيارة البابا إلى فلسطين وإسرائيل هي قيامه بأداء "صلاة جديدة" دعا فيها البابا أن يدخل اليهود في الدين المسيحي وتتضمن الصلاة دعوة صريحة لأن يترك اليهود اليهودية من أجل اتبّاع الديانة المسيحية.

وهي الصلاة التي جرّت على البابا هجوماً غير مسبوق من رجال الدين اليهود.. أمّا "عودين بن حورون" سفير إسرائيل في روما فقد قال ناقماً "إن هناك تغيراً في مواقف البابا

تجاه اليهود، وما يجرى حالياً يعدّ تراجعاً فى العلاقات بين اليهودية والمسيحية".

• • •

ربما لا يلاحظ الكثيرون ذلك الصراع الخفى بين المسيحية واليهودية على أثر قوة الصراع بين الإسلام واليهودية.. لكن انكثير من معالم الحرب الباردة بين اليهودية والمسيحية لا تنقطع وبينما تحاول المسيحية جذب اليهودية للإعتناق أوالاندماج والذوبان.. فإن اليهودية تحاول دفع المسيحية إلى منطقة وسطى بين المسيحية واليهودية.. أو أن تصبح المسيحية أقل مسيحية وأكثر يهودية. وضمن آليات عديدة لهذا الغرض يتبدى مذهب "الكابالا" للقيام بدور.

والكابالا.. هو مذهب يهودى صوفى.. يقوم على مقولات روحانية وأفكار صوفية هائمة.. جانب من المذهب يقوم على إدعاءات السمو الروحانى والتحليق خارج الماديات ومقاومة ضغوط العصر بالتجرد منه وخلق حالة ذاتية من الصفاء والنقاء.. وهو فى جانب آخر منه يذهب إلى مواقع خرافية من التفكير.. مثل الاعتماد على التعاويذ والأحجبة والمقتنيات الشخصية من أجل طرد الجنّ ومقاومة الشياطين!

إن مثل هذه الأفكار تجد هوى لدى الشخصيات الأكثر ثراءً وشهرة ونفوذاً ممن يعيشون فى حالات ممتدة من القلق والمنافسة، وهكذا نجح مذهب الكابالا اليهودى فى جذب بعض أفراد تلك الطبقة المترفة بدعوى الصفاء الذهنى ويقظة الروح.

كتبت المطربة الشهيرة "مادونا" مقالاً فى صحيفة "يديعوت أحرونوت" الإسرائيلية تصف فيه يقظتها الروحية حين اكتشفت مذهب الكابالا.. تقول: "لقد جعلنى ذلك أرى قطع اللغز كاملة".. "قبل سنوات كنت نجمة كبيرة.. لكننى أحسست أن شيئاً ينقصنى.. إنه الفراغ الروحى.. أرشدنى معلّمى اليهودى إلى مذهب الكابالا.. إن الشهرة والنجاح لايكفيان.. هناك فراغ روحى.. والكابالا تملأ ذلك"!

قامت "مادونا" باتخاذ اسم يهودى لها هو "استير" وأدّت مناسك الحج

اليهودى فى إسرائيل!

هنا يجئ دور السياسة.. استقبل الرئيس الإسرائيلي شيمون بيريز المطربة مادونا. قال لها: . لولا الصهيونية لما كنتِ هنا.. ولما عادت إليكِ الروح.. وأعطاها كتاباً عن الصهيونية، وبعد لقائها بيريز أعلنت مادونا نفسها سفيرة لليهودية فى العالم.

إن "ديمى مور" و "بريتني سبيرز" وآخرين هم من أعضاء مذهب الكابالا.. حيث الشكل المسيحي والمضمون اليهودى.. أو حيث المسيحية أكثر يهودية.. أو حيث المسيحية فى خدمة إسرائيل.

• • •

إن نماذج الإنفلات الإسرائيلي تمتد من عدم الاعتراف بدولة فلسطينية إلى المطالبة بإسقاط الأردن إلى تصعيد مستوى العداء مع مصر إلى إهانة الحليف التركى إلى نقد الولايات المتحدة وأوروبا.. من أجل تسريع الخطى فى الحرب على إيران ثم إلى التحدى الدينى للإسلام والمسيحية معاً. يكمن وراء ذلك الإنفلات إحساس إسرائيلي بالقوة المفرطة.. وعدم الحاجة إلى إخفاء تلك القوة أو التقليل من هذه القدرة. ولقد تبدّى ذلك الإحساس المتضخّم بالقوة فى الإعلان الإسرائيلي عن القدرات النووية العسكرية على نحو غير مسبوق.

كانت إسرائيل فى السابق تلجأ فى إعلان قوتها النووية إلى التلميح.. ولكنها تجاوزت ذلك مؤخراً إلى التصريح، حيث تحدث إيهود أولمرت عن السلاح النووى الإسرائيلي.. وفى إجراء أمريكي نادر اعتبرت وزارة الدفاع الأمريكية إسرائيل قوة نووية.. وقالت الصحف إن الجيش الأمريكي صنّف إسرائيل باعتبارها قوة نووية عظمى مع روسيا والصين والهند وباكستان وكوريا الشمالية. وهى بذلك تسبق مجموعة الدول التى صنفها الجيش الأمريكي بأنها "دول تقف على العتبة النووية" وتشمل اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان.. وتسبق دول "العتبة النووية بدورها" ما أسماه الجيش الأمريكي "الدول الناشئة نووياً" مثل إيران.

يجئ الاعتراف الإسرائيلي بعد تصريحات سابقة لمسئولين أمريكيين عن السلاح

النووى الإسرائيلى.. فقد سبق للرئيس جيمى كارتر أن تحدث عن امتلاك إسرائيل مائة وخمسين قنبلة نووية.. كما تحدث وزير الدفاع الأمريكى "روبرت جيتس" عن أسباب السعى الإيرانى لإنتاج قنبلة نووية بأن إيران ترى نفسها محاصرة بين قوى نووية.. روسيا فى الشمال وباكستان فى الشرق وإسرائيل فى الغرب.

• • •

إن البحث العميق فى أسباب الإنفلات الإسرائيلى لا يفسره فقط الشعور المفرط بالقوة.. وإنما يفسره أيضاً الشعور المفرط بالضعف.

ذلك أن إسرائيل القوية تُخفى خلفها إسرائيل الضعيفة وتماسك الجيش يُخفى وراءه تدهور الدولة.

وقد عبّر الكاتب الإسرائيلى "ألوف بن" عن ذلك الانهيار فى مقالة نشرتها صحيفة "الجارديان" تحدث فيها عن أن نصف التلاميذ فى الصف الأول الإبتدائى إما إنهم عرب غير يهود أو إنهم يهود أصوليون لا مستقبل لهم.

فاليهود الأصوليون لا يؤدون الخدمة العسكرية ولا يعملون فى المصانع والشركات والخدمات.. وإنما يتفرغون للعبادة وتلاوة التوراة.. وهو مايعنى أن نصف إسرائيل لن يكون مفيداً للجيش ولا مفيداً للتنمية.

بتعبير "ألوف بن" فإن نصف إسرائيل سيعيش عبئاً على النصف الآخر.. أو بتعبير أكثر وضوحاً لخبير إقتصادى إسرائيلى: "إننا نحمل فيلاً فوق ظهورنا.. وقد يدفننا تحته".. ويقول رئيس الأركان الإسرائيلى الجنرال "جابى أشكينازى": "بعد عشرين سنة لن نستدعى إلى الخدمة العسكرية إلا عدد قليل"!

كانت إسرائيل تعتمد فى السابق على موجات الهجرة اليهودية التى تغذى إسرائيل.. إمّا "ناجون من الهولوكست" أو "يهود سفارديم من العالم الغربى والإسلامى" أو "اليهود السوفييت" أو "اليهود الأثيوبيون".. !

ولكن بحيرة المهاجرين قد أصابها الجفاف.. بل إن إسرائيل تشهد هجرة مضادة من

إسرائيل إلى العالم بعد أن كانت الهجرات السابقة من العالم إلى إسرائيل.

يتوازى مع الإنقسام الدينى وضعف المستقبل للدولة العبرية.. إنكسار الحاضر من جراء الفساد غير المسبوق لدى رجال السياسة.

• • •

ثمة مشهد مثير فى شأن الفساد والفاسدين فى إسرائيل.. كان رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق آرييل شارون ممدداً على سريره في المستشفى.. في غيبوبة طويلة دخلها منذ مطلع العام 2006م. كان المدهش فى مرض شارون هو مايفعله ابنه "جلعاد شارون".. حيث كان يستغل زوار والده لترتيب المصالح وعقد الصفقات.

وحين أرادت السلطات نقل شارون إلى منزله بعد خمس سنوات كاملة قضاها فى المستشفى، قاوم شارون الابن طويلاً لمنع والده من العودة إلى المنزل.. حتى لا يفقد الصلات وتتراجع الصفقات!

إن إدارة نتنياهو تتهم عائلة شارون بالفساد وعائلة شارون تتهم نتنياهو بالفساد.. وقد ألف "جلعاد شارون" كتاباً عن والده بعنوان "شارون سيرة حياة" نشره فى صحيفة "يديعوت أحرونوت" يقوم الكتاب في معظم فصوله على إثبات فساد النخبة الحاكمة في إسرائيل.

يقول المؤرخ المعاصر "توم سيجيف" في حسرة: "إذا كنت شاباً إسرائيلياً.. سوف تجد رئيس الدولة "موشيه كاتساف" يحاكم فى قضية تحرش جنسى، ورئيس الوزراء السابق "إيهود أولمرت" يحاكم في قضية فساد، وعدد من أعضاء الكنيست موجودون فى السجن بتهم متعددة..

من الطبيعى إذن أن تفقد الأجيال الجديدة الثقة في الإدارة السياسية لإسرائيل.. وأن تنهار المبادئ الديمقراطية لديهم"..

عاد التاريخ ليعتدل من جديد.. شروق في مصر وغروب فى إسرائيل، خريف الفساد فى القاهرة وربيع الفساد في تل أبيب.

جاءت ثورة 25 يناير 2011 المجيدة لتنهى حقبة كاملة مثّلها عصر حسنى

مبارك "هزيمة بلاحرب".. ولتفتح الباب أمام حقبة جديدة مشروعها.. "نصر بلا حرب".

• • •

حين صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب "ما بعد إسرائيل" كان الأفق مسدوداً والأمل محدوداً.

لم تكن مصر تستطيع.. ذلك أن المشروع السياسي لحسني مبارك كان.. "صناعة اليأس".

سقط حسني مبارك وسقط معه مشروع "مصر الصغرى".. وأصبح بمقدورنا أن نهتف واثقين: الآن نستطيع.

• • •

إنني إذ أقدم الطبعة الثانية من كتابي "ما بعد إسرائيل"، يطيب لي أن أتقدم بخالص الشكر والتقدير إلى الناشر البارز الأستاذ محمد هاشم صاحب دار ميريت للنشر والذي تفضّل بنشر الكتاب في طبعته الأولى على أفضل وجه.

كما أشكر الفنان المتميز الأستاذ أحمد اللباد الذي صمم الغلاف الباهر الذي ميّز طبعة دار ميريت.

ويطيب لي أيضاً أن أتقدم بوافر التقدير إلى الصديق الأستاذ إبراهيم منصور رئيس التحرير التنفيذي لصحيفة التحرير الذي قام بتقديمي إلى الأستاذ محمد هاشم ودار ميريت وواصل تأييده ومساندته حتى صدور الكتاب ونفاذ طبعته الأولى.

إنني مدين لعائلتي هانم وفاطمة ومحمد وزينب ورقية.. ولوالدتي الحاجة سماد الصاوي.. الذين منحوني الكثير من العواطف ومنعوا عنّي الكثير من العواصف.

ويبقى شكري وامتناني للقارئ الكريم الذي أتشرف بأن أترك الطبعة الجديدة من "ما بعد إسرائيل" بين يديه.

حفظ الله الوطن.

أحمد المسلماني

بسيون – الزمالك 2012

مقدمة الطبعة الأولى

وضع العالم النرويجي "جوهان جالتونج" في السبعينات بحثاً بعنوان "بعض الملاحظات حول الـ(2500) سنة المنصرمة، وبعض الملاحظات الإضافية عن الـ(500) سنة القادمة"!

وقد فكرت طويلاً فلم أجد وصفاً أدق لهذا الكتاب من وصف جالتونج لمضمون بحثه قبل ربع قرن.

والعادة.. أن الكاتب لا يشرع في عمل إلا قاصدًا المرور بسيطه، والتلكؤ عند المفاصل ومفترقات الطرق.. وانحناءات السياسة والقدر.

والعادة أيضاً.. أنه يستشعر النشوة كلما وجد مرجعاً للاطلاع أو مصدراً للمعرفة. والعادة ثالثاً.. أنه يجد ضرورة في تقديم نقد هنا ودعم هناك، أو في إلقاء إتهام هنا وإزاحة إتهام هناك.. مؤكداً على أنه يمسك بالأحداث والأشخاص.. وله حق تقرير المصير!

ولقد وجدت أن تلك العادات لا يمكنها البقاء طويلاً أمام مهنة البحث في موضوع كهذا، حيث لا يمكن التلكؤ عند تقاطعاته ولا النشوى بمصادره، ولا امتلاك ناصية الرأى فيه، ولا حتى إدعاء الحكمة بأثر رجعي فيما مضى وانقضى.

• • •

وقد تأملت طويلاً ما كتبه الأستاذ محمد حسنين هيكل.. وكنت ألجأ إلى كتاباته ملتمسًا الرأى كلما ضاقت المعلومة، أو متقصيًا المعلومة حين يختلط الرأى، فوجدته – في حالات عديدة – شاهدًا حين يجب أن يكون قاضيًا، وقاضيًا حين يجب أن يكون شاهدًا،

وغالبًا حين تتعقد القضايا وترتبك الأحكام وتتبدل مواقع الإدعاء والإتهام!

وبعد مشروع طويل وصل به هيكل إلى مدى بعيد وجدته - في عبارات عاجلة خجولة - يتحدث بإعجاب عن الرئيس السادات، وداعياً إلى إعادة الإعتبار إليه.. فقد كان سابقًا لزمانه وأنقذ مصر من مصير مجهول.

وهو قول لم يعد إليه مرة أخرى، ولمّا نشرته الصحف نقلاً عنه وهو يحاضر في معهد الإدارة العليا بالإسكندرية.. لم يعلق.

وقد مررت على ما كتبه الأستاذ لطفي الخولي.. فوجدته يقول في خاتمة حياته ما لم يقله في حياته كلها، من اليسار إلى اليمين، ومن المزايدة على الحرب إلى المزايدة على السلام!

ثم وجدت الأستاذ محمد سيد أحمد.. يتقدم طواعية معترفاً بالارتباك.. يقول في كتابه "بعد أن تسكت المدافع": وقفت ضد التيار، وكنت أرى أن المصالحة ممكنة، وكان الكل وقتها يرون السلام مستحيلاً، وبعد عشرين عاماً رأيت في كتابي "سلام أم سراب" أن التعامل مع إسرائيل من الداخل صعب، والحل هو تغيير موازين القوى عن طريق التعامل مع إسرائيل من الخارج، رأيتُ في الكتاب الأول عكس ما رأيته في الكتاب الثاني"!

وإذا كان هذا هو شأن "خاصة الخاصة" في مصر من الارتباك وتحوّلات الرأي والتقدير فما الذي عساه أن يفعله الآخرون.

• • •

هذه الحالة.. ليست حالتنا نحن وحدنا، بل هي حالة الآخرين أيضاً. ويروي الكاتب الإسرائيلي "آفي شلايم" نموذجاً مماثلاً للحيرة وعدم الإستقرار يقول: "في الشهر التالي لتوقيع اتفاق أوسلو بأيدٍ مرتعشة في حديقة البيت الأبيض (13 سبتمبر 1993) نشرت دورية "لندن ريفيو أوف بوليتيكس" مقالتين حول الاتفاق، مقال رافض لإدوارد سعيد الذي وصف الاتفاق بأنه "فرساي فلسطينية"، وأن ياسر عرفات ألغى بتوقيعه ميثاق منظمة

التحرير وتنازل عن الحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني. ومقال لى وفيه أيدت الاتفاق، ورأيته يمثل نجاحاً كبيراً فى الصراع الطويل المرير على فلسطين.

وطوال السنوات التالية كان عقلى يعود مراراً إلى ذلك الجدل المبكر. من الذى استطاع أن يقرأ الأمور قراءة صحيحة؟ هل هو إدوارد سعيد أم أنا؟.. فتارة كنت أشعر بأن الأمور تسير حسبما رآها هو، وتارة أخرى كنت أراها تسير كما رأيتها أنا، وثالثة كنت أعود فأراها تسير حسبما رآها هو.. وربما ينطبق هنا تعبير "شواين لاى" الشهير.. "بأن الوقت لم يحن بعد للتحدث عن الثورة الفرنسية".. ومن ثم على اتفاق أوسلو.

ويحلو لدارس العلوم السياسية تفسير هذه المراوحة فى فهم طبيعة الصراع العربى – الإسرائيلى بأنها لا تعود إلى كونْ المحللين يفتقدون النضج والقدرة على سبرْ الأغوار، بل إن الصراع نفسه هو صراع غير ناضج. ويزيد "ريتشارد هاس" مسئول التخطيط السياسى فى إدارة الرئيس بوش الابن.. بأن أزمة فلسطين هى أزمة غير قابلة للنضج من الأساس، لأنها تنطوى على مقدسات يصعب أن يكون لها "حل وسط"، وهذا النوع من الأزمات ليس له دواء غير عزل الأزمة ثم تركها للنسيان بمرور الزمن.. فتستهلك الأزمة نفسها بالتآكل والتلاشى.

• • •

الحادث أنه لا السياسيين راضون، ولا المثقفين أيضاً.. وأذكر يوماً أنى سألت أحد المثقفين البارزين عما إذا كان من الضرورى إعطاء فرصة لحركة السلام المصرية للعمل والفعل.. وتأجيل الأحكام بشأنها.. فبادرنى لائماً على سؤال لايجوز وعلى إجابة واضحة كالشمس.

وبعدها بأيام التقيت الراحل "فيصل الحسينى" مسئول ملف القدس فى السلطة الوطنية الفلسطينية فى القاهرة.. وسألته نفس السؤال فبادرنى لائماً على سؤال لا يجوز.. وعلى إجابة واضحة كالشمس.

وكان رأى المثقف البارز.. لا، ورأى فيصل الحسينى.. نعم، بل وذهب الحسينى إلى

ضرورة قيام المثقفين بزيارة السلطة الوطنية الفلسطينية دون أن يكون ذلك تطبيعاً وقال: إن البعض بهذه المزايدات يفرض حصاراً حول الفلسطينيين لا حول إسرائيل!

وفي إسرائيل، تتضح المشاهد نفسها: تلعثم وارتباك وإحساس بالمحنة.. حرب أم سلام؟ دولة أم دولتين؟ دين أم دنيا؟ صهيونية أم مابعدها ؟.. وقد أسهمت الإنتفاضة الثانية في تعظيم المحنة بعد أن زادت أزمة الإقتصاد، وغاب الأمن خارج غرف النوم، وأصبحت إسرائيل أشبه بإمارات الحروب في العصور الوسطى.

وحين انهزمت إسرائيل أمام النمسا في تصفيات كأس العالم في أكتوبر 2001، كتب "بن كسبيت" المعلق السياسي لصحيفة "معاريف" يقول: "راحت النمسا لتنافس من أجل الفوز بالمشاركة في المونديال.. وأبقتنا هنا مع الإنتفاضة والبطالة والعمليات الانتحارية".. وقالت صحيفة أخرى: "إنها الضربة القاصمة أمام العدو النمساوي النازي المعادي للسامية".. وحملت إحدى لافتات الإستاد عبارة "الدولة تتوسّل للنصر"، وكتبت إحدى الصحف: "من قال إننا شعب الله المختار.. لقد خدعنا "، وكتبت أخرى عن الفريق النمساوي: "إنه عدو لم يُعر أي إهتمام لصرخات التحقير التي أطلقها (45) ألف متفرج خلال عزف النشيد الوطني النمساوي، أمام فريق رفض (14) لاعباً أساسياً فيه السفر إلى إسرائيل خوفاً على حياتهم.. لقد بعثوا إلينا بمجموعة من المتقاعدين الذين نجحوا في سلبنا الابتسامة".

وما قالته "معاريف" بشأن استكمال النمسا محاولتها المشاركة في المونديال وتركها إسرائيل والإنتفاضة وجهاً لوجه.. هو قول مختصر وصحيح.

• • •

لقد فشل جنرالات الحرب في وضع نهاية للصراع بمثل ما فشل دعاة السلام، وقد حاول "مروان البرغوثي" الأمرين معاً.. فانضم إلى "تحالف كوبنهاجن للسلام" ولم يتحقق السلام، وقاد الإنتفاضة الثانية ولم يأت الانتصار!

وحين وقعت أحداث الإنتفاضة الثانية، انفض معسكر السلام في إسرائيل، ومن بين

أكثر من (70) جماعة للسلام هناك لم تظهر سوى أصوات محدودة وباهتة، واختفى المؤرخون الجدد ودعاة ما بعد الصهيونية، غير قليلين لم يستمع إليهم أحد.

وبعد رابين لم يعد ممكناً الاعتماد على أحد في إسرائيل، فقد بقي بيريز على حالته المستمصية.. فيلسوفاً بلا أخلاق.

وبدوره، أضاع باراك فرصة السلام الممكنة، ولم يفعل طيلة سنوات في الحكم غير عقد المؤتمرات الصحفية "الفارغة".

ويذكر "هيكل" أن "حاييم رامون" وقف أمام باراك في اجتماع لحزب العمل ثم قال: "إن كل ما فعلته طوال رئاستك للوزارة، هو أنك وقفت في مكان مرتفع ثم (تبولت) وقلت لنا: هذا هو المطر فازرعوا واحصدوا، واشكروا الرب الذي أفاض عليكم نعمه"!

• • •

إن مأزق العرب بإسرائيل قد يكون أقل سوءاً من مأزق إسرائيل بذاتها.. فإسرائيل حالة تفتقد الأمن الطبيعي، والإقتصاد الطبيعي، والجوار الطبيعي، وهي إجمالاً حالة غير طبيعية، ومن المؤكد أن كثيراً من الإسرائيليين الذين جرفتهم الأمركة والعولمة يرغبون في حياة كسولة ومعيشة رغدة، غير أن ذلك ليس متاحاً تماماً، فالخدمة العسكرية تقسم العمر إلى نصفين، واحتمالات الموت تقارب احتمالات الحياة.. إن الإسرائيليين ضعفاء في بلد قوي، خائفين في بلد مغامر، إنهم يعيشون في بلد غير طبيعي!

• • •

لقد كان انعقاد مؤتمر بازل في سويسرا عام 1997، في مناسبة الاحتفال بمرور مائة عام على المؤتمر الصهيوني الأول في المدينة نفسها عام 1897.. مناسبة لاستيعاب ما جرى، وما جرى هو نجاح الحركة الصهيونية في إقامة دولة وفشلها في إقامة شعب، أو هي دولة تمتلك القوة وشعب يفتقد القدرة.

وبعد مائة عام لم تكن الأمور على ما يرام، فالخوف من هواجس "معاداة السامية"

يزداد، وفي كل يوم تخسر إسرائيل أكثر مما تكسب، وتشعر الحركة الصهيونية بالمزيد من العزلة.

وفي هذا المؤتمر المنعقد في بازل.. كان (17) ألف رجل أمن سويسري يعملون على حماية المؤتمر والمشاركين فيه، وكانت المظاهرات المناهضة للصهيونية تطوف في بازل وفي غيرها من المدن السويسرية..

وكان "حاييم وايزمان" خليفة "هرتزل" وأول رئيس لدولة إسرائيل يقول: "لا ينبغي أن تكون مجنوناً لكي تكون صهيونياً.. لكن ذلك يساعد"، وربما يكون مناسباً اليوم استدعاء تلك المقولة: "لا ينبغي أن تكون مجنوناً لكي تبقى صهيونياً.. لكن ذلك يساعد"..
ففي كل عام يهاجر آلاف اليهود من إسرائيل إلى الولايات المتحدة وأوروبا للاستقرار، وفي بعض السنوات كانت الهجرة من إسرائيل أكبر من الهجرة إليها.

وفي عام 1997 حين كانت الحركة الصهيونية تحتفل بعيدها المئوي، كان بعض اليهود الشرقيين في إسرائيل – هرباً من العنصرية والتمييز – يتقدمون بطلبات لجوء سياسي إلى السلطة الوطنية الفلسطينية!

• • •

تفقد إسرائيل من (18) ألف إلى (20) ألف شخص سنوياً بسبب الهجرة التي زادت بعد الإنتفاضة وحتى ألمانيا بدأت تجتذب الإسرائيليين، وخلال ثلاثة أعوام (1998 – 2001) استقبلت عشرة آلاف يهودي من إسرائيل، جميعهم ذهبوا يطالبون بالجنسية الألمانية على أساس أن أجدادهم ولدوا هناك قبل الحقبة النازية.

ويذكر الصحفي الإيراني "أمير طاهري" أنه خلال حقبة التسعينات جاء إلى إسرائيل مليون ونصف المليون مهاجر من الإتحاد السوفيتي السابق.. ثم سرعان ما تواصل النزيف السكاني، وغادر إسرائيل ثلث القادمين الجدد من الكتلة السوفيتية السابقة باتجاه الولايات المتحدة عقب استخدامهم إسرائيل جسراً للعبور، ويحمل

نصف مواطنى إسرائيل جنسيتين أو ثلاث.

ويصف الباحث الإسرائيلى "آمون صوفر" من جامعة حيفا.. حالة النمو السكانى فى إسرائيل بالخمول، فالفلسطينيون سيشكلون (58٪) من إسرائيل والأراضى المحتلة وثلث السكان فى إسرائيل بنهاية عام 2020، وخلال ثلاثين سنة ستكون هناك أغلبية فلسطينية فى إسرائيل، وهذا هو السبب فى حديث شارون المتواصل عن أمله فى وصول مليون يهودى للاستيطان، لكن لا الأوروبيين ولا الأمريكيين لديهم الرغبة فى ذلك، وأكبر جالية خارجهما هى فى إيران (75) ألف يهودى.. لن يخرجوا، ولو خرجوا سيكون خروجهم إلى كاليفورنيا لا إسرائيل.

الحياة فى إسرائيل غير آمنة، والأهم أنها مكلفة للغاية، فهى أغلى من الولايات المتحدة الأمريكية، ويعبر الروائى الإسرائيلى "عاموس عوز" عن الوضع بقوله: إن الحياة فى إسرائيل ملهاة، ومن النكات الرائجة أن الذى يريد أن يكوّن ثروة صغيرة فى إسرائيل عليه أن يصل وهو يمتلك ثروة كبيرة!

• • •

إسرائيل دولة صغيرة، لا تزيد مساحتها عن (1٪) من مساحة السعودية، وهذه المساحة الصغيرة تقوم عليها مفاعلات نووية تنتج (200) قنبلة نووية تنذر بوقوع كارثة ضخمة فى حال وقوع حادث صغير.. وبعملية حسابية بسيطة فإنه توجد قنبلة نووية لكل (20) ألف يهودى فى إسرائيل.. أى قنبلة لكل قرية!

وإن الصورة العامة فى إسرائيل.. مشكلة سكانية، وهجرة إلى الخارج، وأزمة فى المجتمع، وأزمة فى الإقتصاد، وفى مساحة صغيرة يعيش الكل فى خوف.. كثير من القنابل وقليل من الأمن.

• • •

إذا كانت هذه هى حالة اليهود فى إسرائيل، فإن حالتهم خارج إسرائيل لا تفتقد المشكلات والمشكلة الأكبر "برأى اليهود" هى الذوبان والتلاشى على الرغم من قوة المال

وسطوة النفوذ.. أى تحول اليهود إلى جماعات سياسية واقتصادية لا جماعات دينية قومية.
وقد نشرت صحيفة "الديلى تلجراف" البريطانية فى مايو عام2001 ثلاثة مقالات فى الذكرى الخمسين لقيام إسرائيل. أبدى المقال الأول إعجاباً بالتجربة، وتناول المقال الثانى خطر العربى على اليهودى ورصد الثالث تعرض يهود أمريكا وبريطانيا للذوبان.

فى المقال الثالث كتب "جراهام تيرنر" واصفاً اليهودية بأنها تواجه الغرق.. فالأجيال الجديدة من اليهود لا يحملون شيئاً من ذكريات "المحرقة"، إنهم يعيشون فى مجتمعات مفتوحة ومتسامحة، الأمر الذى يصعب معه العيش داخل مجتمعات منعزلة، وهى الطريقة التى حافظت على بقاء اليهود وحفظتهم من الذوبان عبر التاريخ.

ينقل "جراهام تيرنر" عن محامى يهودى يعيش فى شيكاغو قوله: إن أمريكا تستكمل عمل هتلر.. إن المشكلة تكمن فى أن أمريكا مجتمع شديد الانفتاح وشديد التسامح، فبإمكانك محاربة عدو يضطهدك، ولكن كيف يمكنك محاربة عدو يعرض عليك مشروباً؟! إننى خلال السنوات الماضية لم أدع إلى فرح واحد كان فيه الزوجان يهوديين، إن الثقافة اليهودية سوف تختفى.. وبمنتهى البساطة".

وينقل "تيرنر" عن زوجة مالك صحيفة فى فيرجينيا: "إنهم يقتلوننا باللطف والذكاء فى هذا البلد، فالذوبان حتمى.. واليهودية فى أمريكا تغرق". وقد نشرت إحدى المجلات "كاريكاتيراً" لشخصين واقفين إلى جوار سرير زواج وقد طبعت نجمة داوود على ظهر المرأة، وصليباً على ظهر الرجل، وتحت الرسم تعليق يقول "الحل الأخير"!

فى الولايات المتحدة يتزوج (6) من كل (10) يهود من غير اليهود، وهى النسبة ذاتها فى بريطانيا، ويذهب مركز الإتحاد العالمى لليهود التقدميين فى نيويورك إلى أنه "حيثما يوجد زواج مختلط، فإن ربع عدد الأطفال فقط تتم تربيتهم كيهود، وفى الجيل القادم فإن (6٪) فقط منهم سوف يعرفون أنفسهم بأنهم يهود، وبناءً على ذلك ففى خلال جيلين فقط سيكون قد تم القضاء على السلالة اليهودية.. ومن الواضح أن أعداء السامية قد

أحدثوا خللاً جسيماً، وبدلاً من أن يضطهدوا اليهود، وهو ما خدمهم دائماً في تخليد الهوية اليهودية.. قد قاموا بمعانقتنا"!

وتنقل "الديلي تلجراف" عن إحدى قضاة المحكمة العليا الأمريكية قولها: "إنني لم أغضب أبداً لأن ابنتي تزوجت من مسيحي، فهو رجل طيب، بينما كان خطيبها اليهودي الذي كانت تخرج معه شخصاً لا يطاق"!.

ويقول "إسرائيل لاو" كبير حاخامات إسرائيل: إن اليهود قد خسروا من "التآكل" أكثر مما خسروا من الهولوكوست.

ففي بريطانيا وحدها انخفض عدد اليهود من (450) ألفاً في الخمسينات إلى (260) ألفاً في التسعينات، وفي الولايات المتحدة يشكل اليهود (2٪) فقط من السكان أي نصف ما كان عليه الحال قبل أربعين سنة، ويتوقع البعض أن يهبط عدد اليهود الأمريكيين إلى النصف مرة أخرى خلال (25) عاماً.

وعلى مستوى الدين.. فقد حلّت أشجار الكريسماس محلّ الطعام الحلال في الشريعة، وقلّدت المعابد الإصلاحية الكنائس المسيحية في آلاتها الموسيقية، والجيل الجديد لا يرغب أن يكون مختلفاً، إنه يريد أن يكون جزءاً من أمريكا.. فتم تهذيب الدين حتى أصبحت اليهودية عندهم عقيدة متراخية لا تكاد تظهر طقوسها!

ولأن اليهودية ليست ديناً تبشيرياً، فإن الخارجين من الدين لا يحلّ أحد محلّهم، فاليهودية لم تكن أبداً ديانة جذب، حيث لم يدخلها معتنقون جدد طوال (2000) سنة، وفي بريطانيا يتقدم إلى محكمة لندن الحاخامية (150) شخصاً فقط لاعتناق اليهودية كل عام، وفي أغلب الأحوال يرفض الحاخامات رغبة غير اليهود في التحول إلى اليهودية!

وعلى الرغم من تزايد أعداد الأصوليين اليهود، وتكرار اقتحامهم حفلات الغناء وضرب المطربات.. لأن صوت المرأة عورة والموسيقى حرام، فإن المتدينين اليهود عموماً يتسمون بالفظاظة حتى المعتدلين منهم، ولا يشكلون بأي حال نموذجاً للتطلع أو الإقتداء..

ويعترف الحاخام بلون- الذى نقلت عنه الديلى تلجراف - بأنه "كان بإمكاننا أن نحقق إنجازات أفضل لو أننا تعلمنا بعض الفضائل الإنجليزية.. اللباقة والحساسية والذوق. هل تعرفون أن اللغة العبرية لازالت لا تملك بعد (4000) سنة كلمة تعنى اللباقة.. ؟!"

• • •

هنا تتبدى المفارقة بوضوح.. بين أزمة يهودية تشتمل الدين والدنيا معاً، وبين نفوذ يهودى يشمل السياسة والإقتصاد معاً..

وإذا كانت وقائع الذوبان والغرق قائمة فى أوروبا وأمريكا، فإن حقائق النفوذ والقوة تزداد بالتوازى.. أى أن الحقائق تسير عكس الوقائع..

ففى الولايات المتحدة يملك اليهود (7,8%) من الثروة القومية، وهى نسبة ليست عالية على نحو عام.. ولكن الكثير من الشركات الكبرى ومؤسسات الإعلام تحظى بنفوذهم كمساهمين أو كمديرين.. وذات مرة تحدث الممثل الأمريكى "مارلون براندو" إلى المذيع الشهير "لارى كينج" فى شبكة "سى. ان. ان" فهاجم سيطرة اليهود على صناعة السينما الأمريكية، واستخدامهم تلك السيطرة فى تشوية كل الشعوب الأخرى.. أما حين يكون الأمر متعلقاً باليهود فإنهم يستثيرون عاطفة الناس تجاههم، وكأنهم الشعب الوحيد فى تاريخ البشرية الذى تعرض للمذابح.. ولكن "براندو" عاد تحت الضغوط وأبلغ أحد الحاخامات عن اعتذاره!

ويقول "كينيث نام" المسئول السابق فى وزارة الخارجية الأمريكية: "إن هناك محاولة واضحة لصبغ الشخصية اليهودية بالعبقرية.. إن أحداً لم يتحدث عن أصل "وليم روجرز" أو "جورج شولتز" أو حتى "جون فوستر دالاس" أو"جورج مارشال" عندما تسلموا وزارة الخارجية، ولكن فجأة امتلئت وسائل الإعلام بالحديث عن الأصل اليهودى لكل من "هنرى كيسنجر" و"مادلين أولبرايت" - مع التركيز الواضح على تفوقهما.. وهذا ليس صحيحاً إطلاقاً، فأى منهما لا يتمتع بكفاءة دبلوماسية تتجاوز "جيمس بيكر" أو "دين راسك" أو "كريستيان

هيرتر" أو "دينى اتشيسون" الذى قاد بعضهم العمليات المعقدة فى أكثر المراحل احتداماً فى الحرب الباردة.. لم يكن "كيسنجر" أبداً أكثر قدرة من "بريجنسكى" أو "برنت سكوكروفت" أو "وليام كوانت".. فى تقييم الأمور وتقدير السياسات".

ويعترف "كينيث دان" بأن "هنرى كيسنجر" و"مادلين أولبرايت" و"جوزيف سيسكو" و"ريتشارد هولبروك" و"صمويل بيرجر" و"ميلتون فريدمان" و"جورج سوروس" و"ستيفن سبليبرج".. هم أشخاص متميزون.. لكنهم لا يستطيعون الخروج من جلدهم اليهودى. وهناك من يقول بأن "سوروس" قد لا يتردد أبداً فى التحطيم المبرمج للأسواق الأمريكية إذا ما اقتضت المصلحة اليهودية أو الإسرائيلية ذلك!

ويذهب "ديفيد آلتمان" أستاذ المستقبليات الأمريكى إلى أبعد، ويرى أنه قد يوجد هتلر أمريكى فى المستقبل ولكن "الإيباك" ترى أن ذلك مستحيل، فاليهود مغروزون بقوة فى كل القطاعات حتى إذا ما حاولت أية جهة تخريب الوجود اليهودى، فإن الخراب سيلحق بأمريكا كلها ولن يسلم أمريكى من النتائج الكارثية!

• • •

كان النظام العربى بائساً وهو يتعامل مع نشأة إسرائيل.. كانت مجمل التعاملات العربية مع تغيرات السياسات والخرائط.. خارج العصر..

ومما يثير العجب فى هذا المقام هو ذلك الوعى المبكر بخطر المشروع الصهيونى وكارثة قيام دولة يهودية فى فلسطين، ثم ذلك السلوك الفاشل بامتياز فى فعل أى شىء على مدى قرن أو يزيد..

لقد نشرت صحيفة "المقطم" فى 23 أكتوبر 1897 وبعد شهرين فقط من انعقاد المؤتمر الصهيونى الأول فى "بازل" بقيادة "تيودور هرتزل" مقالاً لمراسلها فى باريس بعنوان "مملكة صهيونية".. وجاء فى المقال: "فى بازل اجتمع مائتين من نسل إبراهيم للمفاوضة فى شراء أراض فسيحة وقرى كثيرة فى فلسطين، وجوار "أورشاليم" من الدولة

العلّية، وجعلها مملكة إسرائيلية مستقلة، وعاصمتها القدس، ولا شك أن القراء يعدون تحقيق تلك الأماني أضغاث أحلام، ولكن إذا بحثنا جلياً، وجدنا أن الإسرائيليين قد فكروا في هذا الأمر وشرعوا فيه منذ سنوات".. كما نشرت "الأهرام" في مطلع القرن تحذيرات عديدة في باب "رسائل القراء"! [1]

ومضت السنون، ولاتزال الصحف العربية تنشر نفس المخاوف، ولايزال القراء يواصلون رسائل القلق والتحذير.. دون أمل أو ملل!

• • •

إنها قصة طويلة طويلة.. قصة ما قبل إسرائيل، وقصة إسرائيل وما بعدها، هي قصة الأنبياء الذين قُتلوا، والأطفال الذين استُشهدوا، والأوطان التي ضاقت بالأكفان!

وقد مضت صفحات الكتاب سريعة.. سريعة، ولم تكن هناك فرصة كافية للتعليق على ما عرضناه، ولا لتأكيد ما قصدناه..

ولم يكن من المرغوب هنا أن أضع المراجع في ذيل الصفحات فاصلاً بين المتن والهوامش، وفضّلت أن يصعد الهامش إلى المتن، وأن يقدم المرجع نفسه قبل الشروع في المجيء..

وحين لم تكن مصادرنا أصلية أشرنا إلى المصدر الوسيط وحين كانت صحيفة أو وكالة أنباء أغفلنا في بعضها التواريخ، وقد تجنبنا الألقاب طيلة الطريق..

وسوف يسأل القارئ ذات صفحة: وماذا بعد؟.. وإني لأشعر بالزهو لأني امتلك إجابة سمعتها يوماً من الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي.. سألته نفس السؤال، حين التقيته في مدينة سرت الليبية في ربيع عام 2000، وكان يحدثني عن كتابه "أمريكا.. طلائع التدهور" وقد استعرض مظاهر ومراحل انهيار أمريكا، فقلت له: وماذا بعد؟.. أجاب: ليس بعد!

• • •

إنني مدين للقارئ الذى تحمّل عناء مقدمة طويلة راجيًا أن يكون اعترافي له.. دافعًا لإكمال الطريق، كما أنني مدين لأصدقاء عديدين كانت مناقشاتي معهم بالغة الأهمية في إفادتي وإرشادى، وإلى الأستاذ هشام يونس الكاتب الصحفي بالأهرام والذى كانت مشاهداته للأراضى المحتلة فى بدايات الإنتفاضة الثانية مدداً حقيقياً للتفكير والتأمل.

وإلى الصحفية الأستاذة مروة مشالى التى ساعدتني كثيراً في إعداد الطبعة الثانية لهذا الكتاب، وتفضّلت بمتابعتها حتى أصبحت بين يدي القارىء.

ثم إلى أسرتي وإلى بلدتي.. قرية كفر الدوار مركز بسيون محافظة الغربية.. تلك الحسناء.. الواقعة بين النيل والقمر!

أحمد المسلماني

الفصل الأول

ما قبل إسرائيل

كان كل شيء يتحرك.. الأديان والأفكار والبشر. ولم تكن للخُطى في هذا الوقت المبكر - قبل أكثر من أربعة آلاف سنة - اتجاهات واضحة ولا غايات محددة.. إذ كان القحط والجفاف في الجزيرة العربية وراء الكثير من الهجرات.

وفي هذه الحركة الدؤوبة.. اختفت قبائل بني إسرائيل الذين بدأوا مع عصر إبراهيم وتجولوا بعده في جنبات المنطقة إلى أن تفرقت بقاياهم ولم يعد لهم ذكر.

لقد اختفى العبرانيون في الزحام، ولو أنهم قاوموا بين الزحام ما كان لهم أن يظهروا في ظل حضارات مصر وبابل وآشور وفينيقيا.. التي غطَّت على كل شيء.

ولم تكن القرون التي عاشتها المملكة العبرانية من بدايتها إلى نهايتها سوى خطوط باهتة في خلفية لوحة عملاقة شكلتها حضارات الشرق القديم.

وبتعبير "ويلز" فقد كانت حياة العبرانيين بفلسطين أشبه بحياة رجل أصر على الوقوف وسط ميدان صاخب.. فكان مصيره أن دهمته السيارات.

* * *

حين جاءت الصهيونية كان أهم أهدافها.. هو إعادة كتابة التاريخ، ولم يكن المطلوب هو فقط تجميل تاريخ اليهود واليهودية وتأكيد دعوى العودة إلى فلسطين، وإنما تجاوز الهدف ذلك كثيراً إلى ضرورة إعادة كتابة تاريخ العالم على ضوء تاريخ العبرانيين.

وظهرت كتابات عديدة ترى في الوجود العبراني في فلسطين مركز التاريخ، ومن حول هذا المركز راح المؤلفون ينسجون تاريخاً للثقافات والحضارات.. يتكيء على تاريخ العبرانيين وهو يعرض لتاريخ غيرهم من أمم الدنيا وشعوب الأرض.

في القرن السابع عشر وضع الكاتب الفرنسي الشهير "بونسويه" مؤلفاً عن "تاريخ العالم"، وجعل من "يهوذا" مركز الدنيا. وفي القرن التاسع عشر اعتبر الأديب الأمريكي

"هنرى جورج".. "خروج" اليهود من مصر على يد فرعون بداية لفكرة حقوق الإنسان وتأسيس الحريات، كما اعتبر "آبا إيبان" خروج الإسرائيليين من مصر مع موسى رمز التحرر الوطنى والإجتماعى فى الحضارات واللغات الأخرى.

وفى عام 1987 أصدر "مارتن برنال" كتابه الضخم "أثينا السوداء" ليقول بأن اليهود هم بناة الحضارة الإنسانية وأن فضلهم على التاريخ بلا حدود، وزاد آخرون فتحدثوا عن دور يهودى فى الثورتين الأمريكية والفرنسية، وعن أن عصبة الأمم والأمم المتحدة من بعدها.. كلتاهما تطبيق لفكرة يهودية.

وهكذا فجأة.. أصبحت اليهودية قاعدة التاريخ، وصار العبرانيون محور الشعوب، وزادوا غروراً على غرور.. حتى قالت بعض الاتجاهات الدينية اليهودية: إن الله يستشير الحاخامات عندما توجد مسألة معضلة لا يمكن حلها فى السماء!

لقد دفعت هذه الأمور كثيراً من المؤرخين لنقد وتفنيد هذا الاتجاه، وينقل "روجيه جارودى" عن "برنار لازار": من غير المعقول أن نجعل إسرائيل مركزاً للعالم ومحركاً للشعوب والأمم.. ولكن للأسف.. فقد سار فى هذا الطريق أصدقاء اليهود وأعداؤهم.

•• وعلى خلاف هذا الطريق تسير الصفحات التالية.. التى تعرض لنماذج الحركة الصاخبة فى هذا الوقت المبكر.

أديان متحركة..

ارتباك التاريخ

في عام 1998م.. نشر العالمان "الكسندر وأديث" في فيينا.. بحثاً علمياً مطولاً ينهض على التأويل العلمي للتوراة، وأهم ما جاء في هذا البحث هو ما أعلنه الباحثان من أن طوفان نوح قد وقع في الساعة الثالثة صباحاً بتوقيت جرينتش يوم 23 سبتمبر قبل (9545) عاماً، وقد توصل البحث إلى هذا التوقيت بالاستعانة بما جاء في التوراة، وبما جاء به علم "وندرو كرونولوجي".. الذي يعرف الأحداث الكونية من حلقات جذوع الشجر القديمة.

فقد وجد الباحثان زيادة في "الكربون – 14" عند الحلقة التي تتفق مع (9545) سنة مضت.. ثم مضيا في بحثهما يتحدثان عن أمور أخرى في العلم والتوراة.

إلى هذه الدرجة من الدقة حاولا أديث والكسندر التوصل إلى تاريخ حدث هام للعلم والدين على السواء، على أنه ليس بمقدور أحد أن يفعل نفس الشيء في دراسة تاريخ اليهود أو عصور أنبياء بني إسرائيل.

• • •

يعود أول ذكر لليهود في التاريخ إلى إبراهيم أبو الأنبياء -عليه السلام، وهو في "القرآن الكريم" إبراهيم بن آزر وفي "التوراة" إبراهيم بن تارح، وكان قوم إبراهيم يعيشون في الجزيرة العربية مثل الكثير من الجماعات السامية التي تناثرت في هذا الفضاء الفسيح، وكانت حركة هذه الجماعات وراء سبل العيش تتجه في العادة من الجنوب إلى الشمال، وعندما اشتد القحط والجفاف.. اتجه قوم إبراهيم من الجزيرة العربية إلى الشمال، ثم استقروا في منطقة "أور" في العراق وكانت تسمى بأرض الكلدانيين.

وفي "أور" ثار الخلاف بين إبراهيم وأبيه تارح، حيث كان تارح يعمل صانعاً للأصنام.. فيما كان إبراهيم يدعو لترك الأصنام وعبادة الله الواحد. وهاجر إبراهيم من "أور" على أثر هذا الخلاف الذي لم يستطع حسمه لصالح الدين الجديد.

اتجه إبراهيم ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط وآخرون ممن اتبعوه إلى أرض الكنعانيين في فلسطين، وليس معروفاً على وجه الدقة متى كانت هجرة إبراهيم من العراق إلى فلسطين، والأغلب أنها كانت عام 2000 ق. م، وأن عصر إبراهيم ينحصر ما بين عامي (2100 – 1900) ق. م.

• • •

قبل ظهور إبراهيم بألف عام، كانت الهجرات تتوالى من الجزيرة العربية إلى الشمال تحت ضغط القحط والفقر، وكان الفينيقيون من أسبق هذه الجماعات هجرة.

اتجه الفينيقيون إلى شاطيء البحر المتوسط وهناك استقر بهم المقام. وإلى الجنوب منهم استقرت قبائل أخرى جاءت من الجزيرة العربية، وكان الكنعانيون من أبناء كنعان بن حام بن نوح هم أشهر هذه القبائل التي استقرت على الضفة الغربية لنهر الأردن وحتى البحر المتوسط .. واسم منطقة استقرارهم "كنعان" ومعناها الأرض المنخفضة.

ولم يكن الفينيقيون والكنعانيون الذين جاءوا من الجزيرة العربية هم أول من سكن أرض كنعان وما فوقها، إذ يدل علم الآثار على وجود الإنسان في هذه البقعة قبل خمسة آلاف سنة من مجيئهم، أي قبل عشرة آلاف سنة من الآن. على أن الدور الحضاري للإنسان في هذه الأرض يعود فقط إلى وجود الكنعانيين الذين أقاموا حضارة مدنية كبرى عرفت الحديد والكتابة. وإلى الشمال الشرقي من كنعان، كانت تعيش قبائل الآراميين التي هاجرت من العراق بعد أن ازدحمت منطقة حوض نهر الفرات بالمهاجرين من الجزيرة العربية، والآراميون هم السوريون وكانت عاصمتهم دمشق.

وإلى الشرق من نهر الأردن ثم إلى جنوب البحر الميت كانت تقع الممالك الثلاث: عمون ومؤاب وإدوم.. وقد جاء سكانها من العراق أيضاً، ولغتها لهجة من الكنعانية، وتعد مؤاب هي أكثر هذه الممالك حضارة.

وفي الجنوب الشرقي كانت تعيش قبائل مدين، وفي الجنوب الغربي كانت مصر،

وإلى الشمال والشمال الشرقي كانت حضارتا بابل وآشور.

استمرت الأمور على هذا النحو.. قبائل تأتي من الجزيرة العربية إلى العراق ومن العراق إلى كنعان وما حولها، إلى أن كان عام 1200 ق. م حيث نزلت بالساحل المطل على البحر المتوسط قبائل فلستين، وهم من شعوب البحر sea-people المشهورين في التاريخ القديم، وقد جاءوا من جزيرة كريت لاضطراب بلادهم نتيجة تدفق الإغريق إبان حرب طروادة.

وطبقاً لجوستاف لوبون في "اليهود في تاريخ الحضارات الأولى".. فقد اختلط الفلستينيون القادمون من كريت والذين استقروا بين غزة ويافا مع الكنعانيين - الذين سبقت هجرتهم من الجزيرة العربية - وأصبحت البلاد تسمى فلسطين.

وهكذا كان الفينيقيون والكنعانيون ثم الآراميون والعمونيون والمؤابيون والإدوميون ثم آل إبراهيم ثم الفلستينيون.. هم اللاعبون الأساسيون في فلسطين وعلى أطرافها في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد.

جاء رهط إبراهيم من العراق عام 2000 ق. م ليجد حضارة راقية في كنعان عمادها الكنعانيون الذين سبقوا في الهجرة من الجزيرة العربية.. وكان على القادمين الجدد أن يحاربوا الكنعانيين ليتمكنوا من الإقامة في أرضهم، ولكنهم لم يسيطروا سوى على التلال والأراضي الداخلية الفقيرة، فيما ظل الكنعانيون مسيطرون على مناطق السهول الغنية.

• • •

أطلق أهل كنعان على إبراهيم اسم "عبري" أي الرجل الذي جاء "عبر النهر".. دجلة والفرات، وأسموا أسرته بالعبرانيين أو العبريين.. وأخذ العبرانيون من الكنعانيين مظاهر التحضر.. أخذوا منهم لغتهم ومظهرهم وطريقة معيشتهم، إلا أنهم تميزوا عنهم في جانب الدين، إذ استمر العبرانيون على تعليمات إبراهيم بعدم الانخراط في عبادة الأصنام وإخلاص العبادة لله الواحد.

مضت السنون إلى أن عمّت المجاعة أرض كنعان، فجاء إبراهيم ومعه زوجته سارة وابن أخيه لوط إلى مصر هرباً من القحط والجفاف الذى أصابهم هناك.

جاءت هجرة إبراهيم إلى مصر بعد عام 2000 ق. م، فى عهد الأسرة الثانية عشرة الفرعونية.. حيث كانت زيارات الساميين لمصر معهودة فى ذلك الوقت، وحظى بعضها بالتسجيل فى مقابر بنى حسن بالمنيا.

تقول التوراة "سفر الخروج" فى وصف زيارة إبراهيم لمصر ما يتنافى ومقام الأنبياء: (وحدث جوع فى الأرض فنزل إبرام "إبراهيم" إلى مصر. قال لزوجته.. إنك امرأة جميلة المنظر، وإذا رآك المصريون يقولون هذه زوجته فيقتلونى ويستحيونك، قولى إنك أختى لتطيب حياتى بسببك. رأى المصريون المرأة فإذا هى جميلة جداً، ورآها رؤساء فرعون وعظّموها لفرعون، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، فأحسن لإبرام بسببها، فضرب الرب فرعون ضربات عظيمة هو وبيته بسبب ساراى "سارة" امرأة إبرام.. فطلب فرعون إبرام وقال له.. ماذا صنعت بى، لماذا لم تخبرنى أنها زوجتك، لماذا قلت إنها أختى فأخذتها لى زوجة، فالآن ها هى.. خذها وانصرف، وأعطى فرعون إبراهيم جارية مصرية هى هاجر وزاده فى أمتعته ومنتولاته".

وفى صدد التعليق على موقف فرعون من زوجة إبراهيم يذكر "فرنسيس دافدسن" فى كتابه "تفسير الكتاب المقدس" قول المفسر اللاهوتى "كيفن": "إن فرعون كان يتسم بالاستقامة الطبيعية والأخلاق الحميدة".. وبالطبع فإن رواية التوراة تخالف ما جاء فى القرآن الكريم.

لم يمكث إبراهيم بمصر كثيراً، إذ تروى التوراة أنه اتجه جنوباً من مصر لكنه فوجىء بقبائل سوداء البشرة، فخشى على نفسه وعلى زوجتيه وما يملكان، فعاد إلى الشمال إلى أن أقام فى مكان مكة المكرمة بالحجاز، وهناك وضعت هاجر ابنه إسماعيل الذى تزوج من جُرهم سادة مكة وينتسب إليه العرب المستعربة.

ترك إبراهيم هاجر وإسماعيل فى الحجاز، وغادر إلى كنعان مع سارة، وبعد (14) سنة من ميلاد هاجر لإسماعيل أنجبت سارة إسحق. ومضت سنوات أخرى إلى أن مات إبراهيم تاركاً إسماعيل فى الحجاز وإسحق فى كنعان.

* * *

أنجب إسحق بن إبراهيم ولدين هما: عيسّو ويعقوب الذى عُرف باسم "إسرائيل" أى ملاك الله. وتزوج يعقوب أربعة نساء.. ابنتى خاله ليئة وراحيل، وجاريتيهما زلفة وبلهة، وأنجب منهن (12) إبناً هم: رويين، وشمعون، ولاوى، ويهونا، ويساكروز، ويولون، ويوسف، وبنيامين، وجاد، وأشير، ودان، ونفتالى.

وكان ليوسف وبنيامين حظوة عند أبيهما، ومن نسل "لاوى" الابن الثالث، جاء موسى بن عمران، ومن اسم "يهونا" الابن الرابع جاءت كلمة "اليهود" و"اليهودية".

* * *

دخل العبرانيون من آل يعقوب فى صدام شديد مع الكنعانيين أصحاب الأرض، ومع غيرهم من الأقوام والممالك المجاورة، وفى التوراة "سفر يشوع" (سمع الرب صوت إسرائيل "يعقوب". ودفع إليهم الكنعانيين.. فأبسلوهم "قتلوهم"). وفى موقع آخر تقول التوراة: (فأبسلوا جميع ما فى المدينة من رجل وامرأة وطفل وشيخ.. وحتى البقر).

ومثلما فعل العبرانيون مع الكنعانيين قاموا بتدمير ملك "عُراد" وشعبه ودمروا مدنه فى جنوب فلسطين، كما أبادوا "سيحون" وقومه فى شرق البحر الميت، وكذا فعلوا مع ملك باشان وقومه فى شرق نهر الأردن، ومدين فى جنوب سيناء. وفى سفر التثنية (ودمرنا كل مدينة وأبدنا الرجال والنساء والأطفال ولم نبقِ أحداً).

وبرغم حجم الدمار الذى ألحقه بنو إسرائيل بغيرهم على النحو المخيف الذى تصوره التوراة، فإن المقام لم يطُل بيعقوب فى كنعان، إذ حلّ بها القحط والجفاف وأصبحت الحركة خارج كنعان هى سبيل العيش والبقاء، وهاجر يعقوب وأبناؤه إلى مصر فى منتصف

القرن السابع عشر قبل الميلاد، وفيها استقروا بأرض جاشان "بلبيس حالياً" نحو ثلاثة قرون إلى أن خرج بهم موسى- الذى يمثل الجيل السابع بعد إبراهيم - من مصر.

كان يوسف قد سبق يعقوب وبنيه إلى مصر مع قافلة التقطته من بئر فى طريقها من كنعان ثم باعته، وفى مصر كانت قصة يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم بن تارح.. مع "فوتى فارغ" من ملوك الأسرة السادسة عشرة، وأصبح يوسف مديراً لخزائن الطعام فى مصر وتزوج بنت كاهن أون "تل الحصن بجوار المطرية بالقاهرة".

التقى يوسف إخوته فى مصر حين جاءوها هرباً من مجاعة كنعان وتعرّف عليهم، ثم استقدم يوسف أباه يعقوب وإخوته وكل ما كان لهم فى كنعان.. تقول التوراة "سفر التكوين": (وأسكن يوسف أباه واخوته وأعطاه إقطاعية فى أرض مصر كما أمر فرعون). وكان دخول يعقوب وأسرته إلى مصر فى زمن حكم الهكسوس، كما كان منصب يوسف بن يعقوب مستمداً من قبولهم ورضائهم حسبما يرى المؤرخون.

* * *

والهكسوس هم غزاة أجلاف من الرعاة الآسيويين الذين دفعهم القحط والجوع لغزو مصر.. ونظراً لحالة الضعف والتدهور التى كانت عليها مصر حينئذ، فقد تمكن الهكسوس من إسقاط الأسرة الثالثة عشرة وأقاموا أربع أسر هى: الأسرة الرابعة عشرة، والخامسة عشرة، والسادسة عشرة، والسابعة عشرة وأقاموا عاصمة لهم فى أواريس " صان الحجر- محافظة الشرقية" إلى أن تمكن البطل المصرى "كامس" من هزيمة الهكسوس.. تالياً فى نضاله لجهود أبيه "سُقَنَنْ رع" وسابقاً لجهود أخيه البطل الشهير أحمس.

لقد عاش بنو إسرائيل بمصر ثلاثة قرون كلها فى عهد الهكسوس، كثُر فيها متاعهم وزاد عددهم، حتى أن التوراة تقدر عدد ذكورهم فوق سن العشرين عند خروجهم من مصر فى عهد موسى بنحو (500,603) يهودياً.

ويرى المؤرخون أن هذا رقم مبالغ فيه للغاية، إذ أحصت التوراة نفسها عدد أهل

بيت يعقوب بسبعين شخصاً.. وهذا معدل غير مألوف فى النمو السكانى، ثم إنه من غير المعقول أن تسير قافلة ضخمة بهذا الشكل دون أن تترك أثراً في مصر أو فى سوريا.

يذكر "أحمد شلبى" فى "اليهودية".. أن بنى إسرائيل قد تنكروا لسادتهم المصريين، وتآمروا مع الهكسوس وثاروا ضد الحكم الوطنى، وعاشوا يستنزفون أموال المصريين من غير تقديم إنتاج حقيقى في مجالات العمل الجاد، وبرغم أن أحمس لم يتعرض لبنى إسرائيل بسوء إذ كان مشغولاً بالهكسوس.. العدو الأكبر، فإن خلفاءه فى الأسرة التاسعة عشرة قد انتقموا منهم. وفي هذه الأثناء ظهر موسى بن عمران.. أشهر أنبياء بنى إسرائيل.

* * *

ينتمى موسى إلى الجيل السابع بعد إبراهيم، وكان هذا الجيل محل سخط المصريين الذين أخذوا على العبرانيين تحالفهم مع الهكسوس، وخشى المصريون أن يزداد بأسهم أو يستفحل خطرهم إذا هم تركوهم وشأنهم. وكان رأى بعض المقربين من فرعون أن يقوم المصريون باستعباد العبرانيين حتى "يفكروا مثلنا ويعتقدوا مثلنا"، واستعبد المصريون العبرانيين، ولكن ذلك لم يجعلهم مندمجين فى الشعب، وكان رأى البعض الآخر من المقربين أن يُقتل كل ولد يولد للعبرانيين حتى لا يزداد نسلهم، وعندئذ تضطر بناتهم إلى الزواج من المصريين ويصبحن مصريات، وسنَّ فرعون قانوناً يقضى بإغراق كل مولود ذكر تلده امرأة عبرية.

وذات يوم ولدت "يوكابد" زوجة عمران ولداً أسمياه "موسى"، خبأته ثم وضعته فى سلة وقذفته في النيل. وعندما جاءت زوجة فرعون لتستحم في النيل عثرت عليه فأخذته وأقنعت فرعون ببقائه.

ويرى بعض الباحثين أن نشأة موسى في بيت فرعون كانت بداية معرفته الحكمة والأخلاق، فقد عاش في ظلال الوحدانية التى أعلن أمرها فرعون مصر أخناتون وهو فرعون مصر المسمى أمينوفيس الرابع (1367 - 1350) ق. م، وقد جاء في الإنجيل "سفر أعمال

الرسل" (فتهذب موسى بكل حكمة المصريين، وكان مقتدراً في الأقوال والأفعال).

وذات يوم رأى موسى وكان قوى البدن رجلاً مصرياً يضرب عبداً عبرياً، فضرب موسى الرجل المصرى فمات، ولأن قتل مصرى على يد عبرى لم يكن سهلاً، فقد أرسل فرعون من يبحثون عن موسى للقضاء عليه.

تقول التوراة "سفر الخروج".. (ونظر موسى فإذا برجل مصرى يضرب رجلاً عبرانياً من إخوته، فالتفت يميناً ويساراً فلم يرَ أحداً، فقتل المصرى وطمره فى الرمل.. وسمع فرعون هذا الخبر فطلب أن يُقتل موسى.. فهرب".

وكان هروب موسى إلى مكان فى سيناء يسمّى "أرض مدين" حول خليج العقبة، فأخذه كاهنها "يثرو" وهو النبى شعيب فى القرآن الكريم، وزوّجه ابنته "صفورة". وقضى موسى فى صحراء مدين ثمانى سنوات، ثم ترك زوجته فيها وعاد إلى مصر بعد أن رأى ربه وأيقن نبوته.

ويروى القرآن الكريم قصة المناظرة بين موسى وفرعون، والمعجزات التى أظهرها موسى من خلال عصاه، وهى - طبقاً للمصادر الإسرائيلية - عصا يوسف بن يعقوب، حيث كانت العصا ضمن متاع يوسف الذى انتقل إلى قصر فرعون بعد وفاته فى مصر، وقد أخذها شعيب من قصر فرعون حيث كان كبير كهنته، ثم أخذها موسى من شعيب فى نهاية المطاف.. وهذه رواية لا يقرّها القرآن الكريم.

وقد انتهى الحوار بين موسى وفرعون.. بعزم موسى على "الخروج" من مصر وكان ذلك – حسب بعض المصادر – فى عام 1300 ق. م فى عهد الفرعون رمسيس الثانى.

يرى بعض الباحثين أن رمسيس الذى تروى التوراة أنه كان فرعون مصر لم يكن موجوداً، إذ أن أول فرعون يحمل هذا الاسم تبوأ العرش عام 1315 ق. م، بينما تذكر التوراة أن تاريخ الخروج كان فى عام 1450 ق. م، أى قبل مائة سنة من ذلك، وعلى ذلك يرى هؤلاء الباحثون أن فرعون الخروج كان من الهكسوس.. ولم يكن رمسيس الثانى.

خرج موسى يقود العبرانيين باتجاه كنعان، ولحق فرعون بموسى وبنى إسرائيل، وفيما عبر موسى وقومه غرق فرعون ومن معه حيث انشق البحر ثم التئم.

* * *

قضى بنو إسرائيل مع موسى أربعين عاماً في سيناء ماتوا جميعاً خلالها ولم يدخل منهم إلى كنعان إلا اثنان من أصحاب موسى هما - طبقاً للتوراة - كالب ويشوع. عندما خرج العبرانيون من مصر كانوا يتوقعون نعيماً آخر ومقاماً أفضل، ولكن ذلك لم يحدث، وسرعان ما تمكن منهم الإحباط وسادت مشاعر الندم بينهم، فقد تذكروا مصر وخيراتها والعيش الهانىء الذى كان فيها.

وتصف التوراة "سفر الخروج" ذلك على لسانهم: (ليتنا متنا فى أرض مصر بجانب قدور اللحم نأكل طعاماً للشبع). وفي "سفر العدد" تقول "التوراة ": (فعاد بنو إسرائيل وبكوا أيضاً، وقالوا من يطعمنا لحماً، قد تذكرنا السمك الذى كنا نأكله في مصر مجاناً.. والقثاء والبطيخ.. والآن قد يبست أنفسنا).. (وتخاصم الشعب مع موسى، وتفوهوا قائلين: لما أتيتما بجماعة الرب إلى هذه البرية لنموت فيها نحن ومواشينا).

وتجمل التوراة فى "سفر التثنية" نتاج هذه المشاعر فى هذا النداء اللافت للنظر: (لا تكره مصرياً.. لأنك كنت نزيلاً في أرضه). وبرغم مشاعر الإحباط والندم فقد مضى بنو إسرائيل فى البرية، وبرية سيناء التى مكثوا فيها أربعين عاماً هى طريق مصر فلسطين "حوالى (200) كيلومتر".

في سيناء حدثت معجزات لموسى - عليه السلام - مع قومه، غير أنهم عادوا عن دينه على يد رجل يدعى السامرى صنع لهم عجلاً من ذهب فعبدوه.

مرّت سنوات طوال دون أن يدخلوا أرض كنعان، ومات موسى على سفح جبل ودُفن فى رمل أحمر، بعيداً عن كنعان.

* * *

إن أهم أحداث هذه العقود الطويلة التى قضاها بنو إسرائيل تائهين شاردين.. هو ما

جاء به موسى قومه من الوصايا العشر.. ألا يتخذوا إلهاً آخر، وألا يعبدوا أصناماً، وألا يتخذوا اسم الله لهواً ولعباً، وأن يستريحوا في اليوم السابع من كل أسبوع ويجعلوه مقدساً، وأن يكرموا آباءهم وأمهاتهم، وألا يقتلوا، وألا يزنوا، وألا يسرقوا، وألا يكذبوا، وألا يحسدوا الآخرين.

• • •

دخل الإسرائيليون إلى كنعان بقيادة يشوع، ولكنهم لم يتمكنوا من احتلال العاصمة يبوس "القدس" أو الساحل الفلسطيني، ويذكر "ويلز" في "موجز تاريخ العالم" أن الإسرائيليين بقيادة يشوع لم يفتحوا سوى منطقة التلال الداخلية ولم يزيدوا عليها شيئاً، وظلت القبائل الإسرائيلية أجيالاً عديدة شعباً مغموراً يعيش في منطقة التلال الخلفية مشغولاً بمناوشات لا نهاية لها مع الفلسطينيين والقبائل النازحة حولهم. ومع الوقت تحول بنو إسرائيل من قبائل صحراوية لا تعرف الاستقرار إلى فلاحين مقيمين.

في هذه الأثناء كان النظام الاجتماعي العبراني يقوم على القبيلة، وكانت القبائل العبرانية الإثنتا عشرة متجمّعة حول الهيكل المركزي في "سيلون"، واعتمد نظام الحكم في هذه المرحلة على الكهنة والقضاة.

يسمّى العصر الممتد من وفاة يشوع الذي قاد العبرانيين إلى كنعان وحتى قيام مملكة إسرائيل على يد ملكها الأول شاؤول.. بعهد القضاة. وقد استمر عهد القضاة نحو قرنين وكانت سلطتهم فيها محدودة وطاعتهم غير واجبة.. وهي أشبه بسلطة زعماء القبائل في النظام البدوي السامي القديم.

• • •

من أشهر الشخصيات في عهد القضاة.. "دبورة" التي قادت (6) قبائل وانتصرت بها على الكنعانيين في موقعة مجدو، وجدعون وشمشون اللذان انتصرا في بعض المعارك.

لم تكتمل انتصارات "دبورة" و"جدعون" و"شمشون".. فقد شن الفلسطينيون هجوماً

مضاداً على الإسرائيليين.. وتمكن الفلستينيون من هدم "هيكل سيلون" وأسر "تابوت العهد".. أهم رمز دينى فى اليهودية.. وقامت المدن الأخرى بالهجوم على الإسرائيليين حتى انهارت قواهم، ولم يعد لبنى إسرائيل قيمة تذكر.. أصبح كل شيء سيئاً ومهيناً.. إلى أن كانت مملكة إسرائيل.

• • •

حضر المشهد الختامي لنهاية هذا العصر "النبى صموئيل".. آخر القضاة وأول الأنبياء بعد موسى بن عمران. قضى صموئيل فى بنى إسرائيل سنوات حتى كبر سنه، فاتخذ من ابنيه قاضيان من بعده، ولكن الإسرائيليين رفضوا ترشيح صموئيل لابنيه وطلبوا أن يكون لهم ملكاً شأن الشعوب الأخرى. واختار صموئيل فلاحاً فقيراً ينتمى لأصغر قبيلة وأقربها إلى وسط البلاد هو "شاؤول" والذى جاء ذكره فى القرآن الكريم باسم طالوت.

أتاح "شاؤول" نشأة المملكة ونهاية عصر القضاة. كان شاؤول -أول ملوك إسرائيل ومؤسس الملكيّة الإسرائيلية عام 1020 ق. م- مقاتلاً قويًا، وتذكر التوراة أنه حارب قوماً عماليق من نسل "عيسو بن اسحق بن إبراهيم" شقيق يعقوب.. أى من العبرانيين أنفسهم وانتصر عليهم.

ويقول "سفر التكوين" أنه أبادهم إبادة تامة من الكبير للصغير والمرأة والرجل والماشية.. ولكنه لم يقتل ملكهم ولا الغنم السليم.. وقادهم للنبى صموئيل الذى استشاط غضباً.. لأن شاؤول كان رحيماً ولم يقتل.. الملك والغنم. على أن شاؤول سرعان ما اصطدم بالكهنة، وكان هذا الصدام سبباً فى سقوطه إلى أن قتله الفلستينيون فى المعارك.

ذهبت الملكيّة إلى داوود.. الذى كان فى مقدمة رجاله الأقوياء. انتصر داوود فى صراع السلطة مع ابن شاؤول وقائد الجيش واستقر له الملك وأصبح الملك الثاني لإسرائيل.

استولى داوود على أورشاليم واتخذها عاصمة له عام 1000 ق. م. وكانت أمور مصر فى هذه الأثناء مرتبكة فضعفت هيمنتها على الشام وفلسطين، كما كانت أمور الدولة

الآشورية مرتبكة هي الأخرى، وتحالف داوود مع "حيْرام" عاهل مملكة صور الفينيقية.. وتمكن بفضل هذه الظروف من أن يحكم إسرائيل أربعين سنة بالقوة والشدة.. على أنها طبقاً لكثير من الباحثين.. كانت فترة الرخاء الوحيدة للشعب العبرى على مر التاريخ.

ثم جاء النبي سليمان بن داوود الذى تقول التوراة أنه خاض صراعاً هو الآخر على السلطة انتهى بسيطرته الكاملة على مقاليد المملكة. بنى سليمان الهيكل، وقويت المملكة في عهده، وتزوج من ابنة شيشنق فرعون مصر وصار صهرًا للمصريين.

• • •

كان سليمان بن داوود آخر ملوك إسرائيل، وبعد وفاته عام 935 ق. م، أعلن رحبعام بن سليمان بن داوود نفسه ملكاً على إسرائيل، كما أعلن أخوه يربعام نفس الشيء. وأقام "رحبعام" - الذى تزوج مصرية من آل فرعون - مملكة يهونا في الجنوب وعاصمتها أورشاليم، فيما أقام "يربعام" مملكة إسرائيل في الشمال وعاصمتها السامرة، وحدود هاتين الدولتين معاً تقع داخل الضفة الغربية حالياً. وكانت يهونا مستقرة نسبياً فيما كانت عوامل عدم الاستقرار لا تنتهى في إسرائيل.

تعاقب على الدولتين عدد من الملوك وصلوا إلى (19) ملكاً لكل منهم.

وقد استمرت الأمور على هذا النحو إلى أن قضى الملك الآشورى سرجون الثانى على مملكة إسرائيل عام 721 ق. م، وزال شعبها من التاريخ زوالاً تاماً. وقد اعتقل سرجون الثاني "هوشع بن إيله" آخر ملوك مملكة إسرائيل.

وفي عام 608 ق. م. زحف "نخو" فرعون مصر فى الأسرة السادسة والعشرين واحتل يهونا ثم طرد الآشوريين من إسرائيل واحتلها هي الأخرى. لكن "نبوخذ نصر" ملك بابل عاد فزحف إلى هناك وهزم فرعون واستعاد مملكة إسرائيل.. ونهب أورشاليم ودمّر هيكل سليمان وسبَى أكثر السكان إلى بابل بعد أن قتل - صدقيا بن يواقيم - آخر ملوك يهونا.. كان ذلك عام 586 ق. م بداية عصر السبى البابلى، واختفاء اليهود من فلسطين.

لكن متعة البابليين بانتصارهم لم تدم طويلاً، فبعد خمسين سنة من ذلك الانتصار وقعوا في قبضة الفرس، ففي عام 538 ق.م. احتل قورش ملك الفرس بلاد بابل.

* * *

أطلق الفرس على شعب يهوذا اسم اليهود، وعلى عقيدتهم اسم اليهودية، ومن هنا.. أصبح اليهودى هو من اعتنق اليهودية ولو لم يكن من بني إسرائيل. وكان الفرس على علاقة طيبة باليهود، فسمح لهم قورش ملك الفرس بالعودة إلى فلسطين وإعادة بناء مملكتهم، وقد بقي معظمهم في العراق وعاد بعضهم إلى فلسطين وأمكنهم إعادة بناء أورشاليم والهيكل بدعم من الفرس، لكنهم لم يقيموا دولة وإنما استمروا جماعة خاضعة للحكم الفارسي.

أما يهود العراق الذين لم يعودوا إلى فلسطين فقد كانوا الأغلبية، وقد وصل عددهم في عهد السيد المسيح نحو مليون يهودى.. لكنهم تعرضوا للإبادة في عهد المغول وبقي الآلاف فقط، ويهود العراق هم نواة الشتات شرقاً.. إلى فارس وأفغانستان وبخارى وسمرقند والقوقاز.. ثم الهند والصين.

والأغلب - طبقاً لجمال حمدان - أن يهود الجزيرة العربية ينتمون إليهم، فاسم "يثرب" يهودى، وملك سبأ ذو النوّاس (القرن السادس الميلادى) كان يهودياً، والهاجرون من حضرموت الذين أسسوا الإمبراطورية الحبشية كانوا يهوداً ثم تحولوا إلى القبطية، ومن المحتمل أن يكون يهود المغرب من شتات الأسر البابلي. وإن كانت اليهودية قد انتشرت بالاعتناق بين بعض القبائل البربرية قبل الإسلام.

لقد مضي يهود فلسطين ينعمون برعاية الفرس إلى أن انهارت قوى الفرس أمام أعدائهم، وخضع اليهود لحكم الإغريق ثم الرومان (كان حكم الإسكندر الأكبر عام 320 ق. م ثم حكم البطالسة، وبدأ الحكم الروماني عام 63 ق. م حيث اكتسح القائد الروماني بامبيوس فلسطين واحتل القدس).

وفي عام 70 ميلادية.. دمر الإمبراطور الروماني "تيطس" أورشاليم وأحرق الهيكل.. وهو التدمير الثاني بعد تدمير "نبوخذ نصر" عام 586 ق. م.

وفي عام 135م .. تخلص "أدريانوس" من جميع اليهود فلم يبق يهودي واحداً، وأزال تماماً معالم أورشاليم والهيكل.. وحرث الأرض ثم قام بزرعها. وهرب من استطاع من اليهود إلى أوروبا وشمال أفريقيا.. وهكذا بدأ الشتات الهيلليني ثم الروماني فالوسيط.

• • •

جاءت مرحلة الشتات الهلليني - وفقاً لجمال حمدان - بعد المرحلة الفارسية، وتبدأ هذه المرحلة بفتوح الإسكندر الأكبر وتستمر مع السلوقيين والبطالسة ثم البيزنطيين.. واتجه اليهود في هذا الشتات إلى الغرب حيث انتشروا في كل العالم الهلليني والبيزنطي، في سوريا وآسيا الصغرى، والإسكندرية والبلقان وسواحل البحر الأسود، وقد ذهب بعض يهود البلقان إلى جنوب روسيا.

وما يلفت الأنظار في هذا الشتات هو قدرة بعض اليهود على تأسيس دولة يهودية تسمى "الخزر"، وقد نشأت دولة الخزر على يد التتار في القرن السابع الميلادي حول بحر قزوين غير أنها تحولت إلى اليهودية في عهد "شارلمان" في القرن الثامن وظلت هذه الدولة قائمة إلى أن تمكنت "دولة كييف" السلافية التي تمثل مقدمة الدولة الروسية الحديثة من القضاء عليها. وعلى أثر ذلك انتشر اليهود في أجزاء كثيرة من جنوب روسيا، وفي عام 1110م منعت روسيا نهائياً دخول أي يهود جدد بها وحددت للموجودين منهم مناطق معينة لا يقيمون خارجها فيما صارت تعرف تاريخياً باسم "حظيرة اليهود" Jewish Pale.

ثم كان الشتات الروماني والوسيط .. وهو الشتات الثالث - بعد البابلي والهيلليني - في تاريخ اليهود القديم، فقد تواترت ثورات اليهود الذين كانوا يمثلون أقلية في فلسطين على الحكم الروماني الذي رد بتخريب أورشاليم والهيكل وبإبادة اليهود في مذبحة عام 70م.

وقد صفّت هذه المذبحة أغلب اليهود، وفرّ الباقون إلى مصر وسوريا، غير أن بقايا

اليهود عادوا إلى الثورة عام 135م حيث قوبلوا بمذبحة نهائية قضت على مصير اليهود في فلسطين، فقد أعمل الرومان في اليهود القتل والإبادة، وحرّموا عليهم دخول القدس نهائياً وطردوهم من فلسطين إلى كل أجزاء الامبراطورية، وكان هذا هو التاريخ الذى انتهت فيه علاقة اليهود بفلسطين سكانياً وسياسياً.. إنه الخروج الأخير.

وينقل جمال حمدان عن المؤرخ "جوزيفوس" تقديرات مذبحة عام 70م بأنه قد قُتل فيها من اليهود مليون وثلث المليون يهودي، وتم أسر مليوناً آخر أو تم بيعه كرقيق.

مات مئات الألوف من المجاعة.. أى تم التعامل مع نحو ثلاثة ملايين يهودى قتلاً وأسراً وبيعاً وتجويعاً. ويقدّر آخرون أن من قُتل في هذه الأحداث يزيد قليلاً عن نصف المليون.

كذلك قُتل معظم اليهود في قبرص وطُرد الباقون.. ولم يزد عدد يهود الخروج الأخير عن الأربعين ألفاً.. وما تبقى بعد ذلك من يهود بفلسطين تحول إلى المسيحية ولم يثبت على اليهودية.. إلا "السامريون" الذين تحولوا إلى قوقعة صغيرة في نابلس القديمة.

وفي بداية القرن التاسع عشر لم يكن عدد اليهود يزيد عن العشرة آلاف نسمة فقط في كل فلسطين.

• • •

انتشر يهود الشتات الروماني وراء الرومان.. في إيطاليا وأسبانيا وفرنسا وألمانيا. وجاءت العصور الوسطى بحروبها الصليبية ضد المسلمين واليهود، وفي 1394م اختفى اليهود تماماً في فرنسا بعد أن طُردوا وتفرقوا. وفيما ظل يهود إيطاليا على حالتهم من التقوقع والانغلاق فقد تعرض يهود ألمانيا وأسبانيا لخطر الإبادة والطرد.

ومن نسل هؤلاء الألمان والأسبان.. كان الثنائي: الأشكيناز والسفارديم. ويقصد بالأشكيناز.. يهود ألمانيا الذين يُعتقد بأنهم أرستقراط ينحدرون من قبيلة يهودا، أما

السفارديم من يهود أسبانيا فيُعتقد أنهم وضعاء ينتمون إلى قبيلة بنيامين. بدأ اليهود الأشكيناز يتسربون إلى بولندا والعالم السلافي، وانتشر السفارديم الذين وصل عددهم في أسبانيا العربية إلى مليون يهودي.. في هولندا وإنجلترا وإيطاليا وفرنسا وشمال أفريقيا.. وكذلك في البلقان وتركيا والشرق الأوسط.

• • •

كانت الهجرة إلى العالم الجديد في أمريكا الشمالية قد تعاقبت منذ القرن السادس عشر، وفي أوائل القرن العشرين دخل الولايات المتحدة الأمريكية من اليهود نحو مليون ونصف المليون يهودي من بينهم أكثر من مليون يهودي روسي.. ثم زاد العدد.. إلى أن صار في الولايات المتحدة أضخم تجمع لليهود على وجه الأرض.

كذلك انطلقت الهجرة إلى أمريكا اللاتينية، وانطلق عدد أقل إلى استراليا وجنوب أفريقيا.

هاجر من يهود روسيا عدد إلى الشرق الأقصى السوفيتي وأقيمت لهم جمهورية يهودية خاصة في حوض نهر الأمور هي "جمهورية بيروبيدجان". ثم كانت الفترة النازية في ألمانيا ووقائع الحرب العالمية الثانية.. وجاء عدد من يهود أوروبا إلى فلسطين واتجه الجزء الأكبر إلى أمريكا. وكان المسرح مهيئًا للدعوة لإقامة إسرائيل.

• • •

طيلة الفترة الممتدة من حكم "صموئيل" أول نبيّ يأتي بعد موسى بن عمران وحتى نهاية فترة السبْي البابلي بعد انتصار الفرس على بابل.. تعاقب على بني إسرائيل عدد كبير من الأنبياء الذين تراوحت مهمتهم من بعث الأمل في النفوس وتأكيد النصر النهائي وما بين الإحباط والغضب الشديدين من بني إسرائيل الذين لم تعد تصلح فيهم نبوّة ولا كتاب.

وكان أبرز هؤلاء الأنبياء.. "إلياهو" و"اليشاع" اللذان ظهرا في القرن التاسع قبل

الميلاد، و"عاموس" و"هوشع" و"ميكا" الذين ظهروا في منتصف القرن الثامن قبل الميلاد، ثم "عاموس" يليه "أشعيا" الذي ظهر في مملكة يهوذا وقت سقوط إسرائيل، ثم "أرميا" الذي ظهر في مملكة إسرائيل حين سقطت أورشاليم وقضى نبوخذ نصر على المملكة، ثم ظهر "حزقيال" و"أشعيا الثاني" بين اليهود أثناء الأسر البابلي.

كان "إلياهو" و"اليشاع" في طليعة الأنبياء الكبار، وإليهما يرجع الفضل في القضاء على صور العبادة الوثنية. والنبي "إلياهو" هو رسول الله "إلياس" في القرآن الكريم، وقد جاء اسمه في القرآن في ثلاث صيغ: إلياس، الياسين، إل ياسين.. وفي سورة الصافات: "وإن إلياس لمن المرسلين".

والنبي "اليشاع" هو تلميذ إلياس وخليفته، وهو نبي الله "اليسع" الذي جاء ذكره في القرآن الكريم.. وفي سورة ص: "واذكر إسماعيل واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار".

وكانت دعوة النبيين "إلياس" و"اليسع" تقوم على العمل أكثر مما تقوم على القول. وقد لحق بهم الأنبياء عاموس وهوشع وميكا.. وقد سماهم علماء التوراة بالأنبياء المنشدين الجوالين.. لأنهم كانوا ينذرون الناس وينصحونهم بمواعظ جاءت في الأسفار التي تحمل أسماءهم.

وجاء عاموس.. وكان نبياً متألماً مما جرى لبني إسرائيل ثم مما جرى من بني إسرائيل، فصبَّ عليهم اللعنات وأخذ يتحدث على لسان الرب يحذر وينذر ويقول.. "ويل للمستريحين في صهيون.. كرهتكم.. كرهت أعيادكم". وكان عاموس ملهماً يتحدث عن المستقبل في صفاء ووجل.. ومن أهم نبوءاته: "كما ينتزع الراعي من فم الأسد.. ينتزع بنو إسرائيل الجالسون في السامرة من زاوية السرير وعلى الفراش.. فتهوى بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة".. ثم كان أن تحققت نبوءته وهو لا يزال حياً.. حيث غزا الآشوريون بيوت بني إسرائيل وأخذوهم أسرى.

ثم كان مجيء "أشعيا" أحد أهم أنبياء بني إسرائيل.. وقد ظهر في مملكة يهوذا وقت

سقوط مملكة إسرائيل، وعندما حوصرت أورشاليم عاصمة يهوذا نصح حزقيال الملك بعدم التسليم، وكان أن انسحب ملك آشور.. فاعتُبرت من معجزات أشعيا.

وحسب التوراة كان أشعيا يدعو إلى العدل ويناصر الفقراء.. ومن أهم نبوءاته.. تنبؤه بالمسيح.. يقول: "ها العذراء تحبل وتلد ابناً تدعوه عمانوئيل.. يقضى بالعدل لبائسى الأرض". وانتهى أشعيا متشائماً ومتوقعاً الخراب، وهو ما حدث فى زمن النبى أرميا من بعده.

لقد ظهر أرميا.. أشد أنبياء بنى إسرائيل حنقاً عليهم حين سقطت أورشاليم، وعاد ملك بابل نبوخذ نصر بآلاف العبيد بعد أن أحرق أورشاليم وهدم الهيكل.. وفى تشاؤم عميق واستسلام كئيب فيما يعد أقوى التعبيرات الحزينة فى الفكر العبرى يقول أرميا "لا تخرجوا إلى الحقل، ولا تذهبوا فى الطريق.. لأن للعدو سيفاً، والخوف محيط من كل جانب".. ويقول: "يا ابنة شعبى تمرغى فى التراب، وأقيمى لك مأتماً كمأتم الولد الوحيد.. مناحة مُرّة.. لأن المخرّب سيأتينا فجأة".

وقد جلبت هذه الانتقادات العنيفة حنق الكهنة عليه.. فجاءوا به وأنزلوه بئراً مليئاً بالوحل، ثم سجنوه فى حديقة قصر إلى أن وجده البابليون فى أورشاليم.. وفي القرآن الكريم كان بنو إسرائيل يقتلون الأنبياء.

غير أن حدة النقد قد خفت فى حضور الأنبياء الذين تعاقبوا من بعد أرميا.. فكان حزقيال.. النبى الذى ظهر بين اليهود فى الأسر البابلى أقل نقداً وألماً، وزاد فتوقع بناء معبد جديد وعودة أورشاليم، كما كان أشعيا الثانى يبث الأمل.. ويبشر بقدوم المسيح المنقذ الذى يتحمل آثام الجميع، ويعد أشعيا الثانى هو خاتم الأنبياء الكبار فى بنى إسرائيل.

نصوص متحركة..

نقد التوراة

على غير العادة فى الأديان السماوية والأرضية على السواء.. تأسس فى القرن التاسع عشر فى أوروبا علم جديد هو "علم نقد التوراة"، ويعكف هذا العلم على تناول التوراة بالبحث والتحليل، وإعمال النقد الشامل للغة والنص والمضمون.. ولم يبق هذا العلم على استقلاله فترة طويلة، إذ سرعان ما أضحى جزءاً من علم أوسع هو "علم الاستشراق".. وذلك لارتباط التوراة بتاريخ المشرق القديم.. أو لأن التوراة جاءت من الشرق.

والتوراة هى الكتاب المقدس الذى أنزله الله على موسى فى سيناء، وقد توصلت جهود علماء فقه التوراة إلى أن النص الأصلى للتوراة لا وجود له، وأن التوراة الحالية اعتمدت على مصادر إنسانية استفادت من نص قديم للتوراة.

وطبقاً للعالم الألمانى "يوليوس فلهاوزن".. فإن تثبيت نص التوراة على ما هو عليه الآن يعود إلى شخص مهم يدعى "عزرا" فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد، ومن بعد "عزرا" ظهرت تشريعات إضافية، ثم قام محرر كهنوتى بتوحيد الكتاب المقدس حوالى عام 400 ق. م، ومنذ عام 330 ق. م.. أصبح نص التوراة نصاً قانونياً نهائياً، ولم يتم السماح لأحد بعد هذا التاريخ بإضافة أية مواد للتوراة. وقد احتل "عزرا" بما فعل مكانة هامة فى التاريخ اليهودى، ويطلق عليه بعض علماء اليهودية لقب "أبو اليهودية".

وعزرا هو كاهن يهودى أحضر معه من بابل نسخة من "كتاب ناموس موسى".. وقرأه على الناس فى أورشاليم، ثم كان دوره فى تثبيت نص التوراة واعتباره القانون الرسمى للدين اليهودى.

• • •

وهكذا.. فإن الفترة الممتدة من زمن موسى (عصر التوراة الأصلية) إلى زمن عزرا (عصر التوراة الحالية) وهى نحو أربعة قرون لا يوجد عنها شىء، وكل التصورات المتعلقة بكل هذه القرون وبما قبلها إلى بداية الخلق هى من صياغة هؤلاء المحدثون.

ويعود الحصول على النسخة الآرامية القديمة إلى ما يسمّى "لفائف البحر الميت".. والتى تحوى أقساماً من "سفر اللاوين وأيوب"، وقد تم ترجمة هذه النسخة بالإسكندرية إلى اللغة اليونانية فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد حتى يستفيد منها اليهود القيمون فى مصر. وتسمى الترجمة اليونانية للنسخة الآرامية من التوراة باسم "السبعونية"، كما تمت ترجمتها فى شمال أفريقيا فى القرن الرابع الميلادى من اللغة العبرية إلى اللاتينية باسم "الفولجات" وهى النسخة المعتمدة من الكاثوليكية الآن، كما تمت الترجمة إلى لغات أخرى.. السريانية والقبطية والحبشية.

ويذكر "زياد منى" أن أقدم نسخة مترجمة ومتكاملة هى نسخة لينينجراد عام 1008م، ومنها نسخة شتوتجارت الألمانية الحديثة، وقد ترجمت التوراة من اللاتينية إلى العربية فى نهاية القرن التاسع عشر فى إطار "الكتاب المقدس". وهناك نسخة ترجمها من اللاتينية "مارتن لوثر" مؤسس الاتجاه البروتستانتى فى المسيحية عام 1534م وصدرت طبعة حديثة منها عام 1987م.

• • •

يعتقد عدد من السامريين فى نابلس فى "التوراة السامرية".. وهى نسخة خطية من التوراة يقولون أنها نسخت بعد دخول يشوع إلى أرض كنعان أى بعد وفاة موسى بسنوات قليلة، لكن العلماء يقولون إن الخط الذى كتبت به هذه النسخة يرجع إلى القرن الثالث عشر الميلادى.

وطبقاً للمفسر "جون الكسندر" فى كتابه "قاموس الكتاب المقدس".. فإن النص السامرى المذكور يختلف عن النص العبرى الحالى بما يقرب من ستة آلاف موضع، ويتفق نص التوراة السامرية مع الترجمة السبعينية فى ألف وتسعمائة موضع.

وتضم الترجمة الموحدة الصادرة عن الكنيسة الكاثوليكية عام 1974م بعض الأسفار غير المعترف بها فى اليهودية ولا فى البروتستانتية.. وتزيد النسخة الكاثوليكية سبعة

أسفار عن النسخة البروتستانتية.

• • •

تتكون التوراة من (39) سفراً.. على ثلاثة أقسام: يضم القسم الأول منها أسفار موسى الخمسة وهي: التكوين، الخروج، العدد، اللاويين، التثنية.

ويضم القسم الثانى أسفار الأنبياء.. وقد تم تقسيم هذه الأسفار فى القرن الثامن الميلادى إلى جزأين.. يحوى الجزء الأول أسفار الأنبياء الأولين: يشوع، القضاة، صموئيل الأول، صموئيل الثاني، الملوك الأول، الملوك الثاني. ويحوى الجزء الثاني أسفار الأنبياء المتأخرين: أشعيا، أرميا، حزقيال.. وهوشع، يوئيل، عاموس، عوبديا، يونان، ميخا، ناحوم، حبقوق، صفنيا، حجى، زكريا، ملاخي.

ويضم القسم الثالث من التوراة أسفار الكتب: المزامير، أيوب، الأمثال، راعوث، أنشودة الأناشيد، مراثى، الجامعة، أستير، دانيال، عزرا، نحميا، الأيام الأول، الأيام الثاني.

يتحدث "سفر التكوين".. أول أسفار التوارة عن أصل العالم وتاريخ الإنسان حتى نشأة إبراهيم وأسرته، ثم يحكي عن هجرات العبريين إلى فلسطين ثم إلى مصر. ويتناول "سفر الخروج".. قصة خروج اليهود من مصر بعد ملاحقة فرعون لهم ثم إعلان الشريعة من جبل سيناء.

يحتوى "سفر اللاويين والعدد" على المزيد من أحكام الشريعة، ويواصلان حكاية التجوال فى الصحراء حتى الوصول إلى الضفة الشرقية لنهر الأردن. ويورد "سفر التثنية" أحكاماً أخرى للشريعة.. باعتبارها آخر ما فرضه موسى قبل موته وأرض الميعاد على مرأى عينيه. وهذه الأسفاز الخمسة.. أسفار موسى هى القاعدة الأساسية للعهد القديم ولكل الديانة اليهودية.

وتحكي الأسفار الأخرى عن موضوعات متنوعة فى التاريخ والدين والدنيا.. فيحكى

"سفر يشوع" عن فتح يشوع لكنعان، ويؤرخ "سفر القضاة" لما يسمّى بعصر القضاة الذين كانوا حكاماً محليين على اليهود. ويتحدث "سفر صموئيل" و"سفر الملوك" عن فترة الملكة الموحدة.

وبعد سقوط المملكتين.. يهوذا وإسرائيل.. يحكي "سفرا عزرا ونحميا" عن الظروف التي جرت بها القراءة الأولى للشريعة الموسوية. ويتناول سفرا "المكابيين" النقطة الأخيرة للاستقلال اليهودي.. وهذان السفران لا يوجدان في التوراة العبرية.

وأما أسفار الأنبياء.. ففيها معلومات أخرى عن التاريخ العبري.. وبقية أسفار العهد القديم تميل لفن الأدب والأناشيد وتحتوي على قدر واضح من الحكمة.. إذ أن "سفر مراثي أرميا"، "سفر نشيد الأناشيد"، "سفر الأمثال"، "سفر الحكمة".. كلها أشعار وأناشيد وحكم.. ويعد "سفر المزامير" من أعظم الأسفار الشعرية في التوراة.

غير أن ما يلفت النظر في هذه الأسفار.. هو "سفر راعوث".. الذي يصف بوضوح ما يجب على المرأة غير اليهودية أن تفعل إذا ما تزوجت من يهودي.. وفي هذا السفر مقطع خارج يتحدث عن الأساليب والحيل الجنسية التي راودت بها "راعوث".. "بوعز" عن نفسها.. وفي تقرير البعض فإن سفر راعوث بما يتضمن من إثارة وخروج لا يمت للدين بصلة.

• • •

تعرضت التوراة لنقدٍ قاسٍ من قبل عديد من الباحثين، وقد تراوح هذا النقد من إبداء ملاحظات مهمة حول مصداقية وقائع جاءت في التوراة أو القيمة الحقيقية لبعض الأسفار، إلى النفي الكامل لقدسية التوراة وصدق الديانة اليهودية.

وتأتي خطورة الرؤية الأخيرة من أنها لا تصطدم مع العقيدة اليهودية وحدها.. إذ أن النفي المطلق لليهودية إنما يصطدم تماماً بالمسيحية والإسلام على السواء.

فذِكر بني إسرائيل وأنبيائهم تحتلّ مساحات كبيرة داخل سور القرآن الكريم،

وبالقطع فإن الاحترام والإجلال الذى يحظى به موسى بن عمران نبى اليهودية الأكبر وكذا يوشع وداوود وسليمان ويعقوب ويوسف – عليهم السلام – فى القرآن الكريم لا يمكن مقارنته بما يلاقيه هؤلاء الأنبياء من ازدراء وإهمال داخل نصوص التوراة.

• • •

إن الصورة التى انتهت إليها جهود "عزرا" وخلفائه فى شأن "التوراة النهائية" كانت مشوهة ومعيبة إلى حد جعلها هدفاً سهلاً للنقد والنقض.

ويطول النقد.. فيما يطول - صميم العقيدة اليهودية.. التوحيد والآخرة، كما يطول مجمل التاريخ الدينى لليهود.

أول ما يتبدّى فى هذا المقام هو ما يقوله البروفيسور "إليس ريفكن" فى كتابه "صياغة التاريخ اليهودى".. الذى صدر فى نيويورك عام 1972م.. يقول: إن اليهود لم يكونوا موحِّدين منذ نشأتهم، وأن أول كلمة كتبت من قبل مؤسس المذهب الفريسى فى اليهودية كانت "فى البدء خلق الله السماوات والأرض" وهى فى النص العبرى "فى البدء خلقت الآلهة السماوات والأرض".. بجمع الإله لا بتوحيده.

ويرى بعض أهل العلم أن "يهوه" إله اليهود.. قد جاء بتطور بطىء، إذ أنه كان واحداً من آلهة ثم صار واحداً لا شريك له، وقد يكون نتيجة لهذا التطور، تلك الحرب الشعواء التى يشنها "يهوه" من خلال التوراة على غيره من الآلهة والتى بقيت آثارها عالقة فى أذهان اليهود.

ويقرر "جيمس فريزر" فى كتابه "الفولكور فى العهد القديم" أن الدين اليهودى تكتنفه مظاهر الشرك وعبادة الأوثان، فقد قدّس بعض أنبيائهم بعض الأشجار خاصة شجرة البلوط، وكان يعقوب قد رأى فى منامه حجراً انتصب فوقه سلم أخذت الملائكة تصعد وتهبط عليه، فلما استيقظ نصب الحجر وصب الزيت واعتبره مقدساً.

ومن بين قصص عديدة تنطق بالشرك وعدم الإجلال الكامل لله.. تبرز فى "سفر

التكوين" قصة صراع يعقوب والرب.. حيث صارع يعقوب الرب حتى طلوع الفجر وهزمه، فقال له الرب: لقد طلع الفجر فأطلقني. فقال له: لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له ما اسمك؟ فقال يعقوب.. فقال الرب: لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل لأنك جاهدت مع الله وانتصرت!

وطبقاً لويل ديورانت فإن اليهود لم يتخلوا قط عن العادات الوثنية، وقد بقيت عبادة العجل تتجدد في حياة بني إسرائيل من حين لآخر.. وقد صنع يربعام بن سليمان بن داود عجلين من الذهب ليعبدهما أتباعه حتى لا يذهبوا إلى الهيكل. وقد عبد "أهاب" ملك إسرائيل الأبقار بعد سليمان بقرن واحد.

وبعد موسى وفي عهد القضاة.. تأثر بنو إسرائيل بمعبودات الكنعانيين.. ويقول "شارلز فوستر كينت" في "تاريخ العبريين" أن إله الكنعانيين "بعل" أصبح معبوداً لبني إسرائيل في كثير من قراهم.

• • •

ويعود هذا الارتباك العقيدي في اليهودية إلى طول القرون التي فصلت بين توراة موسى وكتابة عزرا للتوراة الرسمية، وهي الفترة التي شهدت فترة السبي البابلي التي حملت الكثير من مشاعر النفي وآثار المنفى. ففي المنفى قدمت نبوءة حزقيال للمرة الأولى فكرة أن السبي إلى بابل ليس سوى أسلوب "يهوه" إله بني إسرائيل لتطهير شعب إسرائيل الخطيء ليكون أهلاً لقيادة الإنسانية على الشريعة اليهودية.

كانت نبوءة حزقيال قد وضعت ما بين عامي 592 و 570 ق. م.. وتمثل هذه النبوءة مشكلة في دراسة التوراة حيث أنها تتجاهل تماماً أسفار موسى الخمسة التي كتبت فيما بعد، كما أنها تتجاهل اسم النبي موسى الاسم الأكبر في الديانة اليهودية.

ويعدّ حزقيال هو الأساس في نشأة المذهب الفريسي العنصري في اليهودية. والفريسي كلمة آرامية تعني المنشق، والفريسيون هم المنشقون اليهود الذين أعادوا كتابة

التاريخ على رغبتهم العنصرية التى ترى فى اليهود مركز العالم.

وهكذا كانت فترة السبى البابلى بقدر ما حملت من مهانة وعذاب بقدر ما جاء رد الفعل خلالها مغالياً فى تقدير الذات، ومتوهماً بغير أساس رسالة كبرى ومبادىء عظمى تحملها الأمة اليهودية بتكليف مَن الرب إلى كل شعوب الدنيا، ولا يكون ذلك بغير السيطرة والحكم.

وينظر الكثيرون باشمئزاز بالغ إلى الإنتاج الدينى اليهودى فى فترة بابل، ويرونها أساس البؤس اليهودى على مرّ التاريخ اللاحق. ويحمِل كبار رسل المسيحية قدراً عظيماً من الحنق والكراهية لبابل ولقاطنيها الفريسيين اليهود.. يقول يوحنا (رؤيا يوحنا): "بابل العظيمة أم زوانى الأرض ورجاستها".. "سقطت سقطت بابل العظيمة.. وصارت سكناً للشياطين ولكل روح نجس".

أما بولس الرسول الذى كان حاخاماً فريسياً وتبرع للذهاب إلى أورشاليم عن طريق دمشق ليسوق تلاميذ يسوع المسيح موثَّقين إلى هناك.. وأصبح مسيحياً بعد رؤيا رآها فى طريقه إلى دمشق فيقول عنهم "بل أعميت بصائرهم.. لأن ذلك البرقع نفسه باقٍ إلى يومنا هذا غير مكشوف عند قراءة التوراة.. حتى إنه إلى اليوم إذا قرىء موسى فالبرقع موضوع على قلوبهم".

• • •

وهكذا - كما يجزم "فلهاوزن" - فلم يكن التشريع الموسوى نقطة البداية فى تاريخ اليهودية، إذ أن نقطة البداية فعلاً تعود إلى عصر السبى البابلى ثم جاء التشريع الموسوى متأخراً عنه.

وهنا تكمن قضية ارتباك النص فى التوراة.. حيث لم تكن الفترة البابلية بداية فلسفة سياسية جديدة تنشىء الإستعلاء من قلب الهزيمة. وإنما كانت كذلك عصر ابتكار للنص والنبوءة.. أو بالأحرى فترة خصبة لإعادة إنتاج الدين.

وقد جاءت عملية الإنتاج قلقة وضعيفة.. حتى أن المفاهيم العقيدية الأساسية في اليهودية قد واجهت انتقادات ناسفة على نحو ما سبق الإيضاح.. وطبقاً لبعض المصادر فلم يكن "يهوه" قبل حزقيال سوى إله آخر من آلهة القبلية السامية مثل (بعل، مردوخ) في بابل، (ملكارت) في صور، (أشو) في آشور، وقد جاء حزقيال في العصر البابلي فأضفى عليه من صفات الألوهية ما لم يكن فيه.

• • •

يرى بعض المؤرخين أن "اخناتون" هو أول من قال بالوحدانية الخالصة.

ويذهب "سيد القمني" في كتابه "النبي موسى.. وآخر أيام تل العمارنة"، 1999، إلى أن موسى هو اخناتون.

وهو رأي يتوافق مع بعض التحليلات الغربية وإنْ ظلَّ يحمل درجة عالية من الجرأة تجعل مصداقيته موضع الكثير من علامات الاستفهام.

ويذكر "أحمد شلبي" أن المعاني التي ذكرها اخناتون في قصيدته عن الشمس قد تكررت في أسفار العهد القديم. ويزيد الباحث "أدولف إرمان" في بحث قدمه إلى المجمع العلمي الروسي عام 1924م وعنوانه "مصدر مصري لأمثال سليمان".. بأن حكم سفر الأمثال قد جاءت أساساً على لسان حكيم مصري تم اكتشاف نصائحه التي كتب على ورق البردي في ثلاثين باباً بليغاً.

وإضافة إلى الأثر البابلي والمصري يبرز تشريع حمورابي (1900 ق. م) كمصدر أساسي لأسفار العهد القديم، وتشريع حمورابي هو أقدم تشريع سامي، وبينه وبين التشريعات اليهودية شبه كبير، ومعظم القوانين اليهودية مأخوذة من تشريع حمورابي.

ويُرجع "عباس العقاد" ذلك الارتباك في نصوص التوراة إلى كون التوراة قد دونت بعد السبي البابلي أي بعد سقوط مملكة يهوذا حوالي عام 580 ق. م.. فطال العهد بينها وبين دعوة إبراهيم. فيما طالت هي عصور اختلاط العبادات الإلهية والوثنية. ويزيد من

ارتباك نصوص الدين اليهودى تلك التوراة الشفهية المعروفة بالتلمود. والتلمود هو الروايات الشفهية التى تناقلها الحاخامات من جيل إلى جيل من بعد ظهور المسيح بمائة وخمسين عاماً، وقد بدأ جمعها الحبر "شمعون جمانيل" عام 166م وأتمها يهوذا عام 216م.

• • •

يتألف التلمود من قسمين هما: المشناة والجمارا. والمشناة.. كتاب جمعه "جمانيل" ومعناها الشريعة المكررة.. ولما صارت المشناة صعبة الفهم والإدراك واستعصت على التعليم، قام الحاخامات بشرحها على الحواشي.. أى كان متن الكتاب هو "المشناة" وعلى حواشيه شروح وتفاسير، وقد سميت هذه الشروح التى فى الحواشى "جمارا".

ويضم المشناة.. جانباً من أفكار وآراء حاخامات فلسطين وبابل، ويسمّى الجزء الذى يتضمن آراء حاخامات فلسطين بتلمود أورشاليم، ويسمّى الآخر تلمود بابل.

ويقول الحاخامات.. إن الله قد أعطى الشريعة لموسى على طور سيناء، وأرسل على يده التلمود شفاهة.. ويضع اليهود التلمود فى منزلة التوراة. وقد ظهرت ترجمات عديدة للتلمود فى لغات مختلفة ولكنها جميعاً غير مكتملة، وقد ظهرت ترجمة البروفيسور "ايزيدور ابشتاين" بالإنجليزية بين عامي (1935 و 1952) في (35) مجلداً، ويقال أن نص التلمود الأصلى الكامل مطبوع فى البندقية بين عامي (1520 و1523) ولا توجد منه الآن سوى ثلاث نسخ.

وقد حاولت إسرائيل إعادة طبع النسخة العبرية الأصلية من التلمود وأحالت ذلك إلى الحاخام "آدين شتاينز التز" ليخرجه في (35) جزءاً.

• • •

فى التلمود زاد النص اليهودى ارتباكاً.. وتغيرت أصول العقيدة اليهودية الأولى.. فالله – عزّ وجلّ– غير معصوم من الخطأ. ومما جاء فى التلمود: (الله لا شُغل له بالليل غير تعلم التلمود مع الملائكة).. (الله يبكى وينوح كل يوم على خطأه فى حق اليهود ومن دموعه

تحدث الزلازل).. (كذب بغرض الإصلاح بين إبراهيم وزوجه سارة).. (إن يسوع الناصرى - المسيح - موجود فى لجات الجحيم بين القار والنار، وقد أتت به أمه من العسكرى بائدا عن طريق الخطيئة).. (الكنائس النصرانية قاذورات والواعظون فيها كلاب نابحة).. (الإسرائيلى أفضل من الملائكة.. ومن ليس يهودياً فهو كافر).. وما يذكره التلمود باسم الرب (تباً لى لأنى صرحت بخراب بيتى وإحراق الهيكل ونهب أولادى).

وهكذا وصل النص اليهودى إلى أقصى درجات الخلط والفوضى.. ما دفع عدداً من اليهود الى البحث عن هدف وطريق لا يؤمن بما جاء فى التلمود حتى يعفوا أنفسهم من ويلات الدفاع عن هذه النصوص المتهالكة. واجتمع بعض هؤلاء فى مذهب الصدقيون أو الصادوقيين الذى تأسس عام 168 ق. م.. وهم ينتسبون إلى صادوق الكاهن الأعظم فى عهد سليمان.

وهم ينكرون البعث والآخرة، والجنة والنار، فينكرون الخلود والملائكة والشياطين ويؤمنون بحرية الاختيار لا القضاء والقدر وينكرون المسيح المنتظر، ويرون أن الحساب يكون فى الدنيا، وينكرون التلمود ويعتقدون فى أن التوراة غير مقدسة تقديساً مطلقاً.. وأن الزيادة فى الإعتقاد بدعة.

• • •

فى مواجهة الصادوقيين نشأ مذهب مضاد من اليهود الأرثوذكس (المحافظين) باسم "الفريسيين".. ومعناها المنشقين والمنعزلين.. ويسمون أنفسهم بالأحبار والربانيين.

ويعتقد الفريسيون بأن الأسفار الخمسة قد خُلقت منذ الأزل ثم أوحى بها إلى موسى.. ويعتقدون فى البعث وقيامة الأموات والملائكة واليوم الآخر.. يؤمنون بالتلمود ويكون الحاخامات معصومين وأقوالهم كالشريعة.. يقولون بالقضاء والقدر.. ومعظم الفريسيين ناسكون وزاهدون ومحافظون.. وقد عارضوا الأنبياء الذين ظهروا فى الأسر البابلى وبعده وتمسكوا بشريعة الأنبياء الأولين.. وعندما جاء المسيح عارضوه وقاوموا

دعوته وقالوا ببطلانها.

على أن مذهباً ثالثاً قد نشأ بزعامة "عنان بن داود" داعماً لمذهب الصادوقيين ومخالفاً لمذهب الفريسيين في شأن الإيمان بالتلمود.. ففي القرن الثامن الميلادى قامت في بغداد فرقة سميت "القرائية".. نسبة إلى قراءة التوراة وليس سماعها فقط كما هو في التوراة الشفهية.

ويرفض القراءون التمسك بالتلمود الذى يعتبرونه دخيلاً على الدين.. على أن هذه الفرقة قد حُوربت في وقتها حتى أبيدت.. ولكن بعضهم قد عاد فيما بعد.. ويمثلهم حالياً "المجلس اليهودى الأمريكي American Council for Judaism ". ويتهم اليهود الأرثوذكس هذا المجلس بمعاداة السامية.

وإلى جانب الصادوقيين والفريسيين والقرائين ظهرت فرقة "الكتبة".. وهي مجموعة كانت مهمتها كتابة الشريعة.. فهم أشبه بالنساخ.. ثم عرفوا بعض المعلومات من الكتب التي نسخوها.. فاتخذوا الوعظ وكتابة الشريعة وسيلتين للعمل.. وكانوا يسمون بالحكماء.. ولأنهم غير موهوبين ولا مؤهلين إنما هم نساخ امتهنوا حرفة الدعوة.. فقد زادوا الأمور التباساً وتعقيداً.

• • •

النتيجة الخاتمة لهذا الحصاد.. هي أننا إزاء نصوص دينية قلقة ومرتبكة.. الأمر الذى جعلها جديرة بنشأة علم خاص بها هو "علم نقد التوراة" على نحو ما ذكرنا. فالتوراة التي كانت في زمن موسى تم تدوينها في زمن عزرا.. والنص التكميلي للتوراة أى التلمود جاء بعد ذلك بفترة طويلة.. وبحساب السنين فقد كان نزول التوراة سابقاً لتدوينها بأربعة قرون وكان تدوين التوراة سابقاً لوضع التوراة الشفهية (التلمود) بستة قرون.. وهكذا يفصل زمن نزول التوراة المكتوبة عن كتابة التوراة الشفوية نحو ألف عام.. وهو تاريخ شاسع وبعيد لا مثيل له في كافة أديان العالم.

• • •

وطيلة مسيرة الألف عام تحركت النصوص، وتأرجح مفهوم الألوهية من تعدد الآلهة إلى الله الواحد.. ولكن الله الواحد لم يعد كاملاً ومنزهاً ومجيداً في التوراة الشفهية التي نسبت إليه الندم والخطأ والكذب.. والبكاء والنواح والوساطة بين الأزواج.

ومع تأرجح مفهوم الألوهية اختلت مفاهيم الدنيا والآخرة.. والجنة والنار والحساب.. ولا يوجد في التوراة نص واحد يتحدث عن جهنم في الآخرة للكافرين والعاصين.

وهكذا.. ثلاثة نصوص في عشرة قرون.. تسعة وثلاثون سفراً.. وخمسة وثلاثون جزءاً.. تجاوزت فيها النصوص اليهودية تعاليم العقيدة والمعاملات إلي وصف التاريخ والمغامرات.. فاختلطت الأسطورة بالنبوءة وغطت الدراما على رسالات الأنبياء وحقائق الأشياء.

أجناس متحركة..

مشكلة الساميّة

لم يعد بالإمكان إدارة مناظرة أو الدخول فى جدل هام حول الأصول التاريخية للشرق الأوسط المعاصر دون الخوض في مسألة "السامية"، وقد جرت العادة أن تكون مناسبة هذا الخوض نقد ما يوجهه العرب إلى إسرائيل ورد مقابل ودائم بأن وراء النقد معاداة للسامية.

ومن وقائع الجدل.. ظهرت مفردات: الجنس السامي، الحضارة السامية، التاريخ السامي، التفوق السامي. وعلى استحياء وبطريقة فاترة كان بعض المثقفين العرب يردون على اتهامات معاداة السامية بأنهم ساميون أيضاً.. وأن العرب واليهود ينحدرون من جنس واحد فكيف يعادى العرب أنفسهم؟

• • •

السامية لغة قديمة كانت تتحدث بها شعوب وقبائل عديدة فى ثلاث مناطق رئيسية هى: الجزيرة العربية والعراق والشام.. ومن ثم فإن السامية هى لغة وليست جنساً أو عنصراً.

ويجزم الأمريكى "مارتن برنال" فى كتابه "أثينا السوداء" الذى صدر فى نيوجرسى عام 1987م بأن مصطلح "السامية" مجرد مصطلح لغوى أكثر منه قومى أو سلالى، إذ أنه يطلق على الشعوب التى كانت تتكلم اللغات السامية، وهذه اللغات تتسم بسمات مشتركة فى الأصوات والمفردات والنحو والصرف، وتشترك معها فى بعض هذه الصفات اللغة العربية الفصحى.

ويسبق "سبتينو موسكاتى" فى كتابه المتميز "الحضارات السامية القديمة"، الذى ظهرت فى روما أولى طبعاته عام 1949م، بالقول بأنه ليس هناك قطعاً شيء اسمه الجنس السامي، وأن نظرية "الجنس السامي" باعتباره جنساً متميزاً يشمل الشعوب التى تتكلم السامية.. هى نظرية دعائية خاطئة ولا تنتمى إلى العلم الجاد.

• • •

استعمل الأوروبيون قرب نهاية القرن الثامن عشر لفظ الساميين اسماً مشتركاً لتلك المجموعة من الشعوب نظراً لقرابتها الشديدة في لغاتها لا لوحدتها العرقية.

وقد سُمى الساميون بهذا الاسم نسبة إلى سام بن نوح الذى ورد ذكره فى الإصحاح العاشر من "سفر التكوين" فى التوراة، وهو إصحاح يسجل الصلات بين الشعوب المختلفة فى صورة سلاسل أنساب تنحدر من نسل نوح. وكان سام قد أنجب من الأبناء آرام وآشور وعبر.. ومنهم: الآراميون والآشوريون والعبريون.

وتعود نشأة الساميين إلى الصحراء بالأساس.. وأساس وجودهم فى الأغلب هو صحراء شبه الجزيرة العربية.. ويرى آخرون أنها سوريا أو العراق أو أفريقيا.

• • •

نشأت اللغة السامية الأم فى الجزيرة العربية ثم انتقلت مع الهجرات إلى المناطق الخصبة المحيطة بها كالعراق والشام، وأصبح المهاجرون يحملون أسماء المدن أو المناطق التى استقرّوا فيها أو التى اتخذوها عاصمة لهم كالأكاديين والبابليين فى العراق والكنعانيين فى الشام.

وقد إنحدرت من اللغة السامية الأم لغات متعددة آخرها العربية الفصحى.. التى أخذت تتضح ملامحها فى النقوش النبطية فى الحجاز قبل الإسلام بثلاثة قرون ونصف.

ويذكر "أحمد عثمان" فى مقدمته العربية لكتاب "برنال".. أن اللغة السامية الأم قد انحدرت منها ثلاثة فروع.. الفرع الأول يمثل السامية الشمالية الشرقية ويشمل اللغات الأكادية والبابلية الآشورية.. والثانى يمثل السامية الجنوبية ويشمل العربية فى الحجاز والعربية فى اليمن ومن عربية الحجاز جاءت العربية الفصحى.. والفرع الثالث يمثل السامية الشمالية الغربية ويشمل الكنعانية والآرامية.. ومن الكنعانية جاءت اللغتان العبرية والفينيقية، ومن الآرامية جاءت اللغتان السريانية والنبطية.. وعلى ذلك فقد جاءت العبرية من اللغة الكنعانية.

• • •

ومن اللافت للنظر هنا أن التوراة لم تذكر العبرية كلغة لبني إسرائيل، وبرغم أن أقدم كتابة للتوراة كانت باللغة العبرية وذلك قبل الميلاد بعشرة قرون فإن التوراة في "سفر شعيب" تسمي لغة بني إسرائيل باسم "لغة كنعان".. وهي بالعبرية "سفت كنعني". وفي سفر "أخبار الأيام الثاني" الذي أخذ شكله الحالي في القرن الرابع قبل الميلاد.. تصف التوراة لغة بني إسرائيل بأنها "يهوديت" أي يهودية.. نسبة إلى قبائل يهوذا. وهناك مقاطع من العهد القديم في أسفار "دانيال وعزرا وأرميا والتكوين".. مدونة بالآرامية.

ويحدّد "زياد مني" في "جغرافية التوراة" تاريخ اختفاء اللغة العبرية التام في القرن الثالث قبل الميلاد حيث حلّت محلها اللغة اليونانية إلى جانب الآرامية، وبعد الفتح الإسلامي للشام تثبتت اللغة العربية الفصحى، على أن العبرية قد تم احياؤها بعد ستة عشر قرناً وذلك في القرن الثالث عشر الميلادي.. العصر الذهبي للإسلام، وما أن وصل الإحياء إلى ذروته حتى اندثرت العبرية واختفت تماماً من الوجود إلى أن عادت من جديد مع الحقبة الصهيونية.

• • •

وصلت العبرية إلى أقصى درجات قوتها في النصف الثاني من القرن العشرين بعد قيام إسرائيل. وبرغم محاولات التطوير في اللغة العبرية المعاصرة فلازال من الصعب التعرف على معاني المفردات العبرية دون الاستعانة بلغات سامية.. ومنها العربية.. ولا توجد أية قواميس عبرية خالصة، بل كلها معاجم مقارنة تستعين بالثروة اللغوية للغات القريبة.

• • •

على الرغم من بؤس اللغة العبرية وفقرها التاريخي، وعلى الرغم من أن العبرية قد تطورت من داخل اللغة الكنعانية وظلت مبتسرة وهزيلة منذ ميلادها إلى الآن.. فقد فاجأ "مارتن برنال" الدوائر اللغوية بما ذهب إليه في "أثينا السوداء" من أن الفينيقية هي العبرية.

يستند برنال في زعمه الخاطىء إلى قول "فريدريش" عام 1951م عن العلاقة بين

الفينيقية والعبرية بأنها "شبيهة بالعلاقة بين الهولندية والجرمانية العليا"، وكذلك قول "مناحم شتهرن" عام 1974م: "لا يوجد فارق من الناحية العملية بين اللغتين العبرية والفينيقية"، ثم إلى رأى "جسينيوس" فى تصنيفه للغة الفينيقية على أنها مطابقة للغة العبرية أكثر منها مطابقة للغة البربر.

وكانت النتيجة الطبيعية لهذه المقدمات الخاطئة هو ذلك الاستدلال المضلل الذى انتهى إليه برنال من أن الفينيقيين هم يهود العالم القديم، وأن معاداة السامية فى الأوساط العلمية والثقافية قد امتدت إلى معاداة الفينيقية.. وهكذا طبقاً لبرنال فالعبرية هى الفينيقية واليهود هم الفينيقيون والحضارة الفينيقية هى حضارة اليهود.

• • •

لقد أكمل برنال نظريته الغريبة فى فصول كبرى ببحثه الضخم.. واصلاً إلى القول بأن الحضارة الإنسانية المعاصرة تعود إلى الحضارة اليونانية، وأن الحضارة اليونانية هى بالأساس حضارة مصرية فأثينا وإسبرطة مدن مصرية.

ومؤسس أثينا "كيكرولبس" من أصل مصرى هو سنوسرت، وكلمة أثينا من أصل مصرى هو Athanait، ومدينة طيبة اليونانية (مدينة أوديب) كانت هى الأخرى مستعمرة مصرية فى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد، والكثير من الأعلام الإغريقية من مدن وقرى وجبال ووديان وأنهار هى أسماء مصرية قديمة.

ثم يقول برنال.. إن الحضارة اليونانية إذن هى حضارة مصرية، ولكن الحضارة المصرية بدورها ليست حضارة أصيلة وإنما جاءت من التأثير الكبير للتراث الكنعانى العبرى عليها.. وهكذا فإن التأثير العبرى على الحضارتين المصرية والهيلينية، قاعدتا الحضارة والتاريخ الإنسانى، كان حاسماً وبالغ الأثر.

وقد شهدت السينما الأمريكية الحديثة تجاوباً متواتراً مع هذا القول الساذج.. بمركزية التأثير العبرى فى التاريخ البشرى.. وإلى جانب السينما حفلت فنون الإعلام

والثقافة المختلفة ترديداً واسعاً لهذه المقولات الهائمة.

* * *

الصافى أن السامية ليست عنصراً أو جنساً من الأجناس ولكنها لغة كبرى من بين اللغات، ثم انفرطت اللغة السامية الأم إلى لغات أخرى من بينها الكنعانية التى أفرزت اللغة العبرية التى لا تزال غير مكتملة البنيان حتى الآن.. وعلى ذلك فالعبرية تقع فى موقع الحفيد الضعيف للغة السامية، ولا أساس علمي للقول بأن اليهود يمثلون جنساً سامياً.

وهكذا فإن اليهود القدامى لا ينتمون لعرق سامي على نحو ما يذهب البعض على أن الجنس السامي اليهودى هو حقيقة لا جدال فيها. وإذا كان هذا هو حال اليهود القدامى الذين لا صلة لهم بالسامية غير لغة مأخوذة عن لغة مأخوذة عن اللغة السامية الأم، فإن اليهود المعاصرين يصل بهم البعد إلى أقصاه.. حتى ليؤكد كثير من الباحثين أنهم لا صلة لهم باليهود الأوائل أنفسهم.

وفى كتابهم المهم "نحن الأوروبيون" يذهب المؤلفون "هكسلى وهادون وكارسوندرز" إلى أن اليهود المعاصرين لا يمكن أن يصنفوا كأمة ولا حتى كوحدة عرقية.. بل هم مجموعة دينية اجتماعية تحمل قدراً كبيراً من عنصر البحر المتوسط والأرمن وغيرهما، وتتفاوت تفاوتاً عظيماً فى الصفات الجسمية.

وإن اليهود المحدثين إن لم يكونوا أرمينيين فى الأغلب الأعم فإنهم بالتأكيد يبدون من الصفات "الأرمينية" أكثر مما يبدون من الصفات "السامية"، وأن النمط الجنسى الذى يميز طائفة السامريين نادر بينهم.. فقد ذاب اليهود فى العالم.

وطوال التاريخ اليهودى هناك حقيقتين أساسيتين: أعداد ضخمة من غير اليهود تدخل اليهودية، أعداد ضخمة من اليهود تخرج من اليهودية.. والخلاصة أن جسم الطائفة ليس ثابتاً عرقيّاً بل هو متحرك.. وفى آخر المطاف فإن اليهود الحاليين يختلفون انثروبولوجياً عن يهود التوراة إن لم يكن لا علاقة بينهم من الأساس.

ونفس المعنى نجده عند "توماس كيرنان" فى كتابه "العرب" الذى صدر فى بوسطون عام 1957م.. يقول: "اليهود الصهاينة أوروبيون تماماً، وليست هناك أية رابطة بيولوجية أو انثروبولوجية بين يهود أوروبا والقبائل العبرية القديمة".

* * *

يقرر "جمال حمدان" فى كتابه "اليهود انثروبولوجياً" أن اليهود ليسوا من الساميين فى شىء، وأن اضطهاد اليهود لم يكن.. "ضد السامية" وإنما "ضد اليهودية"، والاضطهاد النازى لليهود كان اضطهاد ألمان لألمان.

ويشرح حمدان نظريته فيقول: يُجمع علماء الانثروبولوجيا على أن يهود عصر التوراة فى فلسطين هم مجموعة سامية من سلالة البحر المتوسط بصفاتهم التى نعرف اليوم من سمرة فى الشعر وتوسط فى القامة وطول فى الرأس.

وقد اختلط يهود بنى إسرائيل فى فلسطين مع الجماعات الأخرى السابقة لها واللاحقة بها من كنعانيين وعموريين وفلسطينيين وتمثلوا كثيراً من دمائهم، ولكن هذه الجماعات نفسها لم تكن تخرج عن نفس السلالة الجنسية المتوسطية، ومن ثم لم يغير الاختلاط معها النمط الأساسى لليهود.. والقليل من الجماجم التى عثر عليها فى فلسطين وخارجها مما يعود إلى عصر النبى سليمان وبعده تشير إلى سلالة البحر المتوسط

وهكذا.. فلا يوجد فى العالم اليوم مجتمع يهودى واحد أفلت من الاختلاط البيولوجى مع غيره من المجتمعات، ولهذا السبب ليس صحيحاً أن اليهود الشرقيين أو غير الشرقيين يمثلون تمثيلاً صادقاً يهود فلسطين أيام المسيح.

وعلى مستوى العالم فإن أشكال اليهود تحوى من التناقضات ما يجعلها تغطى كل الأجناس.. فهناك اليهود السود فى الحبشة، واليهود الشقر فى أوروبا، والملونون فى الهند، بل واليهود الصفر فى تركستان.

وفى أوروبا القرن التاسع عشر كان هناك كل الأنواع والألوان بين اليهود.. البيض

والسمر والسود.. هناك غليظ الملامح من الأشكيناز ودقيق الملامح من السفارديم. ويبدى اليهود بينهم تفاوتاً كبيراً في فئات الدم.. وأكثر من ذلك لا تبدى تلك الفئات أى علاقة بفئات الدم عند اليهود السامريين مما يؤكد انفصالهم جنسياً عن الأصل القديم.

واليهود السامريون هم المجموعة الوحيدة التى ظلت فى فلسطين طوال التاريخ حتى يومنا هذا في عزلة كاملة وتزاوج داخلى ضيق وفى نقاوة لاشك فيها.. وهم عدد محدود للغاية ويوجدون فى قرى نابلس. ومن ذلك يصل جمال حمدان إلى أنه إذا كان العرب ويهود التوراة هم أبناء عمومة من إخوة غير أشقاء، فإنه لا قرابة للعرب باليهود المعاصرين.

• • •

يصل "ماكسيم رودنسون" فى كتابه "الشعب اليهودى أو المشكلة اليهودية" إلى نتيجة مباغتة.. فمن المرجح جداً - طبقاً لرودنسون - أن يكون عرب فلسطين وهم فى أغلبيتهم مستعربون قوم تجرى فى عروقهم دماء من قدماء العبريين أكثر مما تجرى فى عروق يهود الشتات الذين يكفى إلقاء نظرة عليهم فى أى اجتماع يهودى مختلف الجنسيات لنرى إلى أى حد تختلف أجناس اليهود.

وقول رودنسون يعيد إلى الأذهان ما اقترحه "الفريد ليلينتال" فى كتابه "الوجه الآخر من العملة" الذى ينقل عنه حمدان اقتراحه.. بعودة الصهاينة الإسرائيليين الذين هم من أصل أوروبى إلى أوروبا، ويبقى الإسرائيليون من أصل شرقى فى فلسطين.. وذلك مع عودة عرب فلسطين إليها ليعيشوا معاً فى دولة واحدة جديدة، تكون نواة لوحدة سامية كبرى بين شعوب المنطقة.

وفكرة الدولة السامية قال بها الملك عبدالله فى الأربعينات ثم دعا إليها يورى أفنيرى، ثم عزمى بشارة وآخرون بأسماء مختلفة.. على أن هذه قصة أخرى.

• • •

غاية القول هنا.. أنه برغم قول الكثيرين بأن السامية تمثل جنساً وأن العبرانيين

بذلك قوم ساميون، فإننا نميل إلى القول بأن السامية ليست جنساً وإنما هي لغة تفرعت منها لغات سامية، ثم بدا بفعل الزمان والأحداث أن السامية جنس واللغات السامية أجناس من جنس. والأصوب أنها قوميات تقوم على وحدة اللغة وتشابهات أخرى أكثر مما تقوم على وحدة الدم والأصل.

وفي كل الأحوال وأيّاً كانت إجابتنا على سؤال.. هل السامية جنس أم لا؟.. فإن الثابت على وجه اليقين.. أن اليهود المعاصرين ليسوا ورثة شرعيين ليهود عصر التوراة، فقد تغير الجسد اليهودي وتبدلت خلاياه بشكل كامل، ولم يعد بالإمكان القول بأن سكان إسرائيل من اليهود هم عبرانيون من زمن موسى أو سليمان بن داود..

وبنفس القدر يمكن القول - مع رودنسون - بأنه إذا بقيت صلة دم بين قوم معاصرين وبين يهود عصر التوراة فربما كان ذلك من نصيب جماعات من الفلسطينيين العرب المعاصرين الذين هم مستعربون.. أي غير عرب تحولوا إلى العربية.. مما ينفي أي حق تاريخي لليهود المعاصرين في فلسطين ويعطي الحق الكامل للعرب الفلسطينيين.. ليس فقط لأنهم ورثة الكنعانيين فحسب ولكن لأنهم أقرب إلى وراثة العبرانيين أنفسهم.

وهكذا كانت حياة اليهود فيما قبل إسرائيل.. حياة مرتبكة.. كان الارتباك يحيط بكل شيء.. التاريخ والتوراة والذات.. وبدت عصور بني إسرائيل وكأنها حركة في وضع الثبات.. أقدام تعلو وتهبط ولا خطوة للأمام.. ولم يكن ممكناً السير إلى أبعد بغير تنظيم الحركة وضبط الخطى.. كثيرون حاولوا ولكنهم فشلوا.. وكان أبرز الفاشلين موسى ابن ميمون.

موسى ابن ميمون..

ضبط الحركة

لم يكن "موسى ابن ميمون" هو أول فيلسوف يهودى ولكنه أكبر فيلسوف يهودى على مر العصور، ويلقبه البعض بموسى الثاني.. بعد موسى – عليه السلام – نظراً لعلمه وفقهه.

وعلى الرغم من وجود عدد كبير من الفلاسفة اليهود، فإن الكثيرين لا يسلمون بوجود فلسفة يهودية، ذلك لأن أعمالهم تمثل اجتهاداً داخل فلسفات أكبر وأعظم، ولكنهم لايشكلون بناءاً فلسفياً واحداً ولا نسيجاً فكرياً متميزاً.. بل هي إضافات أو شذرات متعددة المسارات.

ويجزم "يوسف زيدان" بأن الفلاسفة اليهود ثلاثة: فيلون وابن ميمون وابن كمونة، وهم ثلاثتهم لا يشكلون فلسفة يهودية، فقد كان "فيلون" فيلسوفاً يونانياً، وكان ابن ميمون وابن كمونة فلاسفة مسلمين، بمثل ما أن اسبينوزا وكارل ماركس وبرجسون فلاسفة غربيين..

ويرى "عبد الوهاب المسيرى" أن موسى ابن ميمون أعظم فيلسوف يهودى لم يكن إلا تلميذاً لابن طفيل وابن رشد، وأن كتابه الأشهر "دلالة الحائرين" هو كتاب بالعربية وإن كان بالقلم العبرى، وقد حاول ابنه من بعده إضفاء الطابع الإسلامي على اليهودية.

ويذهب "حسن حنفى" إلى أن اليهودية لم تعرف علم كلام أو فلسفة أو فقهاً إلا بفضل نماذج هذه العلوم فى الحضارة الإسلامية، فسعيد بن يوسف الفيومي مثل الفارابى، وبهيا بن باقود مثل مسكويه، ويهود هاليفى مثل الغزالي، وموسى ابن ميمون مثل ابن رشد.

وقد جاء ابن ميمون بعد فراغ شاسع يصل إلى "فيلون" قبل اثنا عشر قرناً، ثم لحقه فراغ طويل دام قروناً أخرى.

ويعد "فيلون" أول فليسوف يهودى معروف، وقد ولد عام 40 قبل الميلاد وتوفى عام 40 ميلادية، وعاش بالإسكندرية.

قامت أعمال "فيلون" على تأويل نصوص التوراة لتوافق العقل، اعتماداً على فلسفة

أفلاطون المعدلة أو ما تسمى بالأفلاطونية الجديدة.

ويذكر "ول ديورانت" في "قصة الحضارة" أنه أحسَّ بالحاجة إلى التوفيق بين العقائد اليهودية والفلسفة اليونانية، وتذكر الكتب في مآثره أنه شكى إلى الإمبراطور الروماني "كاليجولا" سوء معاملة الحاكم الروماني في مصر لليهود. [١]

وقد ظل عطاء المفكرين اليهود محدوداً إلى أن جاء موسى ابن ميمون في القرن الثاني عشر.

• • •

ولد أبو عمران موسى ابن ميمون في قرطبة بالأندلس عام 1130م، وتوفى في القاهرة عام 1204م، ولأنه ولد وتعلم في الأندلس يقال في تعريفه أحياناً "موسى القرطبي"، وحين تعرض أستاذه ابن رشد لمحنة نفسية وحرقت كتبه، سارع ابن ميمون بالهجرة من قرطبة إلى القاهرة.

ويذكر "عبد الرحمن بدوي" أنه أقام في القاهرة (37) عاماً، كان في بعضها طبيباً في البلاط الأيوبي، وله في الطب كتب معروفة مثل كتاب "الفصول"، وقد عُرف بفصول موسى، وترجم إلى اللاتينية وطبع بها وله كتاب مطبوع بعنوان "شرح أسماء العقار"، وله كذلك "المقالة في تدبير صحة الأغذية" و"مقال في بيان الأعراض"، و"رسالة في البواسير" و" ومقالة في الربو".

وقد حظى ابن ميمون بإهتمام كبير من الباحثين والدارسين، ومن بين الأدبيات الكبرى التي كتبت عنه كتاب "موسى ابن ميمون.. حياته ومصنفاته" لولفنسون، وقد صدر بالعربية عام 1936م، وكتاب "موسى ابن ميمون" لأولفرليمان، و"تفسير ابن ميمون" لمارفين فوكس، و"وجهات نظر في ابن ميمون " من تحرير جويل كريمر.

وفي رأى "برنار لازار" في كتابه الشهير"اللاسامية.. تاريخها وأسبابها" الذي صدر عام 1886م رداً على كتاب "فرنسا اليهودية" لدرومون عام 1849م فإن موسى ابن

ميمون هو أعظم فلاسفة اليهود على مر العصور، ولكن اليهود قاوموه أشد مقاومة، وهاجموا كتابه " دلالة الحائرين " وتم منعه من التداول كما أحرقوه في كل مكان.

• • •

وضع موسى ابن ميمون وهو في الأندلس ما يعرف بقانون الهالاشاه.. وهو قانون يحظر على اليهودي دخول الجبل المقدس في فلسطين إلى أن يأتي المسيح.

ويرى ابن ميمون أن الهيكل الثالث لن تبنيه أيد بشرية وأنه سينزل كاملاً من السماء وهو ما يخالف تماماً ماجاءت به الصهيونية فيما بعد.

وعلى أي حال.. فلم تكن قضية الهيكل والعودة هي أساس عمل الفلاسفة اليهود في التاريخ بل كان المشروع الرئيسي لابن ميمون ولغيره هو حلّ معضلة الدين، والتوفيق بين النص والعقل، وقد قطع ابن ميمون شوطاً طويلاً في إعادة التفكير في العقيدة والشريعة وأمكنه بسهولة شديدة أن يهاجم الدين الإسلامي ويصف اليهودية بأنها دين أعلى من الإسلام، دون ان يجد اضطهاداً من المجتمع أو السلطة الإسلامية، التي ردّد أفكاره هذه في كنفها.

وقد توزعت اجتهادات موسى ابن ميمون بين علم العقيدة وعلم التفسير وعلوم الشريعة.

• • •

في شأن العقيدة يؤمن ابن ميمون بحدوث الكون، فالزمان والحركة حادثان على خلاف مايرى أرسطو.. حيث يقول أرسطو بأن الزمان لا يمكن أن يكون قد حدث بعد إن لم يكن، لأن هذا الحدوث نفسه لابد أن يقع في زمان ما، ولذا فإن الزمان مستديم، والحركة مستمرة.. لأن الحركة أيضاً تفترض أن تكون هناك حركة سبقتها.

وعلى خلاف أرسطو.. يرى ابن ميمون أن الزمان تابع للحركة، والحركة مخلوق.. فالزمان والحركة مخلوقين محدثين وليسا قديمين سرمديين، فالسرمدية ليست صفة الزمان والحركة بل صفة الله تعالى وحده.

وكل من يقول أين الله قبل خلق الزمان؟ ثم يجيب بأن الله كان قبل أن يخلق العالم، فقوله غير منضبط، لأن كلمة "كان" تدل على زمان، والزمان مخلوق والسؤال على ذلك مرفوض.. فلا حركة ولازمان قبل خلق الكون..

ويعتقد ابن ميمون من يعتقد بأن لله وجوداً مادياً يشبه وجود مخلوقاته، كما يعتقد كثير من اليهود. مشياً وراء ظاهر التوراة، حيث آمنوا بأن لله جسداً ويداً وعيناً وغيرها من الجوارح، وأن الله صنع العالم كما يصنع الصانع البشرى مصنوعاته، فالله لا يجوز فيه التجسيم بحال . ولكن الناس في معرفتهم بالله درجات.

يقول ابن ميمون: " الناس ليسوا متساوين في قدرتهم على الرؤية.. الذى لم يعقل الله كمن هو في ظلام ولا رأى ضوءاً قط، والذى أدركه وهو مقبل عليه كمن هو في ضوء الشمس الصافي، والذى قد أدرك وهو مشتغل فمثاله في حال اشتغاله كمن هو في يوم غيم لا تشرق فيه الشمس من أجل السحاب الفاصل بينها وبينه".

ويقول في درجات العارفين: "تارة يلوح لنا الحق حتى نظنه نهاراً، ثم تخفيه المواد والعوائق حتى نعود في ليل مبهم قريب مما كنّا أولاً، فنكون كمن يبرق عليه البرق مرة واحدة، وهو في ليلة شديدة الظلام، فمنا من يبرق له المرة بعد المرة كأنه في ضوء دائم لايبرح فيصير الليل عنده كالنهار، وهذه درجة الأنبياء.

ومنهم من برق له مرة واحدة في ليلة كلها وهي درجة من قيل فيهم "تنبأ إلا أنهم لم يستمرو "، ومنهم من يكون بين البرق والبرق فترات.. يلوح ويختفى كأنه "برق سيف متقلب".. وبحسب هذه الأحوال تختلف درجات العارفين ".

• • •

واتساقاً مع مراتب المعرفة ودرجات العارفين يرى ابن ميمون ضرورة التدرج في العلم الإلهي.. وله في ذلك نص بليغ.. يقول ابن ميمون: " أعلم أن الإبتداء بالعلم الإلهى "مضر" جداً ، بل ينبغى أن يعطى المقصرون على قدر إدراكهم أما متى ابتدأ بهذا العلم

الإلهي، فليس يحدث تشويش فقط في الاعتقادات، بل تعطيل محض، وما مثال ذلك عندى إلا مثل من يغذى الصبى الرضيع بخبز الحنطة واللحم وشرب الخمر، فإنه يقتله بلا شك، ليس لأن هذه أغذية سوء وغير طبيعية للإنسان، بل لضعف المتناول لها عن هضمها حتى يحصل الاستنفاع بها.. كذلك هذه الآراء الصحيحة ما أخفيت من أجل كونها في باطنها سوء.. بل أخفيت لقصور العقول في الإبتداء عن قبولها".

• • •

ويتبدّى هنا المشروع الفلسفي لموسى ابن ميمون، في اجتهاده المركزى للتوفيق بين العقل والنقل.. العقل الذى لايناقض النقل في المعرفة الحقة. ويذكر ابن ميمون في حديثه عن "يوسف بن عقنين" وهو تلميذ ابن ميمون الذى كتب من أجله كتاب "دلالة الحائرين"..

" لقد جذبه العقل الإنساني وقاده ليحل محله، وعاقته ظواهر الشريعة فبقى في حيرة ودهشة.. إما ينقاد مع عقله ويطرح ماعلمه من تلك الأسماء، أو يبقى مع فهمه منها ولاينجذب مع عقله.. فلايزال في ألم قلب وحيرة شديدة ".

وقد مضى ابن ميمون في أعماله فيلسوفاً ومفسراً وفقيهاً على هدف واحد: توفيق التوراة مع العقل والمنطق. وهو إلى جانب ذلك بذل جهداً كبيراً في ضبط الشريعة اليهودية وفي أحكام قواعد التوراة الشفهية.

• • •

وابن ميمون هو صاحب الكتاب الديني الشهير "شرح المشناة" والمشناة هي نصف التلمود ونصفه الثاني يسمّى "جمارا". و"الجمارا" بدورها جزئين: جمارا أورشاليم، وجمارا بابل. ومن ثم فهناك تلمودين: تلمود أورشاليم ويتكون من المشناة وجمارا أورشاليم. وتلمود بابل ويتكون من المشناة وجمارا بابل، وكلاهما يطبع على حده. ويصل تلمود أورشاليم المكتوب بالعبرية إلى ثلاثة أرباع مليون كلمة.

وكلمة "مشناة" كلمة عبرية معناها بالعربية "المعرفة" والجمارا كتاب شارح ومفسر

للمشناة، ولذا فإن المشناة هى النص والجمارا هى الشرح، ويقول رجال الدين اليهود.. أن المشناة قد تناقلها عن موسى - عليه السلام - أربعون شخصاً.. جيلاً بعد جيل حتى جاء "يهوذا هاناس" فجمعها عام 200 ميلادية.

ومن بعد "يهوذا هاناس" لم يتقدم أحد شرحاً مشهوراً للمشناة بمثل ما فعل موسى ابن ميمون.. يقول ابن ميمون فى مقدمة كتابه "شرح المشناة": "منذ أيام معلمنا موسى حتى حاخامنا المقدس (يهوذا هاناس) لم يتفق أحد من علماء اليهود على أية عقيدة من العقائد التى كانت تدرس علانية باسم القانون الشفهى، وهكذا تقدم الزمن حتى أتى حاخامنا المقدس الذى جمع لأول مرة كل ما يتعلق بالسنّة والأحكام وشرح القانون المروى عن معلمنا موسى.. المأمور به فى كل جيل".

وقد أجمل موسى ابن ميمون عدد الأوامر والنواهى الشرعية التى حددها الفكر الحاخامى عبر العصور بـ (613) فرضاً شرعياً أساسياً.. وهى من المسلمات لدى أغلب يهود إسرائيل حالياً.

وقد توفى ابن ميمون عام 1204م، ويعتقد البعض بوجود قبره فى طبرية ويزورونه إلى اليوم.

• • •

من الواضح من أعمال أكبر الفلاسفة اليهود على مر العصور.. موسى ابن ميمون، أنه لم يخرج فى الكثير من آرائه الفلسفية حول الزمان و الحركة والقدم والحدوث، وفى أفكاره عن تدرج المعرفة ودرجات العارفين.. عن ذلك الجدل داخل الفلسفة الإسلامية، وعن تلك الآراء التى قال بها المتكلمة والمتصوفة كل من طريق.

وهو ما يجعله فى نظر الكثيرين ليس إلا واحداً من الفلاسفة المسلمين وإن كان يهودى الديانة، وهو فى ذلك كان نموذجاً لثالث الفلاسفة اليهود.. ابن كمونة، الذى ولد

بعده بقليل واحتل وضعاً تالياً له فى المكانة، إذ يذكر "يوسف زيدان" أن كتاب "ابن كمونه" الأشهر "الجديد فى الحكمة" فيه أصداء الفلسفة الإسلامية، وهى أقرب للمعتزلة، ويرى بعض المؤرخين أنه أسلم وحسن إسلامه.

وأما الإسهام الشرعى لموسى ابن ميمون فى علوم الفقة والتفسير، فقد مكّن بأعماله من نفوذ الحاخامات وسطوة التلمود على بنية الدين اليهودى، فقد جعل هناك وضعاً مرموقاً للتلمود أو ما يسمّى بالشريعة الشفوية والإضافات التى أدخلت على شريعة موسى من قبل الحاخامات.

وقد أسفر ذلك فى القرون التالية عن مزيد من الاتجاه نحو الخرافة والتعقيدات الدينية، كما أن التلمود كان الأساس لاستقرار الرؤية العنصرية لليهود تجاه الآخرين، بل إن ابن ميمون نفسه لم يكن خالياً من العنصرية فهو القائل فى "دلائل الحائرين" أن سكان شمال أوروبا وجنوب أفريقيا يمثلون فى المرتبة البشرية المستوى الأسفل.. يقول:

"ما هؤلاء عندى فى مرتبة الإنسان، وهم من مراتب الموجودات دون مرتبة الإنسان، وأعلى من مرتبة القرد، إذ قد حصل لهم شكل الإنسان وتخطيطه، وتمييز فوق تمييز القرود !"

ولا يزال اليهود القراءون مختلفين عن اليهودية التلمودية التى عززها موسى ابن ميمون، وهم على إيمانهم بالتوراة وسفر يوشع كمصدرين وحيدين للتشريع، ويقيمون الصلاة مرتين لا ثلاث، ويؤمنون بنبوّة عيسى ومحمد ويرفضون الصهيونية.

غير أن اليهودية التلمودية – وهى الغالبة – لا تعترف بهم، ولايزيد عددهم فى إسرائيل عن عشرين ألف شخص معظمهم من أصل مصرى، ويعيشون فى الرملة وأشدود وبئر السبع.

• • •

ومما يثير الدهشة فى شأن اليهود واليهودية، هو ذلك التطرف إلى حد الهوس الذى يصيب جموعاً من المتدينين. ثم تلك الحالات الموازية للردة وترك الدين..

وإذا كان ما قيل عن اعتناق موسى ابن ميمون الإسلام بعض الوقت تاركاً اليهودية هو الأشهر في المزج بين التطرف وترك الدين في آن واحد، فإن خلفه ابن كمونة قد خاض التجربة وقيل أنه مات مسلماً..

وتذكر كتب التاريخ أن رجل الدين اليهودي "السموال بن يحيى المغربي" الذي توفي قبل ابن ميمون بعقود، لم يتحول إلى الإسلام فحسب، بل وصنف كتاباً لاذعاً في نقد اليهودية، وقد نشر "محمد عبد الله الشرقاوي" تحقيقاً للكتاب في القاهرة عام 1986م.

وفيما بعد انتهى "شبتاي زيفي" الذي آمن اليهود بكونه المسيح المنتظر إلى اعتناق الإسلام بين يدي السلطان العثماني. وبعده بمائة عام اعتنق "يعقوب فرانك" في القرن الثامن عشر الكاثوليكية هو وأتباعه الذين كانوا قد آمنوا به مخلصاً لليهود..

وفي القرن التاسع عشر أعلن "موسى هيس" أن الدين والشريعة اليهودية قد ماتا، وأن المسيحية هي دين العصر الذي يسعى إلى توجيه البشر كافة في حين لا تسعى اليهودية إلا إلى توحيد شعب واحد بعينه. وقد كان "موسى هيس" زميلاً لكارل ماركس في الجامعة، وكان متقلب المزاج، وتزوج من فتاة ليل في باريس وراح يبشر بالصهيونية.

وبعده جاء الفيلسوف اليهودي "هنري برجسون" ليعلن رفض إله اليهودية الذي لا يسخر كل قوته إلا في سبيل البعض، على العكس من إله الحب المسيحي الذي يتوجه بحبه إلى الإنسانية بأسرها، ولولا تصاعد النازية لاعتنق برجسون الكاثوليكية..

وهو ما فعلته "سيمون فيل" التي ارتدت عن اليهودية واعتنقت المسيحية واصفة العهد القديم بأنه كتاب قبائلي عن الحروب..

وهكذا.. فإن هذا التقلب الديني الحاد مابين الدين والدين الآخر أو ما بين الدين وخارج الدين، جاء موصولاً بتجارب سابقة كانت إحداها من نصيب الفيلسوف اليهودي الأكبر موسى ابن ميمون.

اسبينوزا..

الحركة خارج الدين

جاء "اسبينوزا".. أشهر فيلسوف يهودى منذ موسى ابن ميمون.. لينقلب على اليهود ويفند التوراة.. ويعمل من خارج الدين.

وإذا كان موسى ابن ميمون في القرن الثاني عشر قد نجح في ضبط الحركة لدى اليهود الذين تشتتوا وصاروا شيعاً، آخذاً من الفلسفة الإسلامية ذلك المجهود الضخم فى التوفيق بين العقل والنقل، ومثبّتاً التوراة الشفهية، ومعظّماً مكانة التلمود فى أصول الدين، فإن اسبينوزا قد جاء مربكاً للحركة من جديد وعائداً بها الى ما وراء الدين.

ولد الفيلسوف الهولندى – البرتغالى الأصل – "اسبينوزا" فى عام 1632م وتوفى عام 1677م. وقد حظى اسبينوزا بإهتمام كبير، وله مساحة مميزة فى الثقافة العربية ضمن وضعه المميز فى الثقافة العالمية.

وقد أبدى كل من حسن حنفي وفؤاد زكريا إهتماماً خاصاً بتقديم اسبينوزا للفكر العربى، ويعتبره "حسن حنفى" الذى ترجم كتابه الأشهر "رسالة فى اللاهوت" إلى العربية، واحداً من تلامذة الفلاسفة المسلمين وكثيرا ما كانت آراء اسبينوزا فى الأخلاق والحرية موضع تقدير من المفكرين المسلمين.

قام اسبينوزا بنقد الفكر التوراتى، ورآه مجرد نتاج تحريف قام به الحاخامات على مدى آلاف السنين، كما قام بنقد التوارة ورفض العقيدة اليهودية، وعمل على إثبات أن الأسفار الخمسة الأولى من التوراة "أسفار موسى".. هى أسفار غير صحيحة.

يرى اسبينوزا أن المعلومات التاريخية الواردة في التوراة هى معلومات ناقصة، بل هى كاذبة، وأن الأسس التى تقوم على المعرفة فى التوارة هى غير كافية من حيث "الكم" ومعيبة من حيث "الكيف".

وعلى ذلك يرى اسبينوزا أنه لا يجب تصديق أو تثبيت أياً مما جاء في التوراة إلا بعد الفحص التاريخي، وبعد دراسة فكر الأنبياء نحدد إذا كان هذا الكتاب من بين كتب العهد القديم يرقى إلى مستوى القدسية أم لا.. فنحن لا ندرى فى أى مناسبة وفى أى زمان كتبت هذه الأسفار التي نجهل مؤلفيها الحقيقيين.. إننا نجهل كثيراً من مؤلفى تلك الأسفار كما أننا لانملكها في لغتها الأصلية أو في لغة كاتبها.

لقد حاول اسبينوزا نقل "الديكارتية" إلى اليهودية، أو إكمال المشروع التوفيقي بين العقل والنقل الذى بدأه موسى ابن ميمون، غير أن اسبينوزا قد انتهى الى تحكيم العقل وإسقاط النقل، وقد قضى العقل على الوحى، وأصبح اسبينوزا خارج الدين، وكان أن تم فصله من الجامعة بعد اتهامه بالالحاد.. وبقى على آرائه وعمل لبعض الوقت فى بيع الخضر والفاكهة.

وربما اقتضى الإنصاف هنا.. عدم إعتبار اسبينوزا فيلسوفاً يهودياً، على الرغم من أنه وُلد يهودياً وظل أمل اليهود فترة طويلة في رفع شأنهم الفكرى.

فاسبينوزا لم يمكث داخل اليهودية أكثر مما مكث خارجها، كما أن موقفه العام من الدين لا ينصرف إلى اليهودية وحدها فجانب من انتقاداته للتوراة تحمل صداماً مع القرآن الكريم، كما أنه قد خالف الكنيسة الكاثوليكية وإن كان قد اقترب من الإسلام في قوله بعدم ألوهية المسيح وبأنه ليس إلا إنسان كسائر الناس.

والمحصلة أن اسبينوزا فيلسوف العقل دون أن يكون فيلسوف الدين، وأنه قد أخذ من موسى ابن ميمون لكى يأتى عليه وعلى مجمل الفلسفة اليهودية.

■ ■ ■

جاء اسبينوزا الثاني.. "موسى مندلسون" في القرن الثامن عشر بعد أن احتل اسبينوزا القرن السابع عشر.

ولد "موسى مندلسون" عام 1729م ومات عام 1786م في برلين، ويذكر "جورج طرابيشي" في "معجم الفلاسفة": أن مندلسون قد تحدّر من أسرة يهودية فقيرة، وأنه كتب الشعر بالعبرية في العاشرة من عمره وقد عمل مديراً لمعمل لغزل الحرير، ثم تفرغ للدراسة، وكان مصاباً بمرض عصبي خطير طيلة حياته وكثيراً ما كان يعاني اكتئاباً حقيقياً. وقد تزوج من ابنة تاجر ثرى من هامبورج وأنجب ثمانية أولاد تفرغ لتربيتهم.

ألف "موسى مندلسون".. "المحاورات الفلسفية الأربع" عام 1755م، وقد كتبها بأسلوب يضاهي المحاورات الأفلاطونية، وفي عام 1877م نشر ترجمة لأسفار موسى الخمسة، ونه بعد ذلك كتاب بعنوان "القدس"، و"دروس في وجود الله". ويقول عنه "ايمانويل كانط": "لو كان على ربة الفلسفة أن تختار لغة لاختارت لغته" ويقول "ليسينج": "إن روحه الفلسفية تجعله اسبينوزا ثانياً لا تنقصه سوى أخطاء الأول".

• • •

جاء "مندلسون" بجديد عن سابقيه، فلم يعد يلقي بالاً لقضية التوفيق بين العقل والنقل التي شغلت موسى ابن ميمون في العصر الوسيط، بل كان أبرز من قال بعالمية اليهودية.

يثير مندلسون لغطاً آخر في فهمه وتصنيفه، فعلى الرغم من قيامه بتوسيع الدين اليهودي ليكون ديناً عقلانياً عالمياً، ويضع اليهودية ضمن السياق الإنساني العام، فإنه على الجانب الآخر، لم يكن معنيّاً بدينه، ولم يستشهد بالكتاب المقدس كما لم يشر – ولو مرة واحدة – إلى يهوديته، ويرى البعض أنه كان أقرب إلى الدين الطبيعي الذي كان "ديفيد هيوم" أحد رواده.

واليهودية عند "موسى مندلسون" ليست دينًا منزلاً، وهي ليست إلا مجموعة من

القوانين و الشرائع وهي بذلك دين بلا عقيدة، بل دين له شعائر وطقوس فحسب، وهذا ما يميزه عن المسيحية.

• • •

جاء "ايمانويل كانط" في كتابه "الدين في حدود العقل وحده" مخالفاً مندلسون في اختزاله الدين في مجرد طقوسه، إذ يرى كانط أن الطقوس والشعائر بجميع أنواعها أبعد شئ عن روح الدين الحقيقي، ذلك أن الأخلاق الذاتية هي الدعاية الأساسية للدين، وأما الشعائر فلا تعبر إلا عن صلة زائفة بالله. وهكذا لم ير "كانط" في اليهودية إلا.. وهماً. ويرى كانط أن اليهود باعتبارهم أنفسهم الشعب الوحيد المختار.. أعداء لكل الشعوب، قد أصبحوا بالتالي هدفاً لعداون الجميع.

لقد أسفر هذا الارتباك في العلاقة بين العقل والوحي، وفي مكانة الطقوس وقيمة الروح في اليهودية إلى ظهور أعمال كثيرة تحاول ضبط الحركة من جديد، حتى لقد ألّف أحدهم وهو "ناحمال كروشمال" كتاباً بعنوان "دليل الحائر في زماننا" متأسيًا بموسى ابن ميمون.. داعيًا الشباب اليهودى الحائر بالعودة إلى حظيرة الإيمان، دون أن يكون ذلك على حساب العلم والحداثة ".

• • •

بعد ذلك بقليل جاء "هرمان كوهين" أول فيلسوف يهودى كبير بعد "اسبينوزا" و"مندلسون".. داعياً إلى تأسيس الأخلاق العقلانية انطلاقًا من مفاهيم عالمية.

ويذكر "حسن طلب" في دراسته "اتجاهات الفلسفة اليهودية المعاصرة " التي نشرتها مجلة " إبداع " القاهرية في مارس 1995م.. أن "هرمان كوهين" قد أوضح مشروعه في الأخلاق العقلانية في كتابه "ديانة العقل بمعزل عن المصادر اليهودية".

اشتبك كوهين مع الفكر الألماني "هينريش فون تريتشكه" الذى اتهم المفكرين الألمان من اليهود بأنهم معادون للمسيحية وللقومية الألمانية، وحاول كوهين أن يثبت انتماء

اليهود إلى الأمة الألمانية، لا على الرغم من كونهم يهوداً.. بل لأنهم يهود!

ونظرًا لسلطان "كانط" على الفكر اليهودي.. قال "كوهين": الألمان هم أمة "كانط"، فكيف لاينسب اليهود إليهم، فالشرائع اليهودية تتفق مع الأخلاق المثالية عن كانط، وراح "هرمان كوهين" يعمل على تأويل التوراة وتعاليم الأنبياء على ضوء فلسفة كانط مما أثار عليه المثقفين اليهود.

• • •

لقد حظيت "المسألة اليهودية" بإهتمام تيارات الفلسفة الحديثة، ولم تقف داخل دوائر التفكير اليهودى الخاص، وفي ذلك يتساوى إهتمام الليبرالية والماركسية والوجودية بالمسألة اليهودية، ويذكر حسن حنفي أن التيار الليبرالى قد قدم كتاب "برونو باور" عام 1843م بعنوان "المسألة اليهودية"، كما أن التيار الماركسي قد قدم فى العام نفسه كتاب "كارل ماركس".. "المسألة اليهودية"، وقدم التيار الوجودى فى عام 1954م كتاب "جان بول سارتر".. "تأملات فى المسألة اليهودية".

أراد "برونو باور" تحرير اليهود فى ألمانيا عن طريق الدولة الليبرالية القومية، وأراد "كارل ماركس" الأمر نفسه عن طريق تحرير المضطهدين فى العالم كله، وأما "سارتر" فقد رأى أن المشكلة ليست فى "اليهودية" بل فى "معاداة السامية"، وأن اليهودى هو الضحية وليس الجلاد، وعلى ذلك فإن المشكلة لا تكمن فى اليهود بل فى الآخرين.

• • •

هناك العديد من الأسماء التى يتوجب الوقوف إزاءها، لكن ضيق المقام يجعلنا نتوقف عند الفيلسوف اليهودى "مارتن بوبر" وهو غير الفيلسوف الشهير واليهودى أيضاً "كارل بوبر". فقد تمكن "مارتن بوبر" من التوفيق بين الصهيونية واليهودية بمثل ما تمكن موسى ابن ميمون قبل ثمانية قرون من التوفيق بين العقل والنقل.

ولد "مارتن بوبر" فى فيينا عام 1878م ومات فى القدس الغربية عام 1965م.

ويذكر "جورج طرابيشي" في" معجم الفلاسفة "أن مارتن بوبر قد عمل بتدريس تاريخ الأديان في جامعة فرانكفورت حتى عام 1933م ثم اعتنق الصهيونية وروج لها، وهاجر إلى فلسطين مع صعود النازية، وأصبح منذ عام 1938م أستاذاً لعلم اجتماع الدين بالجامعة العبرية.

وقد مثّل "بوبر" التيار المضاد للتيار الإصلاحي في اليهودية الذي مثّله هرمان كوهين. ومن مؤلفات "مارتن بوبر".. "الحكايات الحسيدية "، "طريق نحو الحسيدية"، "رسالة الحسيدية"، والحسيدية عنده هي نوع من الفلسفة الوجودية حيث انملاقة المباشرة للقاء الله بموسى ومعاينة موسى لوجه الله تعالى.

وله أيضاً "أنا وأنت"، و"دروب اليوتوبيا "، و"الإيمان باليهودية"، و"الإنسانية العبرية"، و"الدين التوراتي"، و"إسرائيل والعالم" وحاز جائزة جوته من مدينة هامبورج، واستأنف علاقته بألمانيا بعد الحرب، واستقبله رئيس جمهورية ألمانيا الإتحادية.

• • •

يذكر "أنيس صايغ" في كتابه "الفكرة الصهيونية" أن "مارتن بوبر" ينظر لإسرائيل كحوار بين الله والإنسان على المستوى القومي، وأن إسرائيل مدعوة لأن تستجيب لتحدي حياة الحوار مع الله!..

أسهم بوبر إسهاماً كبيراً في نجاح الحركة الصهيونية في فترة ما بين الحربين، وقد اكتسب وضعاً مميزاً لكونه عمل مع تيودور هرتزل في بداية الحركة الصهيونية، ثم كان مديراً للنشاط التعليمي لدى جالية فرانكفورت اليهودية في سنوات حكم هتلر.

يقول" مارتن بوبر" في كلمة ألقاها في فرانكفورت عام 1934م: "إن هذا الشعب يقف على أرض يمكن أن تنتزاح من تحت أقدامه في أي لحظة.. كل إتحاد يدخله يغدر به، وكل تحالف انضم إليه عبر التاريخ كان يحوي عنصر انتهائه بشكل خفي، كما أن امتزاجه مع بقية الحضارات كانت له قوة محطمة خفية.. لقد كان الشعب اليهودي دائماً "شبحاً"

مشئوماً لا وطن له، كان ينظر إليه على أنه سبب الطاعون مثلاً، ولكننا نعرف أننا لسنا أشباحاً، وإنما نحن مجتمع حي، وطريقنا إلى ذلك.. الإيمان"..

ويقول: " إن هناك مقياساً واحداً لتمييز الأمة عن العقيدة، فالأمم تعيش التاريخ، والعقائد يعيشها الأفراد في تجاربهم، وهذه التجارب في أقصى أشكالها هي "الوحي"، والأمم والعقائد تختلفان بالطريقة نفسها التي يختلف فيها التاريخ والوحي، ولا يتطابقان إلا في حالة واحدة. إن إسرائيل تتلقى تجربتها الدينية الحاسمة كشعب، ليس النبي وحده هو الذى تشمله عملية الوحي بل المجتمع كله.. فمجتمع إسرائيل يعيش اليوم التاريخ والوحي كظاهرة واحدة.. التاريخ كوحي والوحي كتاريخ".

"إن وحدة القومية والإيمان التي تشكل أساس وضع إسرائيل الخاص هي مصيرنا، وليس هناك من سبيل لإعادة بناء إسرائيل وتحقيق أمنها سوى طريق واحد، وهي أن تتحمل عبء وضعها الخاص كمملكة الله".

• • •

يقترب "مارتن بوبر" من أفكار سابقة حول العالمية اليهودية غير أنه يجعل ذلك من خلال الصهيونية.. في نص بليغ ومنطق غريب، وقد نشر في ذلك كتابه الشهير "الإنسانية العبرية " عام 1942م، وفيه يبذل جهداً كبيراً من أجل دعم نفس أفكاره حول وحدة الدين والدنيا في إسرائيل.

يقول مارتن بوبر: "إن رجال التوراة آثمين مثلنا ولكن هناك إثم واحد لم يرتكبوه، وهو أنهم لم يحصروا الله في الدين الذى هو مجرد جانب من الحياة، لم تكن لديهم الجرأة على رسم حدود لوصايا الله، لم يقولوا لله: إن سيادتك تنتهي عند هذه النقطة، ولكن وراء هذه الحدود يبدأ العلم والمجتمع والدولة. ليست إسرائيل أمة كبقية الأمم، إنها شعب ليس كباقي الشعوب، لأنها الشعب الوحيد الذى كان منذ بداية تاريخه أمة ومجتمعاً دينياً في الوقت نفسه.. ففي الساعة التاريخية التي التقت فيها قبائل بني إسرائيل لتشكل شعب

أصبحت حاملة شعلة الوحى".

وحول نظرة الشعب اليهودى لنفسه بأنه شعب الله المختار، ونظرة شعوب أخرى ذات النظرة لنفسها يقول بوبر: "المسألة ليست هى ما إذا كنا نشعر أو لا نشعر بأننا شعب مختار، ولكن المسألة هى دورنا فى التاريخ الذى هو فريد من نوعه، إن طبيعة اختيارنا تختلف كلياً عن طبيعة نظريات الاختيار عند بقية الشعوب، إن إسرائيل اختيرت لتتمكن من الارتفاع بتفكيرها للمستقبل عن القوة البيولوجية التى تمجدها الشعوب إلى دائرة الحقيقة، لقد اعتبر الله أيوب خادمه وإبراهيم حبيبه، وقد جرب الاثنين ودعاهما للحساب، وقد قبلا التجربة وتحملاها.. هذه هى الإنسانية العبرية ".

"إن القيم العظيمة التى أنتجناها نجمت عن تزاوج الشعب والدين، فلا نستطيع الاستعاضة عن هذا الزواج الأصلى بالجمع بين الأمة والدين جمعاً سطحياً مصطنعاً.. إننا لا نستطيع أن نفتخر بأننا نمتلك "الكتاب" إذا كنا نخون وصاياه ".

"إننى أضع الإنسانية العبرية ضد القومية اليهودية التى تعتبر إسرائيل أمة كالأمم الأخرى، فإذا اختارت إسرائيل الإنسانية العبرية سيكون لديها ماتقدمه للجنس البشرى".

• • •

لكن "مارتن بوبر" في واقع السياسة اختار دولة إسرائيل ولم يقم باختيار الإنسانية العبرية.. وقف مع القومية اليهودية التي سبق أن هاجمها، وأيّد المشروع الصهيوني الذى هو نقيض فلسفة بوبر في عالمية اليهودية.

ولما وجه "المهاتما غاندى" سؤالاً انتقادياً.. لماذا لا يشعر الصهيونيون بارتباطهم بالوطن الذى ولدوا فيه ويقاوموا الظلم مع بقية الشعب بدلاً من ذهابهم للبحث عن وطن جديد؟، وجه "مارتن بوبر" رسالة مفتوحة إلى المهاتما غاندى تقول.. بأن الإيمان اليهودى لا يمكن أن يعيش إلا فى مجتمع يقوم على قوانين الخاصة، وهذا أمر يرتبط إنجازه بالأرض وبشعب حر عليها.. " أنا لا أظن أن الله يمنح قطعة أرض دون حساب ليقول المالك كما يقول

الله في التوراة "لأن هذه الأرض ملكي"، إن الأرض المفتوحة برأيي قد أعيرت إلى الفاتح الذى أقام عليها، وأن الله بإنتظار ما سيفعل بها، لسنا نريد نزع ملكيتهم فنحن نريد أن نعيش وإياهم، وكلما زاد خصب الأرض كلما اتسع المكان لنا ولهم".

• • •

يذكر "روجيه جارودى" في كتابه "ملف إسرائيل" أن مارتن بوبر قد وجه انتقادات عديدة لسياسة إسرائيل فيما بعد، وينقل عنه قوله بأن "اليهودية قد اقتلعت من جذورها، فالرغبة في الاستيلاء على الأرض هي الأساس الذى يخفى كل ما استعارته القومية اليهودية المعاصرة من القومية الأوروبية الحديثة، وإذا لم تكن إسرائيل غير تشكيل لهويتنا القومية، وغير تبرير جميل لأنانيتنا الإجتماعية التى تحولت إلى صنم نعبده ونحن الذين لا نعبد غير إله واحد للناس جميعاً، فإننا نكون مثل غيرنا. إننا نخالف مهمة الأنبياء التى يريدونها بلا انقطاع.. "إذا تفاخرتم بأن الاختيار قد وقع عليكم بدلاً من أن تحيوا فى طاعة الله فتلك خيانة".

• • •

الواقع أن فلسفة "مارتن بوبر" هي أكثر من فلسفة، فآراؤه حول الدين والعقل.. أو الأمة والعقيدة.. أو التاريخ والوحى، هى أفكار نظرية عامة يمكن قبولها بلا أى تغيير فى أديان أخرى.

وبعض أفكار "مارتن بوبر" هى "مجرد كلام" فآراؤه فى أرض فلسطين والتعاون العربى اليهودى وتغليب العبادة وأوامر الله على ماعداها من رغبات البشر.. هى مجرد أقوال لامعة لا تعني شيئاً.. فالمذابح وعمليات التهجير وتشريد شعب بكامله وصبّ العذاب على من بقى منه على أرضه.. لم تكن إلا تدنيساً للأرض القدسة وبُعداً مملكة الله وقيم الإيمان.

ثم إنه فى دعوته للإنسانية العبرية لم يبطل مقولة "الشعب المختار" لصالح مفاهيم

الأخوة الإنسانية أو المساواة بين البشر، بل جعلها غطاءاً رحباً لإسرائيل.

• • •

غاية القول هنا.. أن تلك الحركة الصاخبة التى غطت على حالة الهمود واليهودية.. بشراً وديناً، لقرون طويلة.. قد أتى عليها موسى ابن ميمون فى القرن الثانى عشر مُحاولاً الضبط والتوازن.. مابين العقل والشريعة ومابين الدين والدنيا، ثم غابت الرؤية قروناً أخرى إلى أن جاء اسبينوزا فى القرن السابع عشر بادئاً من نهاية ابن ميمون، وموازياً بين العقل والشرع، غير أنه انتهى خارج الدين ناقداً للتوراة والتلمود.. للعقيدة والشريعة.

ثم تعاقبت أفكار أخرى سعى البعض خلالها إلى الأخذ من الإسلام والمسيحية بالقول بعالمية الدين، وسعى آخرون لفض اشتباك جديد بين اليهودية والحداثة، وسعى غيرهم إلى العمل خلاف قول ابن ميمون من أن المعبد الثالث لن تبنيه أيد بشرية وأنه سينزل جاهزاً من السماء، فكانت الفكرة.. ثم جاءت الحركة، ومضت الصهيونية إلى شوط جديد.. راحت تعمل بأصول الدنيا لا بأصول الدين!

الفصل الثاني

الصهيونية سيرة متفرقة

كان كلما ظهر غطى النور المكان، وكان الناس يستقبلونه في كل مكان بالفرح والهتاف، وفي أوروبا تجمع الناس في الكنائس، ووزع الأغنياء ثرواتهم.. وظهرت القصص والحكايات العجيبة.. وكان بعضها يتحدث عن ظهور سفينة غريبة بديعة في شمال أسكتلندا.. قلاعها من حرير وحبالها من حرير.. وملاحوها يتحدثون اللغة العبرية.. ويرفرف عليها علم مكتوب عليه "بنى إسرائيل".

آمن الكثيرون من اليهود والمسيحيين بأنه المسيح المنتظر وليس سواه.. وأن خلاص البشرية قد حان بعد طول إنتظار.. ولكن شيئا لم يحدث.. لقد كان "شبتاى زيفي" اليهودى التركي هو أشهر مسيح كاذب في التاريخ.

ولد "شبتاى زيفي" في مدينة أزمير التركية عام 1626م، وقد جاء ميلاده بعد حرب الثلاثين عاماً في أوروبا التي عاني منها اليهود الكثير، وقاسي فيها كل الأوروبيين الويل، وإزاء العذاب المهين الذى ذاقه الناس تسرب لديهم إحساس بأنها نهاية العالم، وأن الحرب اللعينة إنما نشبت لكي تمهد لقيام مخلص البشرية وانقضاء العالم.

وضع المؤلفون في ذلك العديد من الكتب التي نشرت في ألمانيا وفرنسا وانجلترا مؤكدة على أن عام 1666م هو عام قيامة المسيح. وعندما اقترب العام المنتظر راح "زيفي" يخبر أصدقاءه بأنه المسيح المنتظر، وأنه سيعيد شعب إسرائيل إلى فلسطين، ولما واجهه الناس بسخرية شديدة، رحل إلى سالونيك، ولاحقته السخرية طريقاً بطريق، فمضى إلى مصر التي مكث فيها ثلاثة أعوام تشجع خلالها من قبل الجالية اليهودية في مصر على السفر إلى أورشاليم، وهناك قضى نهاره في صوم دائم وليله في صلاة لا تنقطع.. وبدأ أمره يشتهر.

وفي عام 1665م.. أى قبل القيامة المنتظرة بعام.. ذهب "زيفي" إلى أزمير واستقبله الناس بالفرح والهتاف، وتوالت القصص العجيبة عن السفينة الحرير والمسيح الأخير.

وآمن الكثيرون بأن المسيح الذى طال به الإنتظار قروناً عديدة هو "زيفي".. ولكن المفاجأة كانت بالغة الغرابة ودرامية بما يفوق أى توقع، فبدلاً من أن يذهب "زيفى" إلى أورشاليم.. ذهب إلى القسطنطينية.. ليعلن الإسلام.. وتحول فرح اليهود إلى مأتم كبير!

• • •

منذ "شبتاى زيفى" وتلوح فى الأفق دعوات العودة والراحة الأبدية لبنى إسرائيل، وفي نهاية القرن التاسع عشر ظهر رجل آخر جاء بنفس البشارة من غير صوم ولا صلاة. وعلى خلاف الفشل الذريع الذى أحاط بدعوة "زيفى" الذى بدأ يتعلم مبادئ الإسلام، نجح الداعية الجديد "تيودور هرتزل" الذى لم يكن سوى صحفى مغمور لدى صحيفة نمساوية محدودة فى تمرير الدعوة وتجميع اليهود وبدء الصراع ثم بناء الدولة.. والذى أراده "زيفى" وحققه "هرتزل" هو بناء المعبد الثالث وإعلان دولة إسرائيل..

ولأن الأكواخ العربية المجاورة كانت بالغة الضعف حين البناء.. فقد علا المعبد اليهودى، ثم كان أن هبت رياح عاصفة على أكواخ العرب فى التسعينات، وبدت الأمور بعد سكون العاصفة خارج زمام السيطرة وتراجعت الأحلام العربية فى معظمها وراء حدود الأمل إلى أن عادت الروح مع نسائم الربيع العربي في عام 2011م.

إجابة خاطئة

لسؤال غير مطروح

وربما تكون هذه النكتة هى الأكثر دلالة على ماجرى، يحكى "يعقوب أجمون" المسئول عن احتفالات الذكرى الأربعين لتأسيس إسرائيل فيقول: المشروع الصهيونى حدث فيه خطأ كبير.. فبدلاً من كندا كانت فلسطين.. ويرجع ذلك إلى تعثّر لسان موسى.. فحينما سأله الإله.. أى بلد تريد؟.. قال: كاكاكا.. نانانا.. فأعطاه الله كنعان بدلاً من كندا.. فهاج بنو إسرائيل وقالوا: أمَا كان بوسعك أن تختار كندا بدلاً من هذا المكان البائس الخرب المحاط بالرمال والعرب؟!

ويكمل عبد الوهاب المسيرى راوياً.. أنه على دورة مياه فى الجامعة العبرية كتب أحد المستوطنين: "ليذهب السفارديم إلى أسبانيا، والأشكيناز إلى أوروبا، والعرب إلى الصحراء.. ولتعُد هذه الأرض إلى الله".

وسيظل هذا الإحساس اليهودى بالورطة التاريخية وبالطريق المسدود حتى النهاية، ذلك أن الذين جاءوا إلى فلسطين منذ بدء الدعوة الصهيونية وإلى الآن لم يجدوا الراحة التى كانوا ينشدونها، ولا النشوى التى كانوا يطلبونها.

كان هناك اعتقاد بأن الوصول إلى فلسطين نهاية لشتات القرون وعذاب الأيام، كان الظن كذلك أن الرب الذى يرعى بنى إسرائيل رعاية خاصة قد أراد المجد والنصر لشعبه المختار ولذا اختار لهم وطنًا من ياقوت ومسكناً من حرير. وعندما جاءوا لم يجدوا شيئاً مما وعدوا أنفسهم به.. فقد دخلوا فى حروب لا تنقطع، وصار الأمن هدفاً مفقوداً على الدوام.. وأصبحت أيام اليهود فى إسرائيل برغم حقائق القوة ومظاهر الأبهة.. أياماً كئيبة عصيبة يكسوها الخوف والقلق.. من كل الأشياء وفى كل الأوقات.

* * *

جاء اليهود إلى فلسطين استجابة للدعوة الصهيونية، والصهيونية هى الكلمة التوراتية "زيون" Zion، التى غالباً ما استخدمت مرادفاً للقدس وأرض إسرائيل.

ويرى البعض أن الصهيونية التى تبلورت فى القرن التاسع عشر لم تكن جديدة فى

مفهومها ولا مضمونها، بل هي إحياء لفكرة قديمة وحركة دائمة تحاول تنفيذها لكي تعيد اليهود إلى فلسطين. وعلى ذلك فجوهر الصهيونية يقوم على إعادة اليهود إلى أرض فلسطين. وقد ظل هذا الجوهر ضعيفاً حتى القرن التاسع عشر، ولما زاد التضييق على اليهود في أوروبا وجدت الفكرة نصيباً من التعاطف لدى بعضهم.

وهنا ظهر زعماء الصهيونية الأوائل وأبرزهم "موسى هيس" الذى ظهرت آراؤه بعد مذبحة اليهود في دمشق 1844م حسب الرواية اليهودية، وكذا "ليون بنسكر" الذى ظهر بعد مذابح اليهود في روسيا عامي (1881– 1882م) عقب اغتيال القيصر ألكسندر الثاني، ثم كان "تيودور هرتزل" الذى قاد الصهيونية المعاصرة إلى أن قامت إسرائيل.

• • •

تعرف صهيونية هرتزل بالصهيونية السياسية، وكانت من قبل تعرف بالصهيونية الدينية التي كثيراً ما نادى بها المتصوفون اليهود رابطين بينها وبين الأمل اليهودى في مجيء مسيح آخر الزمان.

كانت الصهيونية الدينية قد أدت إلى إعادة الحج إلى الأماكن المقدسة بل وإلى تكوين طوائف دينية، ولكن اضطهاد الملوك الكاثوليك في أسبانيا دفع بعضهم للهجرة إلى فلسطين.

ويقدر جارودى أن هذه الصهيونية الدينية لم تمتد إلا إلى جماعات محددة، ولم تلق أبداً معارضة من المسلمين الذين يعتبرون أنفسهم من ذرية إبراهيم ولا ينكرون دينه، وبالتوازى فلم تكن هذه الصهيونية تستهدف أبداً إقامة دولة أو فرض سيطرة على فلسطين، ولم تثُر قط أيّة مصادمات بين اليهود وبين السكان العرب مسلمين ومسيحيين.

وبعيداً عن الصهيونية الدينية.. كانت هناك حركة تنوير عقلانية تحاول حل المشكلة اليهودية، وتعرف حركة التنوير هذه بالهاسكلاه.. وكان هدفها تحرير الإنسان اليهودى وتحقيق ذاته استناداً لقيم العدالة والمساواة.

ولكن البعض رأى أنّ تحقيق التحرر الشخصي والعدالة هو أمر بالغ الصعوبة، ذلك أن المشكلات القومية لا تصلح معها سوى الحلول القومية.. وأن الاشعاع الدينى

في فلسطين لن يكون كافياً.

هنا جاءت الصهيونية السياسية.. وبدأ المشوار الطويل نحو الأرض التي كانت مقدسة.

• • •

بدأ "تيودور هرتزل" في وضع فكر "الصهيونية السياسية" في فيينا عام 1882م، وانتهى من إرساء نظامها عام 1894م في كتابه "الدولة اليهودية" عام 1894م وشرع في وضعها موضع التنفيذ في أول مؤتمر صهيوني في مدينة بازل بسويسرا عام 1897م.

واللافت للنظر أن هرتزل يحمل إعتقاداً مناقضاً تماماً للصهيونية الدينية، فهو من أتباع مذهب "اللاأدرية" الالحادى، وهو المذهب المخالف لجميع الأديان والذى لا يعترف إلا بما يدخل في نطاق الحس والتجربة الملموسة. ويعارض هرتزل من يفهمون "اليهودية" على أنها دين من الأديان السماوية.. بل هي قومية، واليهود هم أولاً وقبل كل شيء "أمة" واحدة. ويمثل هذا الإيمان يعتقد الكثيرون من قادة إسرائيل.. وكان بن جوريون مؤسس الدولة ملحداً لا يؤمن بوجود الله، وكثير من قادة اليسار الإسرائيلي لا يعتقدون في صحة الدين اليهودى.

• • •

سارت الأمور على نحو ما أراد هرتزل.. وجاء اليهود من كل مكان في موجات متلاحقة من الهجرة، كان الهدف الدينى في العودة إلى ما يرونها أرضاً للميعاد ماثلاً في ذهن البعض، وكان الهدف السياسي في جمع شتات الأمة وإقامة الدولة حلماً عنيداً لدى آخرين، وكان الإغواء الذى مثلته الصهيونية لدى اليهود بما يتضمن من إشاعة الرعب في أوروبا وإطلاق الرغبة في فلسطين سبباً ثالثاً في المجيء.

وبقدر ما كان جانب الرغبة مؤثراً في هذا الإغواء بالتجمع في فلسطين، كان جانب الرهبة من الهولوكوست واحتمالات الاضطهاد أكثر تأثيراً لدى عدد من اليهود الأوروبيين.

وقد بُعثت كلمة "هولوكوست" خصيصاً من التاريخ الدينى لتكريس صورة اليهودى الضحية، فالكلمة لها دلالة دينية وهى تطلق في الأصل على "القربان" الذى يقدم لله.. والمعنى أن اليهود الذين قتلهم النازيون الألمان كانوا قرباناً لله وتضحية إليه. وهو قول غير

دقيق، فالنازيون لم يكن لهم صفة دينية.

وحسبما يشير جارودى، فإن هذه الكلمة تعزل ضحايا هتلر من اليهود عن غيرهم فى حرب كبدت البشرية ملايين عديدة من الرجال والنساء، فقد قتل من البولنديين ثلاثة ملايين نسمة من غير اليهود، وقتل ستة ملايين من السلافيين المدنيين. وكأن اليهود بهذا التخصيص يقولون بأن النازية هى العنصرية المضادة لليهود فحسب، وكأن تلك المذابح هى حلقة من حلقات الاضطهاد التى جاءت نتيجة اصطفاء إلهى لليهود.. وهذا خروج عن التاريخ ومحاولة لطمس الحقيقة، وهى أن جرائم هتلر ضد اليهود وغيرهم إنما هى جزء فى جرائم الغرب عموماً.. من ذبح عشرات الملايين من الهنود الحمر والأفارقة إلى ملايين داخل أوروبا فى حروبها العديدة أو خارجها فى عصور الاستعمار.

لقد نجحت الصهيونية فى إخفاء هذه الحقيقة المركزية وفى لفت انتباه العالم إلى أن قتلى اليهود.. كانوا قرباناً لله.

• • •

وهكذا.. جاءت الصهيونية باليهود إلى هنا، كان البعض يقترح الأرجنتين، واقترحت إنجلترا أوغندا.. وانتهى المزاد الدولى على فلسطين. رأت الصهيونية أن اليهود فى كل بلدان العالم يشكلون "أمة" واحدة، وأنهم فى كل زمان ومكان كانوا هدفاً للاضطهاد، وأنهم لن يندمجوا فى أية أمة يعيشون فيها أيّاً كان الأمر، ولا حل سوى إنشاء الدولة اليهودية التى تجمعهم من الشتات.

وهكذا وضعت الصهيونية سؤالاً لم يكن مطروحاً.. أين يذهب اليهود؟.. لم يكن أحد منهم يسأل.. إلى أين يذهب.. فكل فى مكانه حيث الوطن.. اللغة والحياة والجنسية. وأهم ما أنجزته الصهيونية هو طرحها هذا السؤال.. ثم إجابتها عليه بفلسطين.

• • •

لم تكن الإجابة آمنة تماماً.. فقد بدأ صراع مديد.. ومضت سنوات طوال.. وبقى القلق واستمرت مشاعر الشتات، واحتفظ نصف الإسرائيليين بجنسيات أخرى.. ونما لدى البعض شعور باحتمالات الخروج إلى شتات جديد.

عودة غامضة

إلى أرض مجهولة

نجحت "الصهيونية" يوماً بعد يوم.. في أن تصبح الهدف الجامع للكثيرين من يهود العالم، وبرغم أن عدداً غير قليل من المثقفين اليهود اتخذ مواقف مغايرة زادت عند عدد أقل إلى مواقف معادية، فإن الأحداث كانت أسرع من الأفكار، كما كانت المشاهد أبعد من حدود النظر.

وفيما كان نفرٌ من منظرّى اليهود يتأملون الفكرة ومكوناتها وآفاقها.. إلى غير ذلك مما يميل إليه المفكرون من تلتيت وتحليل.. ثم تخويف وتحذير.. كان الآخرون بصدد إعداد تذاكر السفر وتدبير وسائل الإقامة والبحث في ترتيبات الأمن والعمل.

وهكذا في حالة لا تتكرر كثيراً في التاريخ.. كانت الوقائع تتلاحق على الأرض أسرع مما كانت الأحلام تجرى في الأذهان.

ويعبّر الحاخام "موريس ليفر" عن هذه الحالة بما كتبه عام 1939م عشية إندلاع الحرب العالمية الثانية: "قبل أربعين سنة تمنينا أن يكون الاندماج حلاً عالمياً للمشكلة اليهودية، لكن الأحداث تغلبت على الأيديولوجيا، والنظريات البارزة انهارت في نفس الوقت الذى صعدت فيه القومية المتطرفة.. فلم يبق إذن أمامنا إلا مباركة إنشاء دولة يهودية تكون ملاذاً لإخواننا المأزومين".

والأغلب أنه لو كان الأمر بيد المثقفين اليهود ممن يزنون الأمور ويُحسنون الرأى.. لما قامت إسرائيل ولبقى الأمر عند انفعالات وأشواق لاتزيد.

غير أنه من حظ الصهيونية أن وجدت من يغامرون ويتقدمون دون أن يدركوا بالضرورة حجم المخاطر أو عواقب الأمور.

ومن يتأمل كتابات هذه الفترة من تاريخ الصهيونية يدرك إلى أى مدى كانت الاستجابة لنداء الذهاب إلى فلسطين مطلباً مستحيلاً أو ضرباً من الجنون.

• • •

جاء اليهود إلى فلسطين وسط أوهام عديدة، كان "فراغ الأرض" هو الوهم الأسبق.. فقد كان القادمون يعتقدون أنهم أتوا الى أرض بلا شعب، وكان وهم "الراحة" هو التالى..

حيث كانوا يظنون أنهم يتجهون صوب الراحة الأبدية.

ولكن سرعان ما اكتشفوا حقائق الوهمين معاً.. فإذا بشعب عربى يقيم فى بلاده وعلى أرضه. وبدأت الأوهام تتبخر تباعاً، غير أن آلة الدعاية كانت تجذب الآلاف من غير تفكير.

ويروى الفيلسوف اليهودى "مارتن بوبر" أن "نوردو" دخل على "هرتزل" ذات يوم صارخاً: "إننا نرتكب ظلماً"، وذلك لمّا جاء فوجد سكاناً عرباً فى فلسطين.

ويذكر الصحفى الإسرائيلى "أورى أفنيرى" الذى ولد فى مدينة هانوفر الألمانية عام 1923م.. أن والده كان يحوز منصباً مرموقاً فى مجال البنوك، وأنه كان ينتمى إلى الطبقة البرجوازية الألمانية التى رأت فى النداء القومى اليهودى حلماً مستحيلاً، غير أن إغواء الصهيونية قد تمكن من أسرته التى كان عليها أن تبدأ من جديد، ولم يكن أمام والده سوى العمل فى مصبغة متواضعة لتنظيف الملابس بعد أن تراجع مقامه الاجتماعى عمّا كان بكثير.

ومثل أسرة أفنيرى جاءت أسر عديدة لتواجه الصدمة ثم لا تستطيع العودة، وعلى الرغم من أن عدداً كبيراً من اليهود ممن ساءهم تصاعد الحركات القومية الأوروبية وأغرتهم الأفكار المثالية الاشتراكية قد اختاروا الاندماج فى الحركات الاشتراكية الأوروبية.. إيماناً بأن نضال البروليتاريا اليهود يجب أن يكون يداً بيد مع الشعوب المضطهدة وليس خروجاً على بيئاتهم الأصلية.. وأن نشأة الحركة الصهيونية وإقامة إسرائيل لن يحل المشكلة تماماً.. على الرغم من ذلك فإن الدعاية والدعوة كانت تجرى بغير انقطاع.

كانت الدعوة تتجه إلى اليهودى لاقناعه بضرورة الانتماء إلى الحركة الصهيونية والعودة إلى فلسطين من أجل إنشاء الدولة الجديدة، وكانت الدعاية تتجه إلى غير اليهودى لاقناعه بعدالة القضية اليهودية وحق اليهود فى إقامة الدولة.

وحين كانت الدعوة تمضى كانت الدعاية تغطى، وبدلاً من حديث رتيب عن مملكة داوود والتاريخ القديم.. لمعت أحاديث عن الثورة وعن الوظيفة الحضارية.

حتى ليذهب يورى أفنيرى إلى أن "الصهيونية أكثر ثورية من الثورات الكبرى فى

العالم.. من الثورة الفرنسية والبلشيفية والصينية" أما "ليون بلوم" الذى كان من أبرز الداعين للصهيونية فى فرنسا.. فقد ذهب إلى أبعد.. حيث رآها حلقة وصل بين الشرق والغرب وعامل إخصاب بينهما.

وفى عام 1925م ذهب "بلوم" إلى احتفال تدشين الجامعة العبرية ليشرح أكثر: "كان التعامل مع اليهودى يجرى على اعتباره ممثلاً للشرق فى الغرب، أما منذ الآن فإنه يتحول إلى مبعوث الغرب إلى الشرق.. ومن ثم فرض عليه أن يدفع إلى التقارب بين هاتين الحضارتين الكبيرتين.. من أجل اندماجهما فى يوم من الأيام، وليست هناك مدينة أصلح ولا مكان أنسب للالتقاء بين الشرق والغرب أكثر من القدس".

• • •

الواقع.. أن اليهودى لم يكن يوماً ممثلاً للشرق فى الغرب، ولم يصبح يوماً مبعوثاً للغرب فى الشرق. لم يكن هناك دور لأحد حين كانت الصلة قائمة أو مقطوعة بين ضفتى العالم.

كانت العلاقة مباشرة بين الإسلام والمسيحية سواء حين كانت القوة للإسلام فوصل إلى غرب أوروبا فاتحاً شرقها وجنوبها، أو حين كانت القوة للمسيحية فشرع المغامرون فى حروب صليبية احتلت القدس وأرهقت عواصم الإسلام فى المشرق.. وفى الحالتين لا يمكن الحديث عن دور يهودى وسيط

وحين حلّ عصر من الفتور فى العالم وسادت حالة من القطيعة.. "الشرق شرق والغرب غرب".. لم يكن هناك من دور لوسيط أو رسول، ليس فقط لأن الطرفين العملاقين: الإسلام والمسيحية لم يكونا راغبين فى ذلك، بل لأن الوجود اليهودى فى العالم لم يكن مؤهلاً بأى حال لهذا الدور. ولو كان لأحد هذا الدور.. لكانت أسبانيا أولى به، ذلك البلد الذى شهد لقاء الحضارتين الأعظم، والذى لايزال الإسلام فيه ماثلاً بالتاريخ بقدر ما تسكن فيه المسيحية بالجغرافيا.

وأمّا كوْن "الصهيونية" أكثر ثورية من الثورات الكبرى فليس أكثر بؤساً من هذا القول.. فالثورة هى حركة ضد الأخطاء وفى صالح القيم.. هى قول ضد الكذب وفعل ضد

الظلم.. الثورة فى ذاتها ضوء وللآخرين طريق.

ولقد نعمت الثورة الفرنسية بما نعمت به لما مثّلت من قيم الحرية والإخاء والمساواة، وهى قيم فى مجملها أبعد ما تكون عن الصهيونية التى طالما اعتبرها القانون الدولى شكلاً من أشكال العنصرية.

• • •

على أن الداعين للصهيونية لم يكن يعنيهم تماماً ما يرددون.. بل كانت مثل هذه العبارات تلقى هنا وهناك، ثم يكملون سعيهم فى توزيع بطاقات الدعوة إلى كل يهود العالم.. بالاجتماع العاجل فى فلسطين.

لم تمنع حرارة الدعوة وبريق الدعاية اليهود من التفكير فى تلك العودة الغامضة إلى الأرض المجهولة.. ويمكن أن نتلمس آراء عديدة كانت تحذر من الفكرة ومن الداعين لها، ونشرت صحيفة فرنسية ليهود يحذرون من أن "الذى يعطى أذنيه لنزوات هرتزل ويستسلم لاغراءاته بترك فرنسا إلى الأبد.. فقد تخلى بذلك عن كونه فرنسياً ويهودياً فى آن واحد".

أفاض المؤرخ "تيودور يافاخ".. أحد كبار منتقدى الصهيونية من اليهود فى بداية القرن العشرين فى ذكر المأزق الذى تذهب إليه الصهيونية.. فرأى أن المشروع الصهيونى يشكل خطراً كبيراً على اليهود، فهو إما يخيب رجاؤه أو يدركه الفشل، وبعد أن رجح احتمالات الفشل، راح ينتقد الأوهام التى زرعها قادة الحركة فى قلوب آلاف اليهود المساكين الذين صدقوا أنهم يمكنهم الاستيطان بهدوء فى أرض قاحلة وفقيرة المصادر إلى جوار سكان عرب أكثر منهم بكثير.

ولأن العرب لن يوافقوا بأى حال من الأحوال على الطرد أو القمع الذى يمارسه اليهود عليهم، فإنهم سوف يثورون لكى يحافظوا على حقوقهم، وبذلك ستبدأ المذبحة الدموية على أرض فلسطين، وهى الأكثر خطراً من الاضطهاد الذى حل باليهود فى أوروبا، وحتى لو نجح المشروع الصهيونى، فإن نتائجه ستكون مدمرة.. بافتراض أن مليون يهودى سيصلون إلى فلسطين

سيكون عليهم أن يعملوا ضد (700) ألف عربي حتى يُكتب لهم البقاء.

• • •

قد زادت هواجس المثقفين اليهود تجاه احتمالات البقاء، ولم يكن هناك ثمّة أمل من غير الإيمان بضرورة القتال وخوض الحرب.. وحيث لم يكن واضحاً ذلك الطريق الذى يمكن أن ينهي مشكلة اليهود مع العرب، راجت تنظيمات وعصابات العنف.. وذاعت أفكار ما يسمّى بـ "الصهيونية المنطقية" التى بدأت فى القرن التاسع عشر واستمرت فى القرن العشرين لتؤكد استحالة إنجاز الأهداف الصهيونية دون خوض الحروب.

وحاول الجميع أن يلتمس الأعذار لما كان من أمر القتل والتدمير.. على اعتبار أنه لم يكن هناك ثمة طريق آخر مع العرب. ويستعيد الباحث الإسرائيلى "ميخال افيتبول" فى دراسة "الصهيونية والعودة إلى التاريخ" التى نشرها بداية عام 2001م.. ما نشرته مجلة "العالم الإسرائيلى "Universe Israelite في يناير 1897م بشأن هذا التفكير الذى انتهى إلى التدمير.

لقد نسي هرتزل أن يوضح ماذا سيكون مصير السكان العرب القاطنين فى أرض فلسطين، هل سيكون عليهم التخلى عن أماكنهم أمام موجات السكان الجدد والهجرة إلى أرض أخرى أم سيسمح لهم بالبقاء؟ وإذا كان الأمر كذلك.. فما الذى سيكون عليه وضع العرب: هل سيجرى تصنيفهم كأجانب في وطنهم؟.

لو عومل العرب كأجانب وجرى تجريدهم من حقوقهم سيصبح وضعهم مشابهاً للوضع الذى يتطلع هرتزل ورفاقه أن ينقذوا منه يهود أوروبا.

وإذا اعتمد الصهيونيون طريقة أكثر عدلاً ولم يسمحوا بأى ظلم أو تفرقة ما بين السكان الجدد والسكان القدامى، ويصبح الجميع مواطنين متساوين فى حقوقهم السياسية والمدنية والإقتصادية، فإن الصهيونيين سيجدون أنفسهم مضطرين للتنازل عن حلم القومية اليهودية وأساس الدولة اليهودية، ولن يكون أمامهم إلا أن يقيموا دولة عادية، كواحدة من تلك الدول الحديثة التى يعيش فيها معاً مواطنون متساوون من ديانات مختلفة.

وحينئذ.. من يضمن ألا يتحول اليهود بالتدرج إلى أقلية فى مثل هذه الدولة. أليس

من الجنون جلبهم إلى أرض إسرائيل لكي يواجهوا مشكلات وأوضاع مشابهة لتلك التي هربوا من مواجهتها في أوروبا؟

• • •

كانت الحرب هي الحل، والروح العسكرية هي الطريق، وكان على السلاح أن يقدم حلولاً لمعضلات الفكر، وعلى الجنرالات أن يتجاوزوا بقراراتهم قدرات الساسة وخواطر المثقفين.. وحققت الصهيونية نجاحًا يتلوه نجاح.

وفي كل مرة كان سؤال الروح يطرح نفسه من جديد.. حول الهوية والهدف وحول النهاية والمصير. كانت آلة الحرب تخطو إلى أبعد، فتضيف إلى المساحة بدلاً من أن تدخل في جدل الداخل الذي لا ينتهي، أي كانت الجغرافيا باستمرار هي الحل في مواجهة التاريخ.

وبعد أن كانت الصهيونية تمتلك (7٪) من فلسطين عام 1947م، وأعطاها قرار التقسيم رقم (181) الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة (54٪) من الأرض، فإنها استولت على (79٪) من الأرض نتيجة حرب 1948م.. أي على (25٪) إضافة للمساحة التي قررتها الجمعية العامة. ثم كان أن أكملت الصهيونية الاستيلاء على كل فلسطين عام 1967م.

وفي كل هذه المراحل.. وبعدها.. كان هدف المساحة الأكبر من الأرض متوازياً مع هدف العدد الأقل من العرب.

ونجحت إسرائيل في أن تحوز قوة عسكرية كبيرة، غير أن الدعاية كانت تسير خلاف الواقع في أحيان كثيرة..

وكانت الدعاية العربية تسير هي الأخرى خلاف الواقع.. عن قدرة فائقة وخصم ضعيف بحيث بدا لكثيرين من العامة في بلاد العرب.. أن هزيمة إسرائيل أو إلقائها في البحر لا تشكل هدفاً عسير المنال.

ومضت عقود وانتصف قرن ثم طال.. وإسرائيل تمضي أكثر قوة، والأحلام العربية تمضي صوب البحر.

تعامل غير عادي
مع أخطار عادية

لا يمنع المرء نفسه من الذهول.. من ذلك التعامل العربي مع الصهيونية.. فلسفة وحركة. ومن يتأمل تطور الوقائع وصناعة الأحداث في هذا الشأن لا يجد عناءاً في إدراك مدى البساطة الذهنية والتواضع العقلي الذى كان عليه الجانب العربي وهو يرى نشأة عصابة، ثم تأسيس جيش، ثم إنشاء دولة.. تجرى أمام أعينه دون تقدير للتهديدات إلى أن صار التهديد خطراً وصار الخطر كارثة.

ويقرر الباحث العربي "معن بشور" أن العرب، على نحو عام، قد أخفقوا خلال القرن العشرين في كل شيء تقريباً في مواجهتهم للمشروع الصهيوني.

ولقد إنحصر نجاح العرب في أمر واحد هام.. هو صمود مجتمعاتهم في وجه المشروع الصهيوني، وفي مواجهة جميع الضغوط التي سعت إلى تحويله إلى جسم طبيعي في المنطقة، وهو الصمود الذى حشد نفسه لمقاومة ضارية لم تتوقف يوماً واحداً طوال القرن، مما يدل على نجاح العرب في الامتحان التاريخي برغم هزيمتهم في الامتحان العسكري.. أي أننا قد أصبحنا أمام "مقاومة مشروع صهيوني ناجح ميدانياً ومأزوم تاريخياً.. وأمة عربية مأزومة ميدانياً وصامدة تاريخياً".

• • •

والأغلب أن ما يراه "بشور" نجاحاً وحيداً.. يتعلق بأزمة الميدان وقوة التاريخ، ما كان ليعد نجاحاً لولا تهافت الفعل إلى ما وراء العجز.. كانت المعركة تجرى على الأرض، ولهما كانت إسرائيل تعمل طبقاً لقواعد الميدان.. كان الجانب العربي يعمل من هامش التاريخ.. وهو ما يُجملُه الكاتب اللبناني "كريم بقرادوني" بقوله: "كان كلام الأنظمة العربية أكبر من أفعالها، وكانت أفعال الصهيونية أكبر من أقوالها".

وعلى أي حال فقد جاء الفعل بإسرائيل، ولم يعد مجدياً معها القول ولا ممكناً إزاءها الفعل. وعلى أثر هزيمة الفعل والقول معاً.. صار الخطاب خارج الرغبة، وصار

القتال خارج القدرة.

لقد دفعت هذه الحالة بعدد من المثقفين لإعادة النظر فيما كان، ويذهب "محمد السيد سعيد" - في ذلك - إلى القول بأن التصدى العربى للمشروع الصهيونى منذ البداية كان حافلاً بالأخطاء.. وفي مقدمتها.. ذلك الخلط بين الحق والواقع.. أو بين مبادىء الاستحقاق القانوني والسياسة العملية، وهنا.. كان من الخطأ إنكار الواقع والاستمرار فى سياسة عدم الاعتراف، حيث كان ينبغي أن تقوم السياسة البديلة على تبادل الاعتراف مع موقف بعيد المدى ينهض على فكرة الاستيعاب والتفتيت للمجتمع الإسرائيلى تمهيداً لتغليب الهوية والثقافة على المدى الطويل، وبالتالى إلحاق الهزيمة بجوهر المشروع الصهيوني.. فى هذا السياق، كان ينبغى المزج بين الحق والواقع..

"كانت هناك مبالغة فى تقدير مكانة العنف فى إطار إستراتيجية عربية للتحرير، وبهذا قمنا بتغليب عوامل القوة فى مقابل عوامل الحضارة والثقافة، فكان تركيزنا على أضعف ما فينا.. في مقابل إهمال أقوى ما فينا".

• • •

الناتج من هذا القول أن الخطأ كان ماثلاً فى اختيار صاخب للعنف دون قتال، واختيار غامض للقول دون نجاح.

وعلى الجانب الآخر.. كان القول والفعل يسيران بخطى واسعة.. ومتوازية، ولم يكن هناك مجال واسع للخلط أو الخطأ.. فقد كانت الأفكار الغربية وتطبيقاتها هى الإطار الحاكم لما يجرى.

وطبقاً للباحث الفلسطينى "إبراهيم أبولغد"، فإن المشروع الصهيونى قد نجح فى تحقيق أهدافه الإستراتيجية - بغض النظر عن عدم مشروعيتها - لأن أنصاره كانوا ينتمون إلى النموذج الغربى المتقدم إذا ما قورن بالنموذج العربى.. "لقد طبقت إسرائيل قواعد الحداثة الغربية بحذافيرها فى حين اكتفى المشروع العربى بالقشور".

• • •

وإذا كانت الحداثة هي خيار الداخل في إسرائيل، فإن الخارج لم يكن بعيداً عنها، كانت النفعية أساس علاقة إسرائيل بالقوى الدولية، وكانت رهانات الحركة الصهيونية على الحليف الدولي متوافقة مع حركة التاريخ.

ويحدد "لطفي الخولي" نهاية الحرب العالمية الثانية عام 1945م بداية للتفكير في رهانات المستقبل، حيث اقتحم جدول أعمال الحركة الصهيونية سؤال هام: هل تظل أوروبا هي الحليف الأساسي لإسرائيل أم بات من الضروري الانتقال إلى حلف جديد هو الولايات المتحدة الأمريكية؟

ولم تُحسم إجابة هذا السؤال إلا عام 1956م عندما أشعلت إسرائيل، بالتحالف مع بريطانيا وفرنسا، العدوان الثلاثي على مصر بعد تأميم الأخيرة لقناة السويس. ورغم أن التحالف حقق انتصاراً عسكرياً.. باحتلال سيناء وإغلاق القناة، إلا أنه فشل سياسياً فلم يستطع الحليف الأوروبي أن يوظف الانتصار العسكري سياسياً، وألزمت الولايات المتحدة رئيس الوزراء الإسرائيلي ديفيد بن جوريون بالجلاء الفوري غير المشروط عن سيناء.. ومنذ ذلك أفل نجم بن جوريون، "وحُسمت مسألة انتقال الحليف الدولي الأساسي لإسرائيل إلى أمريكا".

ومع اختيار الولايات المتحدة حليفاً أساسياً لإسرائيل، اتجهت الأنظار صوب اليهود الأمريكيين الذين كان عليهم أن يبدأوا مسيرة ناجحة نحو التعاون ثم التحالف الذي يقارب الاندماج.

لقد وصل نجاح النموذج الإسرائيلي للممارسة السياسية.. من الحداثة في الداخل إلى التحالف مع الولايات المتحدة والتأثير عليها في الخارج.. إلى دعوة البعض للتأسي بهذا النموذج، حتى ليذهب "بهجت قرني" إلى التساؤل هل نحن بحاجة إلى صهيونية عربية؟!

ثم يمضي شارحاً: أعني بذلك تعبئة كل الموارد وخاصة الموارد الخارجية في تحقيق الأهداف القومية، حيث لم تنجح الصهيونية إلا بالتخطيط والتنسيق مع الواطنين والمريدين خارج الحدود.. ولم تستطع خوض الحروب المتعاقبة إلا بهم، ليحسّنوا صورتها ويضمنوا

النجاح لسياستها.

ويمثل إسهام الجماعات الصينية الخارجية فى تنمية وطنهم الأم فى الصين نموذجاً مشابهاً، وهو نموذج قابل للتطبيق فى الحالة العربية.. حيث يزيد عدد الأمريكيين العرب عن الاثنين ونصف المليون مواطن إضافةً إلى نصف مليون آخر فى كندا.

وعلى أى حال.. فقد نجحت الصهيونية اليهودية بالحداثة فى الداخل والنفعية فى الخارج، وكان التعامل العربى مع تطورات المشروع الصهيونى تعاملاً دون التاريخ.. وربما دون اللحظة.

وكان طبيعياً إزاء فشل الفعل وتهافت القول.. وتطور الخريطة السياسية الدولية على غير صالح العرب، أن تبدأ مسيرة أطول ومرحلة أصعب.. من تسوية لم تتم وسلام قد لا يجىء.

• • •

جاءت نكبة 1948م.. ثقيلة أليمة، وبعد أن كانت المشكلة الصهيونية لا تلقى الإهتمام الكافى، والشخصية اليهودية لا تنال الإكتراث اللازم.. استيقظ الوعى العربى على حقيقة دامية.. على دولة وجيش ونظام، وعلى قادة وجنود وسلاح. وأصبح العرب أمام عدو كامل النمو. واتسعت مساحة الإحباط وتفاقمت هواجس القلق.. ومع الإحباط ضعفت الثقة ومع القلق بدأ الغضب.

وكانت ثورة 23 يوليو 1952 وما تلاها من موجات غضب واسعة تحولاً كبيراً فى مسيرة العالم العربى منذ إنتصاف القرن. وكانت إسرائيل محور الحركة ورفيقة الطريق، حيث لم يخلو خطاب ولا سلوك من الإهتمام بها نقداً ونقضاً.. ووعيداً.

ومضت الأحداث لتكشف عن مفارقة بازغة.. ذلك الانشغال بها على مستوى الفكر وذلك الانشغال عنها فى مستوى الواقع. وكانت النتيجة القاصمة لذلك الانشغال الزائف بإسرائيل.. ما جرى فى عام 1967م من إنهيار لايزال غباره يلف الشرق الأوسط وهكذا أضيفت النكسة إلى النكبة لتتعمق الهزيمة فى العقل العربى.

ولم يعد أمام الذين كانوا يتطلعون لإزالة آثار النكبة فإنا هم عاجزون عن استيعاب وقائع النكسة إلا أن يعيدوا النظر في أنفسهم وفي بلادهم وفي المستقبل الذى اختفى من العيون.

• • •

هنا بدأ التفكير في مشروعات للتسوية، وبدلاً من نصر حاسم توقف الأمل عند خسارة ثابتة لاتزيد. وبعمق الأزمة التى واجهها المصريون والعرب داخل بلدانهم وخارجها كانت مشاعر الخيلاء قد تمكنت من يهود العالم خارج إسرائيل بعد أن صارت الأرض الموعودة بالإمكان.

ويرصد المؤرخ اليهودى "بول بريننز" في كتابه "يهود أشدّاء" الذى صدر عام 1990م.. ذلك التغير الهام الذى حدث بعد 1967م عند اليهودى الأمريكى، حيث كان اليهود الأمريكيون يصورون أنفسهم في الأفلام والكتب والمجلات باعتبارهم يتصفون بالحكمة والإعتدال، ومولعين بالكتب وواسعى الثقافة، غير أنه بعد 1967م تغير ذلك بشكل درامي.. فقد بدأ اليهود يصورون أنفسهم كقتلة وخارجين على القانون.

ويطلق "بريننز" عليهم وصف "رامبوفيتز" أى رامبو اليهودى. وعلى الصعيد الثقافى أصبحت المؤسسات تروج لهذه القيم الإستعلائية، حيث يمكن العثور على كل أنواع كراهية العرب في مجلات تحظى باحترام واسع مثل "ذى نيو ريببليك" و"كومينترى" و"ميدستريم"، وحتى فى "تيكون" الليبرالية وهى مجلات يساهم فيها كتاب بارزون يحتلون موقع الصدارة فى الثقافة الأمريكية، وكلها تنشر أفكاراً لا تختلف كثيراً عن أفكار "مائير كاهانا".

• • •

وهكذا.. كان الضمور يمارس أثره في النفس العربية وكان الإنتفاخ يوالى فعله في النفس اليهودية، وما بين الضمور والإنتفاخ كان الطرفان يعيدان حساباتهما، طرف يفكر في التراجع وآخر يسعى للمزيد.

وكان طبيعياً - والحال كذلك - أن يصبح خيار التسوية عند العرب أقرب للقبول

ولدى إسرائيل أقرب إلى الرفض، وبعد أن كان على إسرائيل بعد النكبة أن تبذل الكثير حتى يتحرك العرب صوب التسوية، كان على العرب بعد النكسة أن يبذلوا المستحيل حتى تتحرك إسرائيل فى عملية السلام.

وبرغم الانتصار الكبير الذى تحقق عام 1973م، فإن تداعيات النكبة والنكسة لم تقطعها إنجازات الحرب وبريق الانتصار، فبعد قتال عظيم ونصر مجيد، جاءت النتائج السياسية لتضع الحرب فى إطار أكثر ضعفاً وأطفأ بريقاً.. ولتصبح المعركة بكاملها دافعاً للحركة نحو التسوية.

• • •

جاءت التسوية بآراء عديدة وأفكار جديدة، وشاع الحديث عن صلة القربى بين العرب واليهود، وعن الوحدة الإبراهيمية بين الإسلام واليهودية، وعن المشكلة النفسية بين العرب واليهود، وكتب "هيربرت كيلمان" الأستاذ فى جامعة هارفارد عن الحاجز النفسى، وعن أن الصراع على فلسطين لم يكن فى الأساس صراعاً حقيقياً أو مادياً بل كان نتيجة سوء تفاهم نفسى يمكن تجاوزه.

والواقع.. أن فكر التسوية كان وليد النكسة، وأن نبوعه وقبوله كان الأثر المباشر لها، والواقع أيضاً.. أن الرغبة فى التسوية جاءت متزامنة ولأسباب مختلفة لدى الجانبين، فالنكسة بما أتت لإسرائيل جاءت فرصة ذهبية للتسوية فى ظلال الانتصار، والنكسة بما أخذت من العرب جاءت عملية ضاغطة للتسوية فى ظل الإنكسار.

وكم هو مدهش ألا يلحظ المرء مشروعات تسوية ظاهرة قدمتها إسرائيل قبل عام 1967م، ثم يرى فيضاً منها تتابع فى غير إنقطاع بعد ذلك العام.

• • •

يعرض "أسعد عبد الرحمن ونواف الزرو" فى كتابهما "الفكر السياسى الإسرائيلى" الصادر عام 1990م مشروعات التسوية الرئيسية التى طرحتها إسرائيل بعد النكسة.

ويذكر المؤلفان أن "ديفيد بن جوريون" كان أول من طرح أفكاراً حول منح السكان

الفلسطينيين فى الأراضى المحتلة حكماً ذاتياً يديرون شئون حياتهم فى إطاره، وذلك بعد أن وضعت حرب يونيو أوزارها بأسبوعين.. وقد وضع المشروع مدينة القدس فى حدود دولة إسرائيل وكذلك قطاع غزة، على أن يجرى توطين اللاجئين الفلسطينيين فى الضفة الغربية، وفيها يتم اختيار ممثلين للتفاوض معهم حول الحكم الذاتى.

* * *

ثم كان مشروع الجنرال "ايجال آلون" أحد أبرز شخصيات حزب العمل.. والذى انصب على ضرورة التخلص من المدن والمراكز الحضرية السكانية وإعادتها إلى الأردن، والتمسك ومواصلة السيطرة على الأراضى الواسعة الخصبة فى الأغوار وشمال الضفة الغربية ومناطق واسعة من ريف المدن الفلسطينية.

وطبقاً للمشروع.. فإن الحدود الأمنية لإسرائيل تمتد على طول نهر الأردن ومنتصف البحر الميت وصولاً إلى حدود الإنتداب التى تمر فى وادى عربة. وفيما يتعلق بالسكان الفلسطينيين، فقد دعا المشروع إلى تشجيع زعماء الضفة لإقامة إطار الحكم الذاتى إلى جانب التعاون الإقتصادى، إضافة إلى احتمال وجود معاهدة دفاع مشترك، وتعاون علمى وثقافى بين الطرفين. وفى عام 1970م عاد آلون وعدّل المشروع وأخرج غزة من حدود إسرائيل.

* * *

وبعد "ايجال آلون" جاء "موشى دايان" وزير الدفاع ووزير الخارجية الإسرائيلى الأسبق.. وهو أول من قال بتقاسم السيادة بين الأردن وإسرائيل عن طريق الأمر الواقع.. أى تعتبر الأرض جزءاً من إسرائيل وتحت سيادتها، فى حين يترك للسكان المقيمين عليها التمتع بالجنسية الأردنية كرعايا ومواطنين أردنيين.. أى اقتسام السيادة. السيادة على الأرض تختص بها إسرائيل والسيادة على السكان تكون من نصيب الأردن باعتبارهم مواطنين أردنيين.

ومعنى ذلك أنه إذا كان مشروع "آلون" يريد أكبر قدر من الأرض بأقل قدر من السكان، فإن دايان أراد كل الأرض مع فصل كل السكان، باعتبارهم مواطنين أردنيين

يخضعون للأجهزة وللقوانين الأردنية.

• • •

بعد "دايان" جاء "شيمون بيريز"، وبالقدر الذى ينسب فيه "الحل الإقليمى" مع الأردن إلى ايجال آلون. و"الحل الوظيفي" أى تقسيم السيادة إلى موشي دايان.. فإن حل "الإدارة الذاتية" ينتسب إلى شيمون بيريز، فقد انتهز بيريز زيارته لبلدة "بيت جالا" فى الضفة الغربية فى أكتوبر عام 1975م ليقول: "إن الظروف قد نضجت لمنح الضفة الغربية حكماً ذاتياً". واستهدف بيريز من ذلك خلق "إدارة ذاتية" تقبل أن تكون بديلاً لمنظمة التحرير الفلسطينية وتقويض مشروعها لإقامة دولة فلسطينية مستقلة.

• • •

فى عام 1977م وصل الليكود إلى الحكم فى إسرائيل، وتوقع الكثيرون أن يعلن "مناحم بيجن" ضم الضفة وغزة رسمياً وعندما سأله أحد الصحفيين: ما مصير الأراضى المحتلة ؟ أجاب: "أراض محتلة ؟.. أية أراض محتلة؟ لعلك تقصد يهودا والسامرة لقد تم تحريرهما وعادتا جزءاً من إسرائيل".

ولكن بيجن واجه مشكلة النمو السكاني للفلسطينيين.. فطرح مشروعاً للحكم الذاتى أمام الكنيست فى 28 ديسمبر 1977م. واقترح الشروع إلغاء الحكم العسكرى فى الضفة وغزة، وإقامة حكم ذاتى إدارى للسكان العرب بواسطة المقيمين.

وينتخب السكان مجلساً إدارياً مدته أربع سنوات مقره فى بيت لحم وله جميع المسائل الإدارية المتعلقة بالسكان العرب، ويُمنح السكان حق الاختيار بين الجنسية الإسرائيلية والأردنية، ويُعهد بشئون الأمن والنظام العام إلى السلطات الإسرائيلية.

ويرى بعض المحللين أن مشروع الحكم الذاتى للضفة وغزة الذى طُرح أثناء مفاوضات "كامب ديفيد" قد استند إلى مشروع مناحم بيجن.

• • •

ثم جاء "آرييل شارون" حيث وافقت الحكومة الإسرائيلية على مشروعه الداعى إلى إجراء حوارات مع الرموز الفلسطينية المعتدلة، وإيجاد قيادات بديلة عن منظمة التحرير، وإيجاد وطن بديل فى الأردن أو لبنان.

وقد رفض "بسام الشكعة" رئيس بلدية نابلس، و"كريم خلف" رئيس بلدية رام الله، و"رشاد الشوا" رئيس بلدية غزة ذلك المشروع وأعلنوا وقوفهم خلف منظمة التحرير الفلسطينية وهدف الدولة المستقلة.

• • •

طيلة النصف الأول من الثمانينات لم تقدم مشروعات جديدة إلى أن اندلعت الإنتفاضة الفلسطينية فى 9 ديسمبر 1987م، ولقيت نجاحاً فى أحداثها وآثارها، وكان "يعقوبى" وزير الاتصالات الإسرائيلى وأحد زعماء حزب العمل أول من اعترف بالتأثير المتزايد للإنتفاضة على الإقتصاد الإسرائيلى، فقدم مشروعاً عام 1988م يتضمن التفاوض مع الفلسطينيين الذين يقبلون الشروط الأمريكية.

• • •

دعا يعقوبى إلى إتحاد كونفيدرالى أردنى - فلسطينى يكون منزوع السلاح وتحت سيطرة إسرائيل، على ألا تكون القدس موضوعاً للحوار. وفيما ستستمر المستوطنات، فإن الجيش سيبقى منتشراً على طول نهر الأردن.. برغم القبول بفتح معابر وإقامة علاقات طبيعية بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية.

وقريباً من ذلك قدم "بنيامين بن اليعازر" عضو الكنيست الإسرائيلى مشروعه عام 1989م.

وجاءت خطة "بيريز" فى نفس العام لتقول بحلّ على نمط دول البنلوكس.. أى إقامة ثلاثة كيانات مرتبطة بإتحاد فيدرالى أو كونفيدرالى، وتشترط الخطة وجود جيشين فقط.. إسرائيلى وأردنى لحماية الكيانات الثلاث وتجريد الضفة والقطاع من ذلك تماماً.

• • •

لم يمض عام حتى تنجرت الأوضاع فى منطقة الخليج العربى واندلعت الحرب فى يناير عام 1991م، وكان من بين ظروف الحرب وربما شروطها أن تتوجه الولايات المتحدة صوب فلسطين عازمة على تسوية تكون ختام التسويات.. أو سلام ينهى كل سلام.

مفاوضات سلام

تمضى من غير سلام

بدا المشهد الإفتتاحي لعملية التسوية.. في خريف 1991م صاخباً ومشوقاً، فقد قام وزير الخارجية السوري "فاروق الشرع" بوضع صورة "اسحق شامير" حين كان إرهابياً ينتظم في العصابات الصهيونية أمام عدسات التصوير العالمية.

وقد زادت دوافع التشويق بعد إنفصال الوفد الفلسطيني عن الوفد الأردني الذي كان جزءاً منه، ثم ما كان متجدداً باستمرار من استقالات في صفوف منظمة التحرير الفلسطينية وفي وفد المفاوضين، ومن إعتراضات المنظمات الفلسطينية العشر على اتفاق "غزة - أريحا أولاً" وما تلاه من مراحل التسوية.

وجاء إعلان اتفاق أوسلو بعد مفاوضات سرية جرت بين الفلسطينيين والإسرائيليين برعاية من عرفات ومن حكومة إسرائيل.. مناسبة أخرى للجدل والإستقطاب وإحياء مفاهيم الخيانة والنضال بعد طول غياب.

لقد أسفر الإعلان في أوسلو عن التوصل لاتفاق بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل عن غضب واسع.

وبالتوازي مع ما أعلنه "حيدر عبدالشافي" رئيس الوفد الفلسطيني المفاوض عن رفضه التوقيع على الاتفاق لأنه لا يعالج إحتلال إسرائيل للأراضي المحتلة، وهو نفس الموقف الذي اتخذه "فاروق قدومي" رئيس الدائرة السياسية في المنظمة، أعلنت عشر منظمات فلسطينية معارضتها الاتفاق وكانت حركة حماس في مقدمة المنظمات العشر.

رفضت حركة "حماس" الاتفاق على أساس أن الوفد الفلسطيني المفاوض (سراً وعلانية) لا يمثل إلا نفسه، وأن المقاومة المسلحة وكافة أشكال الكفاح ستبقى كما هي وربما تزيد، على إعتبار أن الحكم الذاتي لا يصلح حتى كبداية لنهاية الإحتلال الإسرائيلي لفلسطين.

ودعت "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" بزعامة "جورج حبش" والتي تمثل

الفصيل الثاني ضمن فصائل منظمة التحرير إلى عقد مؤتمر شعبي في الأراضي المحتلة لإختيار قيادة جديدة لمنظمة التحرير بدلاً من عرفات.

وأما "الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين" بزعامة "نايف حواتمة" والتي تمثل الفصيل الثالث في منظمة التحرير فقد عارضت الاتفاق ورأت في الشرطة الفلسطينية المقترحة أداة للقمع داخل غزة وأريحا.

وعارضت "الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة" بزعامة "أحمد جبريل" والمنشقة على منظمة التحرير الاتفاق وهددت بإغتيال عرفات.

وهو الموقف ذاته الذي اتخذته "جبهة الإنقاذ الفلسطينية" بزعامة "خالد الفاهوم"، وهي جبهة فلسطينية مكونة من أربع منظمات متحدة، حيث رأت الجبهة أن الاتفاق يناقض حق تقرير المصير وإقامة الدولة، وأنه حتى لو امتد إلى نابلس وجنين وبيت لحم والخليل في الضفة الغربية فستكون بلديات وليس حكومة، وهذه المدن مفصولة بمستوطنات عن بعضها ومفصولة عن القدس.

إضافة إلى ذلك، فإن الاتفاق جعل ملايين الفلسطينيين في الشتات غير فلسطينيين وليس لهم حق العودة إلى وطنهم.

وقريباً من هذا التبرير قدمت "جبهة النضال" بزعامة "أبوفادى الشمال"، و"جماعة أبونضال"، و"الإتحاد الإسلامي للفلسطينيين" وهو إتحاد إسلامي يشمل الأمريكيين من أصل فلسطيني ومقره واشنطن، و"جبهة التحرير العربية" وهي منظمة فلسطينية موالية للعراق أثناء حكم صدام حسين وكانت تتخذ من بغداد مقراً لها - حيثيات رفضها الاتفاق.

وأما "حركة الجهاد الإسلامي - بيت المقدس" التي يتزعمها "أسعد التميمي" فقد أعلنت أن الاتفاق باطل شرعاً، وسحبت ممثليها من المؤسسات الفلسطينية المرتبطة بالمنظمة، وترى الحركة أن أرض فلسطين تمتد من النهر إلى البحر (نهر الأردن - البحر المتوسط).

وقد انشقت عنها في عام 1990م "حركة الجهاد الإسلامي - كتائب الأقصى"

بزعامة "عبدالله الأسود". والمنظمة الأخيرة ومعها "منظمة الحركة الإسلامية في فلسطين 1948م " بزعامة "الشيخ عبدالله نمر".. أيدتا الاتفاق.

• • •

كان هجوم هذه المنظمات العشر ومعها مفكرين وساسة عرب في كل مكان.. قاسياً وضارياً.. وعلى الرغم من إبهار الصورة التي كانت تحملها آلات التصوير، بلا إبطاء، عن القادة الفلسطينيين والإسرائيليين والرعاة الأمريكيين، فإن جانباً كبيراً ظل يكذب الصورة وينفي الخبر ويستبعد أن يعود عرفات إلى الأراضي المحتلة أو أن تنشأ سلطة فلسطينية تتفاوض على قيام الدولة.

كان البعض يفعل ذلك لرغبة نفسية في عدم التصديق بعد ربع قرن من تداعيات الهزيمة التي اشتعلت معاركها في 1967م وبقيت آثارها تضغط على الوعي والفعل معاً، وكان آخرون يصدقون المشهد بمفرده ولديهم أحاسيس تقارب اليقين بأنه مشهد متفرد ومناسبة وحيدة واتفاق لن يتجاوز الاحتفال.

غير أن النخبة المثقفة كانت على رأى ثالث.. هو تصديق المشهد وتكذيب الرسالة، وكان تقدير هؤلاء أن عرفات يسرع في السقوط وأن الاتفاق هزيمة بغير حرب ونهاية بائسة لنضال عظيم. وفي مقدمة هؤلاء برز المفكر الفلسطيني "إدوارد سعيد" غاضباً.. رافضاً.. ناقماً على المشهد ومن فيه.

• • •

يعدّ "إدوارد سعيد" المفكر الفلسطيني الأكثر شهرة وحضوراً في عصر التسوية، وقد ظهر بمثابة المعادل الثقافي لياسر عرفات، كان "عرفات" مضغوطاً بضيق البدائل وصعوبة الحركة وتقدم العمر.. وكان "سعيد" منفعلاً بضعف البدائل ورعونة الحركة وإنكسار العمر.

لقد جثم العمر على التاريخ، وبدا كلاهما أسير الإحساس الخاص بقرب الآخرة ونهاية التاريخ. وتعامل "عرفات" على إعتبار أنه الحل الأخير الذى لا يجوز معه تأخير

ولا تأجيل، وتعامل "سعيد" على أنه الخطأ الأخير الذى لا يجدى معه إصلاح ولا تعديل. وبينهما تعاقبت أفكار ومواقف بألوان الطيف تتفاوت في المدى وتتباين في الرؤية.

أجْمَل "إدوارد سعيد" - الذى تعلم فى كلية فيكتوريا بالإسكندرية ودرس فى جامعتي برنستون وهارفارد بالولايات المتحدة وعمل أستاذاً بجامعة كولومبيا -[1] رؤيته الرافضة لاتفاق غزة - أريحا في كتابه "غزة - أريحا.. سلام أمريكي" الذى قدمه "محمد حسنين هيكل" ونشرته دار المستقبل العربى فى القاهرة عام 1994م.

يعتبر "إدوارد سعيد" يوم 13 سبتمبر 1993م - تاريخ توقيع الاتفاق يوم الحداد القومى الفلسطينى.. فقد فرطت منظمة التحرير فى حق تقرير المصير وفى القدس واللاجئين، وتم تقسيم الشعب الفلسطينى إلى جزء داخل الأراضى المحتلة يتم التعامل معه في إطار عملية السلام، وآخرين يمثلون (55٪) من الفلسطينيين تتجاهلهم عملية السلام.

لقد ذهب الجانب الفلسطيني للتفاوض على اتفاقية ملزمة دولياً دون أن يأخذ معه مستشارين أكفاء، وكانت حفنة المفاوضين السريين تنقصهم الدراية والحكمة ولم تكن لديهم خرائط تفصيلية ولا معرفة جادة بالأرقام والحقائق، ولا إلماماً حقيقياً بطبيعة إسرائيل.

وقد عانت منظمة التحرير من انعدام الكفاءة الفنية بعد أن قبلت التفاوض باللغة الإنجليزية التى لا يعرفها عرفات ولا مبعوثه فى أوسلو، ودون مستشار قانونى بعد أن استقال المفاوضان القانونيان الرئيسيان للمنظمة احتجاجاً على ما كان يجرى. ولم يبق غير عرفات ومرؤوسيه في مواجهة طاقم كامل من خبراء وزارة الخارجية الإسرائيلية.

ويصف "عاموس عوز" المحسوب على تيار السلام فى إسرائيل الاتفاق بأنه "ثانى أكبر انتصار في تاريخ الصهيونية"، فيما يصفه "إدوارد سعيد" بأنه "فرساى فلسطينية"، بدا فيها كلينتون وكأنه إمبراطور رومانى يسوق ملكيْن تابعيْن نحو حظيرة الوفاق والخنوع.

ويزيد "سعيد" فى نقد عرفات - شخصاً وأداءاً - ليخلص إلى أن الفلسطينيين كشعب

خسر المعركة.. والأليق له أن يعترف بالهزيمة وإعادة البناء بدلاً من المباهاة الفارغة.

يقول "إدوارد سعيد": لم يسبق لعرفات أن شاهد في حياته مستوطنة إسرائيلية، والآن توجد (200) مستوطنة أغلبها في التلال والمناطق الإستراتيجية في غزة والقطاع، ومساحة الأرض الفعلية لهذه المستوطنات بالإضافة إلى المساحات المخصصة للمصادرة تزيد على (55٪) من مساحة الأراضي المحتلة كلها.

وفي غزة تشكل الـ (3) مستوطنات في الشمال، (2) في الوسط، (12) في الجنوب.. على طول الخط الساحلي من الحدود المصرية مروراً بخان يونس (30٪) من مساحة القطاع، وتستنفذ إسرائيل الآبار في الضفة وتستهلك (80٪) منها. وللأسف.. فإن المعلومات المتعلقة بالمستوطنات والأراضي والحياة كلها بين يدي إسرائيل.

لقد صارت الضفة والقطاع بأكملهما مقسمتين إلى عشرة كانتونات أو أحد عشر كانتوناً، تعبرها ممرات تبدأ من القدس وتتجه إلى الشرق والجنوب لإقامة المستوطنات والطرق.. وكلها تسيطر عليها إسرائيل.

وينقل "إدوارد سعيد" عن الخبير الهولندي "يان دي يونج" فكرة إسرائيل في إحاطة القدس بحلقتين من المستوطنات متحدتي المركز.. الحلقة الأولى تضم مستوطنات (راموت ونيف ياكوف وتالبيوت وجيلو).. والحلقة الثانية تضم مستوطنات (رخس شوجات وهارحوماه) ويشكل ذلك من حيث المساحة معظم وسط الضفة الغربية من بير زيت في الشمال حتى ضواحي الخليل في الجنوب، ولن تواجه إسرائيل أية تحديات تذكر في نطاق هذه المساحة الكبيرة.

ويقترح البعض في إسرائيل بناء مدينة جديدة تتسع لما يقرب من (300) ألف نسمة تسمى "القدس" وراء نطاق الحلقتين المشار إليهما، ويقضي الاقتراح بإعطاء المدينة الجديدة للفلسطينيين بدلاً من القدس الحقيقية.. ويرى "دي يونج" رداً على ذلك أن يعتبر الفلسطينيون أنفسهم جزءاً من وحدة أكبر لا تكون القدس فيها محصورة في شارعي صلاح

الدين والسلطان سليمان، وإنما تكون مدينة تمتد من "العازرية" إلى منطقة "بيت حنانيا - شعفاط" حيث يمكنهم أن يفكروا في إيجاد فرصة للتنمية هناك.

• • •

وإذا كان هذا هو الحال بشأن القدس والمستوطنات فإن الحال في شأن اللاجئين لا يقل بؤساً وخطراً.. حيث يقدر إدوارد سعيد أن (50٪) من الفلسطينيين يقيمون بالخارج، (350) ألفاً يقيمون في لبنان، وضعفهم في سوريا، وكثيرون في دول أخرى.. وترفض لبنان كما ترفض بلدان أخرى منح اللاجئين الفلسطينيين الجنسية.

إن هؤلاء جميعاً لم يتم الاتفاق بشأنهم، ولا يمكن أن يخطر على بال أحد أن يرغب جميع اللاجئين الفلسطينيون منذ 1948م في العودة إلى رقعة صغيرة من الأرض كالتي يقترح أن تقام عليها الدولة الفلسطينية، ولكن ما لا يمكن قبوله أيضاً هو أن يطلب منهم أن يقبلوا بـ "إعادة توطينهم" في أماكن أخرى أو أن يتخلوا عن آمالهم بشأن عودتهم.

• • •

وفي حال الداخل.. تصف "سارة روى" في دراسة هامة عنوانها "تحليل مسحي لقطاع غزة" حالة البؤس التي عليها الناس والحياة.

و"سارة روى" هي يهودية أمريكية.. زارت غزة ولها أقارب في إسرائيل، على أنها سرعان ما اكتشفت حجم المأساة الفلسطينية فعكفت على فهمها والمساعدة في حلها، وتطوع زوجها الطبيب للعمل في المستشفى الأهلي.. أكبر مستشفيات غزة، وهي واحدة من أهم الباحثات في أحوال قطاع غزة.

تذكر الباحثة أنه في عام 1993م - حيث جرى الاتفاق - كانت نسبة البطالة في غزة (50٪)، وفي الضفة (35٪)، وعندما أعلنت وكالة غوث اللاجئين التابعة للأمم المتحدة عن حاجتها إلى (8) زبالين تقدم لشغل الوظيفة (11655) شخصاً. وفي حين لا

يرغب سكان الضفة فى ربط مصالحهم بغزة فإن اللجان التى شكلتها السلطة الفلسطينية لحل المشكلات لا تفعل شيئا، وأما المجلس الإقتصادى للتنمية والإعمار الذى أنشأته منظمة التحرير فلا يتمتع بالمصداقية لدى الجهات المانحة.

• • •

يواصل إدوارد سعيد: إن عرفات لم يفعل شيئاً من أجل ذلك.. لكنه دخل إلى غزة ومعه (6) أجهزة استخباراتية لابد أن لها صلة بالموساد والشين بيت تقدم تقارير إليهما، وبعض المواطنين لاقوا حتفهم من التعذيب، وتم إغلاق بعض الصحف، وتعرض معارضو عرفات لملاحقات أجهزة الأمن.

كما أن إختيار عرفات لرجاله قد مثّل إهانة سافرة لكل الفلسطينيين.. فالمسئول الأول عن الأمن والمخابرات هو نفسه سفير المنظمة فى تونس ومكاتبه ومقاره كانت مخترقة من قبل الموساد، والقائد العسكرى لأريحا كانت المحكمة العسكرية قد قضت بادانته بتهم الجبن والهروب من الميدان عندما فرّ من جنوب لبنان إبان الغزو الإسرائيلى للبنان عام 1982م. هذا غير أنباء الفساد المالى وكثرة المصابين القادمين من كل مكان.

وينقل "إدوارد سعيد" عن "شفيق الحوت" الذى استقال مع "محمود درويش" من اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية أن عرفات أصبح أوتوقراطياً وإدارته المالية تحولت إلى كارثة، وهو ليس مسئولاً أمام أى أحد.. وهو وحفنة صغيرة من الأشخاص يتخذون قرارات تخص (6) مليون فلسطينى.

• • •

بالتوازى مع فقدان الثقة فى عرفات، تتفاقم أزمة الثقة فى الولايات المتحدة التى تعرض نفسها وسيطاً نزيهاً فى الصراع. فقد أغدقت الحكومات الأمريكية خلال السنوات العشرين الأخيرة أكثر من (80) مليار دولار من أجل أمن إسرائيل. هذا الدعم هو الذى مكّن من غزو لبنان أكثر من مرة، ومكّنها من الاستمرار فى إحتلالها للأراضى العربية، وأبطلت

لها مفعول (29) قرار تندد بإسرائيل.

ثم إن "مارتن إنديك" و"دينيس روس" هما العقلان المدبران وراء سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط خلال معظم مراحل التسوية.

و"انديك" يهودي استرالي عمل في "معهد واشنطن لسياسات الشرق الأوسط" وهي مؤسسة أبحاث مرتبطة باللجنة الإسرائيلية - الأمريكية للشئون العامة "إيباك" وباللوبي الصهيوني وبحزب الليكود، وقد أعطي الجنسية الأمريكية أوائل عام 1993م قبل أيام من تعيينه في مجلس الأمن القومي وإدخاله إلى البيت الأبيض.

كما أن "دينيس روس" يهودي هو الآخر وقد عمل أيضاً في نفس المعهد الوثيق الصلة بالليكود وفيما اختفى كل الخبراء أصحاب الآراء المضادة وحتى الدبلوماسيين المحترفين أمثال "ريتشارد ميرفي" و"هارون سوندرز"... فإن إنديك وروس يعملان بجِدّ من أجل إسرائيل.

• • •

يعرض "إدوارد سعيد" ختام رأيه في الحرب والسلام فيقول: "لقد كنت عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني منذ 1977 إلى 1991، وقد أعطيت صوتي في دورة المجلس الفلسطيني التي انعقدت في الجزائر عام 1988 لصالح حل القضية الفلسطينية على أساس وجود دولتين.

إلا أنني رأيت منذ 1991 الأسلوب الذي يتم به إهدار المكاسب التي حققتها الإنتفاضة، وقبول عرفات وحفنة من مستشاريه ما تمليه واشنطن، وقد أدت السياسات الخاطئة لمنظمة التحرير إبان أزمة الخليج والإدارة غير الرشيدة للأموال وللأصول الفلسطينية إلى هذا التحول.. لقد فرطت المنظمة في كل شيء".

"إن الصراع لا يمكن حله حلاً عسكرياً محضاً، فأنا أؤمن بتصالح الشعوب، لكنه لا يمكن أن يتم قسراً، كما أنه لا يتحقق أبداً بين مجتمعات وثقافات تتفاوت قوتها بشدة

ويسيطر بعضها على البعض الآخر بالقوة.. لقد نجحت إسرائيل فى اقناع العرب والقيادة الفلسطينية بأن المساواة مع إسرائيل أمر مستحيل، ولا سلام إلا بشروط إسرائيل والولايات المتحدة، فاستسلمت النخب الحاكمة لأسطورة أمريكا والوهم الزائف عن أمريكا وليس حقى لأمريكا بوزنها الفعلى، وكثيراً ما تساورنى الدهشة من جهل العالم العربى الرسمى بها، والافتراض القاصر الذى يحكم المعْرفة العربية الرسمية بها.. وهو أنه يمكن كسب أمريكا لصف العالم العربى".

• • •

لقد جاءت أوسلو بعد مدريد بعامين.. وعلى الرغم من أن المسافة الممتدة من أكتوبر 1991م إلى سبتمبر 1993م كانت تحتمل – بطبيعة الحال – أن يكون فى الأفق اتفاقاً أو إعلاناً أو أياً من صيغ التفاهم، فإن الإعلان فى أوسلو عن اتفاق إعلان المبادىء الفلسطينى - الإسرائيلى جاء مفاجئاً بل ومباغتاً للجميع.

وعلى قدر المفاجأة، راحت ردود الفعل تتوالى تقديساً وتدنيساً، وتعظيماً وتخويناً، وراح الساسة والمثقفون معاً - مأخوذين باحتمالات نهاية الصراع - يغيبون فى موجة من الاضطرابات الذهنية ما بين منظومة صياح تبايع أى سلام، ومنظومة نواح تعارض كل سلام.

ولاحت أمام الذهن خبرة الصهيونية نفسها، حين كانت السياسة تمضى فعلاً، والفكر يمضى قولاً، ثم كان نجاح الصهيونية لأن السياسة كانت أسبق من الفكر، وكان القادة أقدر من المفكرين، حتى لقد قامت إسرائيل.. وكان البعض لايزال يناقش ويمحص.

وجاءت أوسلو لتطرح إشكالية مقاربة كانت كامب ديفيد قد أثارتها فى السبعينات.. هل تتاح الفرصة للسياسة لتعمل وتكسب، أم تظل طموحات الحق التاريخى تُبطل أى حركة خشية إضاعة القضية؟.. أى هل تعمل "السياسة" ولو كان أداؤها أقل من التاريخ.. أم تعمل"الثقافة" ولو كان فعلها من خارج الجغرافيا؟..

والإجابة التى تروق للكثيرين.. هى كوْن الصراع العربى - الإسرائيلى صراع أرض

ورمز، جغرافيا وتاريخ.. سياسة وثقافة.

وهى إجابة صحيحة.. دقيقة، غير أن.. السؤال يبقى على حالته.. ماذا لو كانت الوقائع والموازين لا تمكن من الإجابة الصحيحة.. هل يمكن تقديم إجابة ما، ثم تحسين النتائج لاحقاً، أم يكون التأجيل من أجل اتاحة فرصة - قد لا تجيء - هو الحل؟.

• • •

لقد كان السؤال صعباً، وجاءت معه جميع الإجابات مفتوحة، فلا الذين قبلوا أوسلو كان بمقدورهم الجواب الشافى، ولا الذين عارضوها كان لديهم البديل الكافى.

وحسب "عزمى بشارة"، فإن اتفاق أوسلو حدّد الأسئلة ولم يحدّد الأجوبة، وإن تجربة الثمانى سنوات الإنتقالية التى كان من المفترض أن تبنى الثقة بين الطرفين قد أدت فى الواقع إلى العكس.

وقد نشرت صحيفة "يديعوت أحرونوت" بعد اكتمال السنوات الثمان قول البروفيسور "جلبر".. "ليس صحيحاً أننا كنا قريبين من الحل، لقد أوهمنا أنفسنا بذلك بتشجيع من النخبة السياسية.. إنه صراع غير قابل للحل".

وبدا من جديد أن السياسة التى كان عليها أن تفتح بالمفاوضات مالم تفعله قدرة السلاح ولا قوة الخطاب.. قد فشلت فى مسعاها، ولم يعد سؤال "السياسة" و"الثقافة" وجيهاً بعد مرور سنوات على أوسلو كما كان فى السابق، فقد رحل رابين وتعاقب من بعده بيريز ونتنياهو وباراك وشارون ومرّ على الطريق أولمرت وليفني.. وعادت الأمور إلى الوراء.. وربما أبعد.

• • •

قدمت إسرائيل نموذجًا لا مثيل له فى إدارة المفاوضات.. من اتفاق إلى عشرات الاتفاقات على هامش الاتفاق، ثم إلى اتفاقات أخرى لتنفيذ هوامش الاتفاقات، وتلاشت

حرارة المتابعة تحت وطأة الملل والإعياء الذى سببه المفاوضون الإسرائيليون، حتى صارت عملية التسوية من أبعد الموضوعات فى تفاصيلها عن ذهن الرأى العام العربى الذى لم يعد مدركاً ما جرى من اتفاقات وانسحابات وإعادات انتشار واحتلال.. وغير ذلك من أعباء الفهم والتمييز.

وينقل "محمد حسنين هيكل" عن الرئيس الفرنسي الأسبق "فرانسوا ميتران"، شرح بيريز لسياسة إسرائيل التفاوضية فيقول: "نحتاج وقتاً طويلاً.. نأخذ فيه الفلسطينيين إلى مائدة المفاوضات ثم نعود بهم من قرب المائدة، ونطرح عليهم صيغاً قد تكون مفيدة فى تعليمهم دون أن تكون بالضرورة مؤدية إلى اتفاق معهم. سوف نعرض عليهم وساطات ووسطاء يذهبون بأفكار ومقترحات ويجيئون بأفكار ومقترحات. نتركهم يذهبون إلى واشنطن ونيويورك، ويعودون من واشنطن ونيويورك، ثم يكون من هذا الجهد كله.. أن يؤقلم الطرف الفلسطيني نفسه تدريجياً على كيفية تخفيض سقف توقعاته".

ويعقّب "هيكل": هم يريدون عملية "تدويخ" قبل الدخول فى الكلام "الجد".. وهذا الأسلوب فى إدارة الصراع مع العرب قد صممه بن جوريون، وكل ما فعله بيريز هو أنه استلهم تنويعة منه وطبقها فى إدارته للمفاوضات مع الفلسطينيين.. "التدويخ" عن طريق الإستنزاف السياسي.. أى أن "التلميذ"، بيريز، كان مجرد صدى لصوت "الأستاذ" بن جوريون.

والواقع أن مثل هذا القول ينطبق على مرحلة ما بعد أوسلو أكثر مما ينطبق عليها ذاتها، فقد جاءت أوسلو أسرع مما كان متوقعاً، وكان مدى "التدويخ" فيها محتملاً، غير أن ما بعدها، كانت المراوحة فيها تزيد عن الطاقة وتفوق الاحتمال.

• • •

عاد عرفات إلى فلسطين فى شبه ملحمة أقرب إلى طقوس الماضى البعيد، جاء كملك كنعانى عاد من رحلة صيد طويلة فى البرارى البعيدة، رجع من رحلته بقليل من الصيد

وكثير من الإجهاد، وكان الزمن الفاصل بين الخروج والعودة واضحاً على عينيه الحمراوتين ويديه المرتعشتين وجبينه المتكسر بفعل السنين، كما كان الزمن واضحاً على خبرة القول وتباطؤ الخطى.. والثبات الطافي فوق بركان لايزال يراكم حممه في هدوء.

وصل عرفات إلى غزة عن طريق مصر، وبينما كانت احتفالات القاهرة بذكرى ثورة يوليو تجرى فى موعدها عام 1994م، كان ياسر عرفات يتوجه إلى فلسطين.

كانت الثورة المصرية هى صانعة القضية الفلسطينية فى الضمير العربى، وكان خيارها، الذى لم يكتب له النجاح، هو كسر إسرائيل بالحرب، وفى ذكراها تماماً اختار عرفات أن يمضى إلى بلاده بعد مفاوضات كانت تمثل فيما قبل خيانة لدى الثورتين المصرية والفلسطينية معاً.

• • •

وصل عرفات، وفى صحبته مائة عام من الحزن، وكان على السلطة الفلسطينية التى غامرت بالعودة أن تبنى وطناً جرى تجريفه عبر عقود طوال، وكانت وعود الغرب الطازجة بالدعم والمساعدة لاتزال حاضرة فى ذهن رجال منظمة التحرير الفلسطينية.

وتوالت أوقات عصيبة، بدا خلالها حجم الإنهيار فى الإقتصاد الفلسطينى فوق المستطاع، فقد بلغ العجز التجارى مع إسرائيل عام 1996م نحو (91٪)، كما أن الدول المانحة والبنك الدولى لم يفيا إلا بجزء من العون المالى الذى تعهدا به، مليار ونصف المليار دولار خلال أربع سنوات بنقص مليارين عما كان مخططاً.

على أن انتصارات السياسة كانت تغطّي إخفاقات الإقتصاد.

ويذكر "جميل هلال" فى كتابه "النظام السياسى الفلسطينى بعد أوسلو" الصادر عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية.. أن المؤسسات الدستورية للسلطة الفلسطينية قد اكتملت فى يناير 1996م، حيث تم انتخاب عرفات رئيساً لهذه السلطة، وانتخاب المجلس التشريعى بأعضائه الـ (88)، وأصبح الفلسطينيون يمارسون السلطات التشريعية والتنفيذية

والقضائية، كما أصبح لكيانهم السياسي عدداً من الرموز السيادية للدولة من علم ونشيد وطوابع بريد وعملة (له الحق في إصدارها) ومكاتب تمثيلية للدول الأجنبية.

أقام عرفات نظامه السياسي معتمداً على حركة "فتح" فأصبح رجالها يشغلون (77٪) من مقاعد المجلس التشريعي، ويسيطرون على هيئة الإذاعة والتليفزيون ودائرة الإحصاء، وغيرها من المؤسسات والوزارات.

وباتفاق أوسلو سيطر عرفات على (60٪) من قطاع غزة، وأعيد انتشار القوات الإسرائيلية في الضفة.

• • •

جاء "بنيامين نتنياهو" عام 1996م إلى إسرائيل ليقطع مسيرة أوسلو، وليجعل من رابين "فقيداً عزيزاً" لدى معظم العواصم العربية.

لقد أعيد النظر إلى رابين - الذى جاء بين شامير ونتنياهو - بكثير من التقدير من جانب حركات السلام ومؤيدى التسوية، على إعتبار أنه كان الأكثر حسماً والأبعد مدى في قطع أشواط في التفاوض، ثم ساعدته نهايته الدرامية برصاص اليمين المتطرف في أن يكون - عند الطرف العربي - العدو الأقل عداءاً أو أفضل الأعداء في إسرائيل.

وجاء نتنياهو بعد فترة فاترة قضاها بيريز خلفاً لرابين.. ليمكث ثلاث سنوات عمل خلالها على التخلص من اتفاقيات أوسلو وشرع بنفذ سياسات تهويد القدس وتوسيع الاستيطان ومصادرة الأراضي. وعلى الرغم من ارتباط نتنياهو في مسيرة التسوية باتفاق الخليل واتفاق واي ريفر، فإنه لم ينفذ أياً من التزاماته، وتم تجميد مسارات التفاوض.

• • •

جاء عام 1999م يحمل رغبة فلسطينية جارفة في إعلان الدولة ومواجهة أزمات الحاضر والقادم معاً.. وقد مثّل إصدار الإتحاد الأوروبي بيان برلين في مارس 1999م الذى أكد فيه حق الشعب الفلسطيني الدائم وغير المشروط في تقرير مصيره وإقامة دولته، وتطلعه

إلى تحقيق ذلك في وقت مبكر.. مقدمة دافئة..

ومع اقتراب الرابع من مايو 1999م، الموعد المحدد لإنتهاء المرحلة الإنتقالية للحكم الذاتي دون أن تبدأ مفاوضات الوضع الدائم، أعلن عرفات عزمه إعلان الدولة، وقام بجولة واسعة ليبشر بقدومها. ١

ويذكر "نايف حواتمه" في كتابه "أبعد من أوسلو.. فلسطين إلى أين" أن عرفات قد زار أكثر من (67) دولة في (60) يوماً متلاحقة، ليحضر لإعلان تجسيد سيادة فلسطين، ووجد استعداداً من أغلبية دول الإتحاد الأوروبي، خاصة فرنسا للاعتراف بسيادة فلسطين، كما وافقت روسيا والصين واليابان وكندا وألمانيا وكل الدول الآسيوية والأفريقية ومعظم دول أمريكا اللاتينية، وحدها أمريكا طالبت بتمديد عمر أوسلو إلى مايو 2000م.

• • •

في أبريل 1999م.. اتفقت فصائل منظمة التحرير الفلسطينية على عقد دورة خاصة للمجلس المركزي الفلسطيني لأول مرة منذ ست سنوات حين تم الإعلان عن اتفاق أوسلو، وكانت "سيادة فلسطين وعاصمتها القدس" هي جدول الأعمال. وقد حضرت الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، وأعلنت حركة المقاومة الإسلامية "حماس" مشاركتها كمراقب، والتقت للمرة الأولى فصائل منظمة التحرير على مربع وطني بارز مشترك لتجاوز أوسلو والدعوة لعدم تمديد الحكم الذاتي والمرحلة الإنتقالية بأي شكل.

وحسب "يوسي بيلين" في كتابه "ملامسة السلام" الذي صدر في لندن عام 1999م.. فإن مفاوضات قد عقدت على مدى عامين بين شخصيات أكاديمية فلسطينية وإسرائيلية وتوصلت إلى مبادئ بشأن قضايا التسوية النهائية.

وهكذا.. وفي مساحة زمنية واحدة، كان نتنياهو يواصل عمله لإنهاء عملية السلام، وكان المفاوضون الفلسطينيون يتحدثون سراً مع المفاوضين الإسرائيليين حول قضايا التسوية النهائية، وكان عرفات وسط إجماع القوى السياسية الفلسطينية يعد لإعلان الدولة.

وفى مساحة زمنية تالية.. خرج نتنياهو من الساحة، وفشلت المفاوضات السرية، وتأجل إعلان الدولة، وبدأت مرحلة أخرى من الإعياء والإنهاك، فقد جاء "إيهود باراك" وسط أجواء من التفاؤل تستعيد زمن رابين، ثم رحل وسط عواصف ورياح.. وحرب، عادت معها الأمور كلها إلى نقطة الصفر.

• • •

ولد "إيهود باراك" فى كيبوتز زراعى بمنطقة الجليل عام 1942م، درس الرياضيات والفيزياء فى الجامعة العبرية بالقدس، وتخرج فيها عام 1968م، ثم حصل على درجة الماجستير فى الميكانيكا من جامعة ستانفورد الأمريكية، أمضى (35) عاماً فى الخدمة العسكرية من عام (1959م إلى عام 1995م)، وعمل بنيامين نتنياهو تحت قيادته كملازم ثان، وكان جوناثان الأخ الأكبر لنتنياهو نائباً لباراك فى قيادة الوحدة، كما عمل أخوه الأصغر فى الوحدة نفسها.

تدرب باراك على العمل الخاص فى فرنسا عام 1964م، وقاد كتيبة دبابات فى حرب الإستنزاف على الحدود المصرية عام 1969م، ثم صار قائد المنطقة العسكرية الجنوبية بعد 1973م. وتولى قيادة وحدة العمليات الخاصة السرية المعروفة باسم "سيبريت ماطال" التى نفذت عملية إغتيال ثلاثة من قادة المقاومة الفلسطينية فى منازلهم فى قلب بيروت فى صيف عام 1973م فيما تعرف بعملية "شارع الفردان".

وهى نفس الوحدة التى قامت بتحرير الرهائن الإسرائيليين المختطفين فى مطار عنتيبى بأوغندا فى صيف عام 1976م، وهى أيضاً الوحدة التى إغتالت القائد الفلسطينى خليل الوزير "أبوجهاد" فى أعقاب إنتفاضة 1987م. وتشير تقارير إلى أنه أصدر أوامر قتل (2000) أسير مصرى فى حرب 1967م.

حصل باراك على أكبر عدد من النياشين بين كل جنرالات إسرائيل، واختاره رابين ليصبح الرئيس الرابع عشر لقيادة أركان الجيش عام 1991م.

انضم باراك إلى حزب العمل عام 1995م، واختاره رابين وزيراً للداخلية، ثم اغتيل رابين فاختاره بيريز وزيراً للخارجية. وفي 1997م تولى رئاسة حزب العمل بعد فوزه الساحق على يوسي بيلين وشلومو بن عامي وافرايم سنيه، ثم كان فوزه على نتنياهو ووصوله إلى رئاسة الحكومة في إسرائيل عام 1999م.

• • •

جاء باراك على اتفاقيات لم توقع، وتوقيعات لم تنفذ، وتسوية لم تتم، وكان أهم ما جاء عليه باراك هو اتفاق واى ريفر، الذى وقع مذكرة التفاهم الخاصة به فى أكتوبر 1998م كل من عرفات ونتنياهو فى حضور الرئيس الأمريكى بيل كلينتون.

ومذكرة تفاهم واى ريفر هى الاتفاق العاشر فى سلسلة اتفاقات أوسلو التى كان من أهمها بروتوكول باريس الإقتصادى فى أبريل 1994م، واتفاق الحكم الذاتى لقطاع غزة وأريحا فى 4 مايو 1994م، والاتفاق الإنتقالى فى سبتمبر 1995م، وبروتوكول الخليل فى يناير 1997م.

استغرق التوقيع على مذكرة واى ريفر عشرين شهراً من التفاوض منذ التوقيع على بروتوكول الخليل إلى أن استضاف منتجع واى بلانتيشن الأمريكى آخر فصوله.

قامت إستراتيجية باراك على تعديل اتفاق واى ريفر الذى أبرمه عرفات مع نتنياهو، وتعديل الخريطة الخاصة بإعادة الانتشار، ودمج المرحلة الثالثة من إعادة الإنتشار مع مرحلة التسوية النهائية.

وبعد مفاوضات شاقة، تم توقيع اتفاق جديد فى شرم الشيخ فى 5 سبتمبر 1999م فيما يعرف باتفاق "واى ريفر - 2"، وتضمن الاتفاق الجديد خطة لتنفيذ المسائل المعلقة من اتفاقات المرحلة الإنتقالية.

أى أنه كان اتفاقاً لتنفيذ اتفاق كان هو الآخر اتفاقاً لتنفيذ اتفاق.. وجرى الاتفاق على

أن تبدأ مفاوضات التسوية النهائية في سبتمبر 1999م على أن ينتهي الطرفان من وضع اتفاق إطاري للتسوية النهائية في فبراير 2000م، وقدمت وزيرة الخارجية الأمريكية مادلين أولبرايت ضمانات للطرفين لتنفيذ الاتفاق.

• • •

انتصف عام 2000م دون التوصل إلى شيء، وكان انعقاد قمة كامب ديفيد الثانية والمفاوضات المضنية التي رافقتها، هو أهم محطة تالية.

جاءت مفاوضات كامب ديفيد لتراكم مزيداً من الإحباط لدى الطرف الفلسطيني المفاوض، فقد بات واضحاً أن الفلسطينيين يفاوضون الولايات المتحدة التي صارت أكثر اندماجاً في الرؤية الإسرائيلية أكثر من أي وقت مضى، ولأسباب عديدة كانت واشنطن أكثر تعجّلاً من الطرفين المتفاوضين للوصول إلى حل، وبدت الإدارة الأمريكية أكثر انشغالاً بما يجرى في فلسطين على نحو غير مسبوق.

• • •

كان الرئيس كلينتون يقضي وقتاً مطولاً في المتابعة الشخصية لسير التفاوض، وكان ينادي المفاوضين الفلسطينيين بأسمائهم وبدرجة مستغربة من التدليل والتبسط.. غير أن الحقائق من وراء جانبية البيت الأبيض كانت تقول بخلاف الظاهر، فقد كان الفلسطينيون يفاوضون مجموعتين من اليهود.. يهود إسرائيل، ويهود من الولايات المتحدة الأمريكية.

ويذكر "محمد حسنين هيكل" أن مؤتمر كامب ديفيد الذي حضره السادات مع جيمي كارتر لم يمثل الوفد الأمريكي فيه غير يهودي واحد هو صمونيل لويس السفير الأمريكي السابق في إسرائيل، وكان بقية الأعضاء مسيحيين. وفي مفاوضات كامب ديفيد الثانية التي حضرها عرفات مع بيل كلينتون، كان الوفد الأمريكي كله من اليهود ماعدا مسيحي واحد هو بيل كلينتون نفسه.

وعلى الرغم مما يقال حول أن الرئيس كلينتون كان أكثر رئيس أمريكي في تاريخ

الولايات المتحدة إهتماماً بأزمة الشرق الأوسط، وتكريساً للجهد لحلها، ومشاركة شخصية في تقديم مقترحات لفك عقدها.. فالحقيقة أن قائمة اليهود في القيادة العليا الأمريكية في عهد كلينتون لابد لها أن تلفت النظر.

هناك عند المستوى الأعلى "مادلين أولبرايت" وزيرة الخارجية، و"روبرت روبين" وزير الخزانة، و"ويليام كوهين" وزير الدفاع، و"جورج تينيت" مدير المخابرات المركزية الأمريكية، و"صموئيل بيرجر" مستشار الرئيس للأمن القومي، و"رهم ايمانويل" كبير مستشاري الرئيس، و"جون بودستا" رئيس أركان البيت الأبيض، و"آلان جرينسبان" رئيس بنك الإحتياطي الفيدرالي، و"ايفيلين ليبرمان" المشرفة على الإذاعات الخارجية بما فيها صوت أمريكا، و"سوزان توماسيس" كبيرة مساعدي هيلاري كلينتون..

والقائمة تتسع لتشمل مئات من رؤساء الوكالات، ومساعدي الوزراء، ورؤساء الإدارات، ومديري الهيئات.. هذا غير السفراء في وزارة الخارجية، وطبقاً لأوراق الوزارة.. فإن سفراء الولايات المتحدة في ألمانيا، وفرنسا، وبولندا، والدانمارك، والمجر، ورومانيا، وبلجيكا، وبيلاروسيا، وجنوب أفريقيا، والهند، وتركيا، ونيوزيلندا، ومصر، وإسرائيل، والسويد، والمغرب، وسنغافورة، وزامبيا، والبرازيل، والمكسيك، وكندا، وكوبا، والنرويج، وسويسرا.. جميعاً من اليهود، وفوقهم السفير "دينيس روس"، المسئول لأكثر من عشر سنوات عن إدارة عملية التسوية في الشرق الأوسط.

ويقضي "دينيس روس" معظم إجازاته في إسرائيل، وأما "مارتن انديك" مساعد وزيرة الخارجية أولبرايت فهو يهودي استرالي الأصل.. وهو الرئيس الفعلي للإيباك. وتضم "الإيباك" (240) ألف شخص معظمهم من ذوي الحيثية من ساسة سابقين ورجال قانون وإعلام وموظفين حكوميين سابقين وحاليين.

وقد أجمل أحد المفاوضين الفلسطينيين القول: "نحن نحاور فريقين إسرائيليين، واحد يحمل العلم الإسرائيلي والآخر يرفع العلم الأمريكي". وبتعبير "عزمي بشارة".. فقد فاوضت واشنطن في كامب ديفيد للمرة الأولى باسم إسرائيل.

* * *

انعقدت مفاوضات كامب ديفيد في ولاية ميريلاند في يوليو 2000م بطلب من باراك، حيث قدم صفقة متكاملة غطت جميع قضايا الوضع النهائي، بما في ذلك اقتراح لتقسيم القدس الشرقية. عرضت إسرائيل الانسحاب من بعض أحياء القدس الشرقية مقابل إبقاء سيطرتها على معظم البلدة القديمة، كما عرضت إمكان استقبال عدد محدود من اللاجئين في إطار جمع الشمل العائلي، مع بعض التعويضات لبعض اللاجئين. وكان العرض الأساسي من قبل إسرائيل يفصل ملف القدس عن باقي الملفات ويرجيء البتّ فيه إلى جولة تالية بعد عامين.

• • •

كان رأي عرفات وكلينتون معاً أن ذلك لا يكون حلاً نهائياً، لأن آلية تسوية لا تشمل القدس هي غير نهائية. وحسب المعلق الإسرائيلي "آفي شلايم".. فإن باراك عاد وقدم صفقة متكاملة بما في ذلك تقسيم القدس الشرقية، وهو ما دعا المتحدثين باسمه للقول بأن باراك فاق أي رئيس وزراء سبقه في تلبية المطالب الفلسطينية.

وكانت غلطة باراك الكبرى - حسب شلايم - في إصراره على أن يصدر عرفات بياناً صريحاً بشأن إنهاء الصراع، ذلك أنه حتى في حال توقيعه لمثل هذا الإعلان فإن الصراع لن ينتهي.

كان عرفات يتعرض لضغوط شديدة من الداخل ومن مصر والسعودية لكي لا يوقع، فقد أكدا له أن العالم الإسلامي قاطبة له نصيب في القدس، وليس الفلسطينيين وحدهم، وبعد أسبوعين من المباحثات.. كانت الخطوط الحمراء لدى باراك وعرفات أكثر قوة من المساحات الرمادية التي حاولت الإدارة الأمريكية توسيعها قدر المستطاع.

في لحظة واحدة، كان على باراك أن يقول قولة نهائية، أو "نهائية" إلى أن تكون هناك "نهائية" أخرى.. في صراع دام مائة عام.

وكان على عرفات أن يغير خلاياه.. وهو يغير نسيج الصراع المعقد من طور إلى طور، ومن حياة إلى حياة.

• • •

كان باراك أضعف من السلام، وكان عرفات أضعف من الصّدام وكانت كامب ديفيد الثانية لقاء أطراف لا تجرؤ على أكثر من اللقاء، وحسب وصف عضو الوفد الأمريكي "روبرت مالى" كان باراك يريد للمفاوضات أن تنتهى بإظهار عرفات رافضاً لصفقة عرضتها إسرائيل، وكان عرفات ثابتاً على الرفض.. دون بديل.

لقد حاول "يوسى بيلين" حينها أن يطرح أفكاراً جديدة.. دون جدوى، رأى "بيلين" أنه من الممكن ايجاد "حلول رمزية" تمكن إسرائيل والفلسطينيين من التأكيد على أن القدس عاصمة لهما.. "فالقدس إشكالية أساسية نظراً لما تمثله من قيمة رمزية ومعنوية، لكنها ليست حقيقية مثل الأمن.

وإذا ما تمكنا من حل المشكلة الرمزية بحلول رمزية، آنذاك يمكن التوصل إلى حلول حقيقية للمشكلة الحقيقية.. إذا تلاقت الحاجات الخاصة ليهود ومسلمى ومسيحيى القدس فإن مسألة السيادة عليها تصبح نظرية، ولكن إذا ما بدأ المفاوضون بمحاولة معرفة من هو المالك ومن هو سيد هذه المدينة.. عندئذ ستنتهى المفاوضات بالفشل".

غير أن احتقان السياسة كان أعقد من النظرية وأبعد من البلاغة.

• • •

مضى باراك فى طريقه دون جديد، فقد تساوى داخله المختطف والمفاوض.. الجنرال والسياسى، ومع التساوى بدا باراك منقسم الذات مشقوق الصورة.

ويصوغ "عزمى بشارة" هذه الحالة قائلاً.. "لقد انتخب باراك لكى يجلب السلام فقرب المنطقة إلى حافة الحرب، وانتخب لكى يدفع بعلمنة المجتمع والدولة إلى الأمام فتعرجت طرقه بين التحالف مع المتدينين ومعاداتهم في الإعلام وبين الإصرار على نقل مولد كهربائى فى يوم السبت بشكل أغاظ المتدينين، وقبول إعفاء تلاميذ المدارس الدينية من الخدمة بشكل أغاظ العلمانيين".

لقد طبع باراك مرحلته بطبيعته المفتتة.. دعا إلى علمانية لم تتمكن وإلى سلام لم

يتحقق. جاء من الجيش إلى السياسة يحمل مدفعاً على كتفه وابتسامة على وجهه.. لينتزع بالمدفع مالا تأتي به حرارة المصافحة.

جاء محمولاً على القوة مدفوعاً إلى السيطرة.. راغباً في أن تأتي المفاوضات بما يوفر على القوة عناء الفعل، وبما يكفى القدرة عناء الحركة، فذهب يصول ويجول بثقة تفوق اليقين.. إلى أن وصلت الأمور إلى منتهاها، فانطفئت القوة وترسّبت الهزيمة.. ثم خرج باراك كما جاء.. وجهاً بلا ملامح، وزمناً بلا تاريخ.

• • •

لم يرغب الرئيس كلينتون في أن يغادر البيت الأبيض دون أن يزرع الفسيلة الأخيرة، علّها تُعوّض ما فات من جهد ووساطات. ففي أيامه الأخيرة، طرحت واشنطن مبادرة نشطة لرعاية اتفاق سلام نهائي، وحسب "آفي شلايم" في كتابه "حقيقة نابليون الصغير" قاصداً باراك.. فإن هذه المبادرة قد تحولت خطة السلام فيها تحولاً كبيراً لمصلحة الفلسطينيين عما كان في كامب ديفيد.. في قضايا القدس، وحدود الدولة واللاجئين، وبموجبها.. تتنازل إسرائيل عن معظم القدس الشرقية ما عدا الحي اليهودي في المدينة القديمة وممر يؤدى إليه.

وفي المقابل يتنازل الفلسطينيون عن حق عودة (7,3) مليون لاجيء الذى تؤيده الأمم المتحدة، وعلى رأس ذلك كله يحصل الفلسطينيون على دولة لهم على (95٪) من أرض الضفة الغربية وكل قطاع غزة. وافق باراك على خطة كلينتون أساساً للمفاوضات، ربما على افتراض أن يرفضها عرفات، فيحقق هو بذلك انتصاراً دعائياً، ولكن عرفات أربك حساباته بقبول الخطة الأمريكية على ما فيها من شروط على أن الإعتبارات الخاصة بالانتخابات دفعت باراك إلى تغيير اتجاهه، حيث كان شارون يتقدم.

• • •

جاء "شارون" ـ الذى ولد عام 1928م - إلى الحياة في بيت يعج بالخرافات

اليهودية والرومانية، وجاء تكوينه بمثل نشأته، يحوى زحاماً من الجريمة والخيال، وبشكل عام.. لم يكن شارون شخصاً طبيعياً في أى وقت، بل ظل طيلة عمره مشغولاً بإبداع جرائمه.

انضم آرييل شارون لعصابات الهجاناه التى ارتكبت أعمالاً مروعة ضد العرب فى فلسطين قبل عام 1948م، وشارك فى سلاح الميدان عام 1948م.. حيث صار ضابطاً فى سن العشرين بدون الحصول على دورات الضباط

التحق فيما بعد بقسم الدراسات الشرقية بالجامعة العبرية، وكان شغوفاً بتاريخ الجيش الصليبى وتخرج من الجامعة بعد أن درس تاريخ الشرق المعاصر.

خرج شارون مما تربى ومما درس.. مؤمناً بالقوة.. وغير مكترث بأفكار التعايش أوالحوار. ويعترف آرييل شارون في مذكراته.. بأنه خلال الفترة من (1953 - 1956م) أشرف بنفسه على تنفيذ مذبحة "قبية" و"قلقيلية" ومذبحة "كفر قاسم" واللاتى كان حصيلة قتلاها فى معظمها من الأطفال.

ومن قبل، شارك شارون في مذبحة "دير ياسين" ومذبحة "اللد" عام 1948م، ومن بعد، شارك في مذبحة "صابرا وشاتيلا" التي أشرف عليها وقادها كوزير للدفاع عام 1982م.. ثم مذابح أخرى.. توالت ضد الإنتفاضة الثانية.. ظهرت فيها خبرة الجريمة وبلادة المجرم.

لقد عاد شارون من أعتاب القبر ليدخل مئات الفلسطينيين إليه، وجاء فوزه على باراك تعبيراً عن الداخل الذى يزداد توحشاً وتطرفاً باستمرار. ربح شارون لأن المجتمع الإسرائيلى بات غارقاً فى أفكار اليمين المتطرف، ومعتقداً فى إمكانية إنهاء الإنتفاضة وإرغام الفلسطينيين على القبول بالممكن والمتاح.

ويرى بعض علماء الاجتماع الإسرائيليين أن استمرار التحول التدريجي نحو اليمين في المجتمع الإسرائيلى هو تعبير عن وضع سكانى، حيث تزداد نسبة المصوتين التدينين

والشرقيين من بين المواطنين نتيجة لارتفاع نسبة الولادة لديهم.

وهو تحليل لا يسلم "عزمي بشارة" بصحته، فالذى جرى هو برأيه تحول واسع فى المزاج السياسى الإسرائيلى نحو اليمين.. "بل إن فوز باراك عام 1999م لم يكن فوزاً لليسار، فقد انتصر باراك فى حينه على نتنياهو وليس على اليمين.. فطريقة الانتخابات فرضت نجوماً لم ينشأوا داخل جهاز الحزبين وقلصت من نفوذ جهاز الحزب برلمانياً.. كما أن سياسة حزب العمل الإقتصادية لم تعد تختلف عن الليكود، بعد أن زال المشروع الإقتصادى للهستدروت بالخصخصة، وأما رؤية السلام فلم تعد تختلف هى الأخرى".

وهو ما جعل البعض يصف معركة شارون وباراك عام 2000م بأنها "معركة اللا معركة"، لا فارق فيها بين قاتل محترف كان يقتل متخفياً فى أزياء النساء، وبين قاتل محترف يفعل ذلك فى كامل لباسه العسكرى وتحت أضواء الكاميرات.

• • •

لم يكن على شارون - بعد أن أتى باراك ونتنياهو على أنفسهما - إلا أن يتقدم ودون برنامج ودون حديث، إذ أحاط نفسه بعشرين خبيراً ومستشاراً يتلخص عملهم بالمحافظة على صمته، وحصد شارون (62٪) من أصوات الناخبين ووقف باراك عند (4,37٪)، وهى المرة الأولى التى يصل فيها الفارق بين الفائز والخاسر إلى هذا الحد.

ثم جاء الدور على شيمون بيريز ليكمل مع شارون.. تلطيفاً وتجميلاً، وقد مكّن بيريز لشارون فى أن يحكم دون أن تكون له معارضة إلى يساره داخل إسرائيل، وأوجد بذلك ظرفاً لا سابق له على الإطلاق.

• • •

عاد شارون إلى قلب الأحداث بعد أن اعتقد الكثيرون أن مستقبله السياسى انتهى، حين أدانته لجنة كاهان الإسرائيلية التى تولت التحقيق فى مذابح "صبرا وشاتيلا" نتيجة لضغوط دولية لم يسبق لإسرائيل أن تعرضت لها.

عاد فى مشهد درامى حين قام باقتحام المسجد الأقصى.. لتتجه الأمور بعدها إلى

هاوية أخرى، وعلى الرغم من أن مشهد الاقتحام الذى عاد به شارون كان ينبغى أن يقضى عليه في ظروف تجرى تحت مظلة عامة من التسوية، فإنه على العكس تماماً قذف بـه إلى صدارة الحكم، وتحولت معه صورة "المجرم الأول" إلى "الرجل الأول" في إسرائيل.

وشرع شارون يقضى على فاعلية الوجود الفلسطينى.. عبر تـدمير البنيـة الأساسـية والمنشآت التابعة للسلطة الوطنية واقتحام القرى والمدن وقصفها بالأسـلحة الثقيلـة. وكـذلك عبر إغتيال الكوادر الأساسية في القوى السياسية الفلسطينية.. فتح وحماس والجهاد.

وصار واضحاً للجميع أن حكومة شارون لا تريد استئناف أية مفاوضات، ولا تريد عملية سلام أصلاً.. بل تريد أمراً مختلفاً نوعياً، هـو الإسـتفادة مـن دروس العمليـة السـابقة مـن أجـل إفشال أية عملية قادمة.. صار الهدف هو تفكيك عملية السلام ذاتها، والقضاء عليها تماماً.

وحين كان شـارون يسـارع إلى إنهـاء الوجـود الفلسـطينى تمامـاً.. كـان الفلسـطينيون يخوضون معركة مجيدة للدفاع عن الوطن الذى أنهكه النزيف، وتوالـت أحـداث الإنتفاضـة الثانية.. لتضيف إلى الإنتفاضـة الأولى دماءاً جديدة وحقائق متجددة.

• • •

لم تكن الإنتفاضة الثانية مجرد رد فعل على سلوك استفزازى متعمـد لـشارون فـى اقتحام المسجد الأقصى.. بل جاءت - حسبما يقرر "قيس عبدالكريم" في "عشية الإنتفاضـة" - كفعل سياسى شديد التعقيد كانت له مقدماته وإرهاصـاته وتراكماتـه المسبقة، وهـو فعـل يتواصـل مادامـت الأسـباب التـى أدت إلى ولادتـه قائمـة.. كـالإحتلال والاسـتيطان ووضـع اللاجئين.. وهى الملفات التى لاتزال من غير حل.

لم تجىء الإنتفاضة الثانية كمشهد يعاكس مشهداً غـير مقبـول، بـل جـاءت كرؤيـة تتجاوز المشهد ومراجعة تتجاوز الموقف.. بعد أن بلغ الإحباط مبلغه ولم تعد "أوسلو" قادرة على الحركة للأمام.

كانت المستوطنات الإسرائيلية لاتزال تتوالى فى حركة دؤوبة، وكان اللاجئون يـرون

فى الأفق إغلاقاً لقضيتهم وإبقاءاً لشتاتهم، وأما القدس فقد استمرت عمليات تخريبها وتهويدها.. حتى إذا حلت التسوية النهائية لم تكن الأمور على حالتها كما كانت حين بدأت التسوية.

• • •

تعود القدس فى نشأتها إلى (5000) سنة قبل الميلاد، وقد هُدمت وأُعيد بناؤها (18) مرة، وتبلغ مساحة القدس القديمة داخل السور أقل من كيلومتر مربع، وعموماً فلا يوجد تقدير واحد لمساحة القدس.. وقد اعتادت إسرائيل منذ احتلالها بقية القدس عام 1967م أن تتحدث عن القدس الموحدة والقدس الكبرى وطبقاً لقراراتها الإدارية عام 1990م فإن مساحة القدس الكبرى تصل إلى (123) كيلو متراً.

ويطالب الجانب الفلسطينى بالسيادة على كل القدس الشرقية التى يسيطر الإسرائيليون على ثلاثة أرباعها، ويبلغ عدد سكانها نحو (567) ألفاً من بينهم (70٪) من اليهود. وتتركز الأغلبية الساحقة من يهود القدس الشرقية فى المستوطنات الإسرائيلية المحيطة بالمدينة القديمة، فى حين لا يزيد عدد اليهود الموجودين فى داخل منطقة الأسوار بالقدس القديمة عن ثلاثة آلاف يهودى، فيما يصل عدد السكان الفلسطينيين فى القدس الشرقية إلى (200) ألف نسمة.

وتبلغ مساحة القدس الشرقية (4,6) كيلومتر مربع، وتقع بالمنطقة الدينية التى تحوى الأماكن المقدسة فى نطاق (1) كيلومتر مربع. ومنذ عام 1967م تحاول إسرائيل تهويد المدينة التى سقطت فى خضم النكسة، فأقامت عليها (15) مستوطنة، (17) حياً استيطانياً، وتحولت إلى سور يعزل المدينة عن محيطها الفلسطينى فى الضفة الغربية. وبعد أوسلو تم حصر المساحات المتاحة للبناء الفلسطينى بما لا يتجاوز (7٪) من مساحة القدس الشرقية، وتحويل (40٪) من هذه المساحات إلى مناطق خضراء يمنع عليها البناء للفلسطينيين.

هذا فى الوقت الذى تقدم فيها كل التسهيلات للنشاطات الاستيطانية حيث تجاوز

حجم البناء الاستيطاني في الفترة من (1994 – 1999م) أكثر من (43) ألف وحدة سكنية تم تشييدها بالتعاون بين وزارة الإسكان وبلدية القدس الإحتلالية ومجلس المستوطنات وأصحاب رؤوس الأموال التطرفين.

وعموماً.. فإنه منذ إبرام اتفاق أوسلو 1993م وحتى عام 2000م، ارتفع عدد سكان المستوطنات إلى (195) ألف مستوطن يهودي دون حساب الاستيطان في القدس وضواحيها، أي بزيادة (77٪) في عددهم، وبلغ المعدل السنوي المتوسط لزيادة عدد المستوطنين (12 ألفاً) بين عامي (1994 و2000)، وهو معدل يفوق المعدلات السابقة على هذا التاريخ، فقد كان (9,600) بين عامي (1986 و1996م).

كما بلغت مصادرات الأراضي حداً غير مسبوق، ونشطت حركة بناء المساكن في عهدي نتنياهو وباراك، وكذلك حركة تعبيد الطرق الالتفافية للربط بين هذه المستعمرات ونقاط التفتيش العسكرية المنتشرة فيها.

لقد نمت الخطط الاستيطانية بعد "أوسلو" سواء في مساحة مخططاتها الهيكلية ومجالها الحيوي أو في عدد السكان، وفي القدس كما في باقي محافظات الضفة. وارتفعت مساحة المخططات الهيكلية للمستوطنات في الضفة الغربية من (2٪) في منتصف التسعينات إلى (15٪) في نهاية التسعينات.

• • •

كان ملف المستوطنات يزداد تأزماً بحكم اتساع المساحة وارتفاع العدد، وكان ملف اللاجئين لا يحمل جديداً في شأن آمال العودة أو نهاية الترحال.

ويقدر "أسعد عبدالرحمن" مسئول ملف اللاجئين في السلطة الوطنية الفلسطينية عددهم بنحو خمسة ملايين وربع المليون لاجيء فلسطيني.

ويعتبر "شلومو جازيت" في دراسته "مشكلة اللاجئين.. قضايا الحل الدائم" التي نشرها مركز جافي للدراسات في جامعة تل أبيب.. مشكلة اللاجئين بأنها "القضية الأكثر

تعقيداً في قضايا الصراع العربي - الإسرائيلي".. وأنه بدون وضع حل لهذه القضية لا يمكن إغلاق ملف هذا الصراع. وعلى الرغم من توالي حكومات العمل والليكود في حكم إسرائيل، فإن ملف اللاجئين ظل بلا حركة.

وحين جاء باراك أطلق لاءاته الشهيرة.. "لا عودة إلى حدود 1967م، لا تقسيم للقدس، لا تفكيك للمستوطنات، لا وجود لجيش أجنبي غرب نهر الأردن سوى إسرائيل" و"اللا" التي لم يقلها باراك.. هي "لا لعودة اللاجئين".

ثم كان انزلاق الرئيس كلينتون في مؤتمر صحفي مع الرئيس المصري السابق حسني مبارك حين سأله "عبدالمنعم سعيد" حول مصير اللاجئين الفلسطينيين ربطاً بالموقف من اللاجئين الألبان في كوسوفو فقال "آمل أن يصبح الشعب الفلسطيني حراً، ويشعر بأنه حر في العيش حيث يشاء".

وهو ما واجهه باراك بالرفض، طالباً من الإدارة الأمريكية تصحيح التصريح وإزالة ما أحدثه من سوء فهم والتباس، فسارع البيت الأبيض للتأكيد على أن موقف واشنطن من هذه القضية لم يتغير وأن حلها يبقى رهناً بما يتوصل إليه الطرفان الفلسطيني والإسرائيلي من اتفاق في مفاوضات الوضع النهائي.

إن باراك الذي لم يقل لفظاً "لا لعودة اللاجئين" ضمن لاءاته الأربع الشهيرة، لم يكن في حاجة للقول.. فقد كان سلوك باراك الفعلي "لا" لكل شيء.

وهكذا.. فقد تفاقمت أمور عديدة منذ اتفاق أوسلو وحتى نهاية عقد التسوية. وبات الفلسطينيون يشعرون أن خطاب السلام لم يهيئ أجواء السلام، وأن "أوسلو" لم تكن أكثر من "شراب مرير" تم إغماض العينين لأجل تناوله.. فإذا هو صعب المرور عصيّ الابتلاع، ووجد الكثيرون أنفسهم مدفوعين إلى حالة "قيء" جماعية تقذف بنتائج أوسلو، مصحوبة بالدماء.

• • •

جاءت إنتفاضة عام 2000م مختلفة عن إنتفاضة الحجارة في 1987م، فقد تم استخدام مدافع الهاون الفلسطينية، وبعضاً من القوات الفلسطينية التي لم تكن موجودة عام 1987م كانت طرفاً في الاشتباكات التي حدثت ضد الإسرائيليين.

وحسب تقدير "فهمي هويدي".. فإن ما جرى عام 2000م كان أكبر من الإنتفاضة وأقرب إلى الثورة المسلحة التي شارك فيها الشعب الفلسطيني بما فيه فلسطينيو 1948م الذين قُتل منهم (13) شخصاً في العام الأول للإنتفاضة الثانية. ولم يعد فلسطينيو اليوم هم فلسطينيو (1948 و 1967).. بل إنهم واجهوا الجيش الإسرائيلي وأفشلوا احتلاله بعض المدن والقرى، وأعادت الإنتفاضة القضية الفلسطينية إلى الوجدان العربي من جديد.. من دعوات المقاطعة إلى مباركة الاستشهاد.

وقد نجحت أعمال الإنتفاضة في قتل نحو (250) إسرائيلياً بنهاية عام 2001م، وبدأ الإسرائيليون يقولون أنهم لا يشعرون بالأمان إلا حين يغادرون إسرائيل، لم يعد هناك مقهى أو مطعماً أو محلاً تجارياً في إسرائيل إلا وقد وضع تحت الحراسة على مدار الساعة.

وحسب مراسل هيئة الإذاعة البريطانية "مارتن اسر" (16مارس 2002)، فإن المقاهي والمطاعم قد خلت إلا من العاملين فيها، فكل إسرائيلي يخشى من أن يفقد حياته في أي لحظة ليلحق اسمه بقائمة ضحايا إنتفاضة الأقصى.

وبعد أن كانت قوافل السياح تغمر إسرائيل، رغم المخاطر المتأصلة في هذا البلد، لم يعد يجرؤ على المجئ سوى عدد قليل من المغامرين بحياتهم. وعقب الهجمات الاستشهادية التي نفذها الفلسطينيون، أصبحت أول نصيحة يتلقاها أجنبي يصل إلى إسرائيل هي " لا تقرب المقاهي أو المطاعم المزدحمة".

وفي القدس.. فإن الفندق الوحيد الممتلئ بالنزلاء هو الفندق الذي اعتاد الصحفيون الأجانب الإقامة فيه، وأما فنادق تل أبيب المطلة على البحر، فالمحظوظ منها تبلغ نسبة اشغال الغرف فيه خمسة وعشرين بالمائة.

وفى أكبر فنادق الخمسة نجوم فى تل أبيب لايوجد أحد، وصارت شوارع تل أبيب فى المساء خاوية بعد أن كانت فى الماضى تعج بالمارة.. وفى مطاعم الوجبات السريعة.. يوجد، فريق حراسة مكلف بإمعان مراقبة الزوار وهى مهمة يشارك فيها رواد المطعم أنفسهم.

ويخشى الإسرائيليون فى تلك المطاعم من الجلوس فى الوائد وسط المطعم، بل يفضلون الاحتماء بأحد الأعمدة فى ركن منزو. وإذا انفجر فجأة بالون يلهو به طفل.. ينتفض كل من فى المطعم هلعاً، ليتذكر الجميع أنهم ليسوا فى مطعم عادى، ولا فى بلد عادى.

• • •

إن العام الدراسى الذى افتتح فى سبتمبر 2001م بدأ فى حراسة (7500) شرطيًا وآلاف المتطوعين. وقد زاد عدد رافضى الخدمة العسكرية فى الضفة والقطاع، كما زاد معدل الهروب من المستوطنات، وارتفع على نحو هائل معدل تعاطى المهدئات وأصيب الإقتصاد الإسرائيلى بخسائر فادحة.

وحسب صحيفة "لوموند" الفرنسية.. فإن معظم المستوطنين أصبحوا يخشون الخروج من المنازل بعد غروب الشمس، ولم يعودوا يستخدمون سياراتهم الخاصة بل يفضلون عليها خطوط الأتوبيس المصفحة.. وحتى طرق الأنفاق التى أقامتها سلطات الإحتلال الإسرائيلى خصيصاً أسفل بيت لحم لتأمين سلامة وصول المستوطنين فى أثناء توجههم من مستعمراتهم فى الأراضى المحتلة إلى داخل إسرائيل.. لم تعد آمنة.

تقول "لوموند".. إن هذه الطرق الالتفافية التى صممت خصيصاً لإبعاد المستعمرين عن متناول هجمات المقاومة أصبحت أكثر الطرق خطورة.. حيث لقى فيها أربعة عشر مستعمراً مصرعهم خلال الإنتفاضة وهم يقودون سياراتهم.

وفى مستوطنة "نيفتسوف" شمال رام الله بالضفة فرّ عدد كبير من سكانها، وكذلك من مستعمرة "جوش اتزيون" جنوب رام الله. وانخفضت أسعار المنازل فى المستعمرات.

وأصبح أصحاب شركات البناء يبحثون لها عن مشترين من الخارج خاصة في الولايات المتحدة.

وطبقاً لوزارة الداخلية الإسرائيلية.. فقد انخفض معدل الزيادة في سكان المستعمرات الإسرائيلية من (7٪) في النصف الأول من عام 2000م إلى (4,2٪) في النصف الأول من عام 2001م. وتوالت عوامل الفزع.. ليبرز في مجرياتها نجاح عملية إغتيال وزير السياحة "رحبعام زئيفي" رداً على اغتيال "أبوعلي مصطفى" أمين الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

اختتم زئيفي حياته في الدور الثالث في فندق حياة ريجنسي بالقدس.. حيث لم يكن منشغلاً باحتمالات الموت.

• • •

كان "زئيفي" علمانياً متعصباً، ولكنه كان بنظر غلاة المستوطنين المتدينين حاملاً رسالة دينية.. وهي رسالة "أرض إسرائيل" التي يعتبر استيطانها بنظرهم فريضة دينية.

ويذكر عزمي بشارة.. أن "زئيفي" قد اشتهر بسعة معلوماته عن الأرض وتاريخها، وحفظ كل تفصيل يتعلق بها، حتى عينه رئيس بلدية تل أبيب قبل دخوله الكنيست مديراً "لمتحف أرض إسرائيل" ومن باب تعداد مناقب الفقيد.. تحول "زئيفي" بعد وفاته إلى مؤرخ وباحث ومثقف في شئون تاريخ هذه البلاد.

والحقيقة - حسب بشارة - أنه لم يكن مثقفاً بل كان متعصباً، وكانت معلوماته بطبيعة الحال انتقائية وأسطورية، ولم يكن كاتباً ولا باحثاً ولا مفكراً، حتى بمقاييس اليمين المتواضعة، لقد تحولت الفظاظة إلى تواضع، وتحولت الجلافة إلى استقامة، والتطرف إلى حب، والعنصرية إلى وطنية.. بعد أن مات.

وهكذا التقى مؤيدو "ترانسفير" زئيفي لعرب الأراضي المحتلة عام 1967م، بمنفذي "ترانسفير" بن جوريون عام 1948م.. في مسيرة التشييع نفسها. وبرحيل زئيفي

قتيلاً على الرغم من عوامل التأمين القصوى المحيطة به، زاد القلق لدى الإسرائيليين الذين باتوا يشعرون أن لا أحد بمأمن من الإنتفاضة.

• • • •

اعترف "بنيامين بن اليعازر" وزير الدفاع في حكومة آريل شارون في حديث لدان شيلون بصحيفة "معاريف" (16 نوفمبر 2001) "أن الجمهور قلق، ولكنه ولله الحمد لا يعرف كل شيء.. الجمهور لا يعرف أننا نمنع (90 – 95٪) من العمليات قبل وقوعها". ونرى الفزع والرعب في عناوين الصحف الإسرائيلية التي ذهبت تؤكد.. أن الإنتفاضة الثانية هي أكبر "تهديد وجودي" في تاريخ إسرائيل.

كان شارون لايزال في قراءاته الخاطئة، وعوضاً عن اتجاهه نحو تسوية تعيد الأمن وتفتح الطريق لسلامة الجميع.. انطلق يمارس قناعاته وخيالاته.. قتلاً ونسفاً.. بلا توقف.

تم قصف المناطق السكنية بطائرات "إف 16"، و"إف 15".. وألقيت قذائف بوزن طن على الأهداف الفلسطينية التي يمكن إصابتها بقذائف أخف وزناً بكثير.

وقبلها بدأت عملية منظمة لقتل الكوادر الفلسطينية الرئيسية، من "جمال منصور" مسئول حركة حماس في الضفة وغزة إلى "أبوعلي مصطفى" أمين عام الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين الذي تم إغتياله في مكتبه الذي يبعد (300) متر فقط من مقر ياسر عرفات. لم تكن العملية قوية على المستوى الفني بقدر ما كانت خطيرة للغاية على المستوى السياسي، فقد كان أبوعلي مصطفى معروف الحركة والمكان ولم يكن يحتاج تحديد مكانه إلى عمل استخباراتي من نوع خاص.

وقد نشرت صحيفة "معاريف" في 28 يوليو 2001م صوراً لسبعة أشخاص مرشحين للإغتيال كان يتوسطهم ياسر عرفات، وحوله محمود عباس، وياسر عبدربه، وأحمد قريع، والشيخ أحمد ياسين.. وعبدالله الشامي مسئول حركة الجهاد الإسلامي في الضفة وغزة، وقد وضعت علامة (×) على وجه أبوعلي مصطفى.. بعد أن تم إغتياله، ودعا

نائب وزير الأمن الداخلي "جدعون عزرا" للقضاء على أقارب الفدائيين وضرب جيرانهم. وتوازت عمليات الإغتيال الواسعة مع عمليات القصف والتدمير.. حتى تحولت فلسطين إلى أرض للموت.. فالشهيد يعقبه شهيد، والجريح يجاوره جريح.. وصار الشباب ينتظرون الموت بمثل ما ينتظرون الحياة.. وينسجون الكفن على حجم الوطن.

• • •

كانت المشاهد التي تنقلها الصحف والشاشات كافية للاختناق جراء ما يجرى فى فلسطين، فلم تعد الكوارث المتلاحقة تجرى من غير نظام.. بل كانت تجرى بخطة وحساب. وقد تساءل "يوسى ساريد" في مقال له نشرته "معاريف" (28 أغسطس 2001).. "من قال أن شارون لا توجد لديه خطة؟ سيرى الجميع فيما بعد خطة شارون تتبلور.. سيرون، وسوف تقشعر أبدانهم".

ويعبر "نجيب محفوظ" عن فداحة الكارثة في أسى شديد.. "حمدت الله على ضعف بصرى حتى لا أرى على شاشات التليفزيون المجازر التى يرتكبها الإسرائيليون بحق الفلسطينيين،.. إن جيش الإحتلال البريطاني في مصر، لم يواجه أبداً المظاهرات بالدبابات والطائرات على مدى سبعين عاماً"..

وكان حصاد العام الأول للإنتفاضة الثانية من (28 سبتمبر 2000 إلى 28 سبتمبر 2001م).. (700) شهيد، و(30) ألف جريح، وهدم (4000) منزل، وخسائر للإقتصاد الفلسطيني بلغت (4) مليارات دولار.

ثم توالت الخسائر.. ضمن قيادات تمت تصفيتها إلى قيادات تمت محاصرتها والنيل منها، ومن منع "أحمد قريع" رئيس المجلس التشريعي الفلسطيني من الدخول إلى الضفة الغربية فى نوفمبر 2001م، وعدم الاعتداد ببطاقات الشخصيات المهمة (VIP) التى يحملها.. إلى منع الرئيس ياسر عرفات من الحركة خارج رام الله ومحاصرته داخلها.. وفى كل ذلك كانت واشنطن بعيدة أكثر من أى وقت مضى.

• • •

جاء الرئيس جورج بوش الثاني البيت الأبيض.. يحمل رؤية بسيطة للسياسة الخارجية في العالم، خلاصتها عدم الإكتراث بتلك المناطق التى لا يجدى معها تدخل، وإكبار الولايات المتحدة في إهتماماتها فلا تعني بغير قوى محددة في مقدمتها الصين وروسيا.. ثم ترك إدارة معظم العالم في أيد صغار المنفذين بوزارة الخارجية وجهاز الاستخبارات.

إنها رؤية "كوندليزا رايس" التى ظهرت في دراسة لها في دورية "فورين أفيرز" الشهيرة في يناير 2000م، وهي رؤية الكثيرين خارج دائرة القرار الرسمي كهنري كيسنجر وتوماس فريدمان.

وهكذا جاء بوش غير مكترث بما يجرى في الأراضي المحتلة، ومكتفياً بعبارة هنا وعبارة هناك كلما اضطره الصحفيون لذلك، وكانت عادة الرئيس بوش أن يخص أزمة الشرق الأوسط بدقيقة أو بعض دقيقة أثناء تواجده في مزرعته الخاصة أو حين يكون غارقاً في قيادة "عربة الجولف".

وبدوره.. قلّل وزير الخارجية "كولين باول" من اتصالاته مع شارون وعرفات، مفضلاً ترك الأمر للسفير الأمريكي في تل أبيب وقنصل الولايات المتحدة في القدس.. حيث يتولى الاثنان إجراء الاتصالات والوساطة بين الرجلين.

وفي الواقع فإن الابتعاد الأمريكي الظاهر لم يكن إلا إنحيازاً واضحاً لتل أبيب، فهناك تعاطف خاص من كولين باول وكثيرين داخل الإدارة الأمريكية إزاء إسرائيل، ولم يحضر باول مؤتمر ديربان للتفرقة العنصرية الذى انعقد في جنوب أفريقيا عام 2001م.. بينما كان يمضي عدة أيام في منزل "رونالد لاودر" الرئيس السابق لمجلس رؤساء المنظمات اليهودية الأمريكية.

وحسب صحيفة "هاآرتس" (30 أغسطس 2001م) فإن واشنطن راضية بالجملة عن سياسة شارون، ولن يأتي كولن باول إلى المنطقة، ولن يستجيب للاستغاثات الصادرة من بعض العواصم العربية إلا إذا اطمأن إلى أن هناك فرصة حقيقية لإنجاز شيء على الأرض،

وهو مالم يحدث.. فإنه يفضل أن يحافظ على وقته وكرامته.

• • •

ثم كانت أحداث يوم القيامة في 11 سبتمبر 2001م في واشنطن ونيويورك، وارتبكت الولايات المتحدة كما لم يحدث من قبل.. وبدا احتياجها أساسياً للدعم العربي والإسلامي في تجاوز الكارثة وخوض قتال غير مسبوق ضد عدو غير معروف.

وأعلن بوش دعم قيامه دولة فلسطينية في مفاجأة للجميع.. فقد كانت هي المرة الأولى التي يؤيد فيها رئيس أمريكي ينتمي إلى الحزب الجمهوري قيام دولة فلسطينية.. وفيما شككت حماس والجبهتين الشعبية والديمقراطية في مصداقية التصريح الرئاسي الأمريكي.. فإن عرفات استقبل القول بترحاب شديد.

أما آرييل شارون فقد زاد في الانفعال، وشن أعنف هجوم، داعياً الغرب وعلى رأسه الولايات المتحدة إلى عدم تكرار نفس الخطأ الذي أدى إلى اندلاع الحرب العالمية الثانية، عندما ضحت الديمقراطيات الأوروبية بتشيكوسلوفاكيا من أجل الوصول إلى حل مؤقت مع هتلر.. وقال شارون "إن إسرائيل لن تكون تشيكوسلوفاكيا ثانية".

كان شارون يستشهد بأحداث ميونخ 1938م.. عندما سمحت الديمقراطيات الأوروبية لألمانيا النازية بالاستيلاء على إقليم "السوديت" بتشيكوسلوفاكيا إرضاءً لمطالب هتلر. وبعد ذلك بعام واحد اندلعت الحرب العالمية الثانية.

وخالط الانفعال الحماس وأعلن شارون أن "إسرائيل لا تملك إلا أن تعتمد على نفسها.. وستعود لسياسة الإغتيالات، ولن تراعي ضبط النفس، وستواصل القضاء على "بن لادن الشرق الأوسط".. قاصداً عرفات.

ودونما اكتراث رفض بوش تصريحات شارون.. فتراجع شارون بعد ساعات.. وعاد يؤكد على الصداقة بين إسرائيل والولايات المتحدة، ودعم تل أبيب قرار واشنطن مكافحة الإرهاب.

• • •

لقد بدت أحداث 11 سبتمبر في أولها فرصة لصالح الفلسطينيين حيث أيد بوش إقامة الدولة، ثم انتهت في آخرها لصالح إسرائيل.. حيث انطلق شارون تماماً بغير حساب، وكان على العالم الإسلامي والعربي أن يدفع اتهامات متلاحقة بالإرهاب والتخريب فانقلبت الأجندة وتبدلت الأولويات.. من فلسطين والقدس.. إلى "بن لادن" والقاعدة.

وبدأت إسرائيل تضرب بقوة عاتية في الداخل، ثم تلفت الأنظار بعيداً.. إلى الخارج.. إلى العراق وإيران، وانشغلت الصحف الإسرائيلية بما يملك صدام حسين وبما تنوى طهران.

وبعد أيام من أحداث الولايات المتحدة تحدث وزير الدفاع "بنيامين بن اليعازر" (معاريف 18 سبتمبر 2001) متخيلاً هجوماً أمريكياً على العراق.. "إذا قرر الأمريكيون مهاجمة العراق في إطار الحرب ضد الإرهاب، وشعر صدام حسين أن هذه نهايته، فسوف يوجه كل ما لديه إلينا وهذا أمر نستعد له، ولا يستطيع أحد أن يقول أنهم لا يملكون أسلحة بيولوجية أو كيماوية.. أنا لست متأكداً بأن صدام يملك سلاحاً نووياً.. لكنني أتحسب للسلاح الكيماوي والبيولوجي، وإذا أطلق العراقيون النار فهل نتوقع أن نجلس صامتين؟ سوف ندافع بالطبع".. ثم اتجه صوب إيران.. " إن إيران تقود تحالفاً إرهابياً ولديها صواريخ بعيدة المدى تستطيع أن تصل إلى كل نقطة في إسرائيل تقريباً.. إنهم يسارعون لامتلاك رؤوس نووية بعد أن امتلكوا رؤوساً كيماوية وبيولوجية".

وهكذا.. كانت جرائم الحرب والسلام تجرى في الأراضي المحتلة.. على يد الجيش الإسرائيلي، ليواجه الفلسطينيون المجردون من السلاح حرباً قاسية بالدبابات والطائرات، وكان العالم منشغلاً بما يجرى في واشنطن ونيويورك وبما يجرى في أفغانستان.

* * *

وإذا كانت هذه جوانب في المشهد العام في فلسطين من حرب لم تنتصر ومن إنتفاضة لم تنكسر، ومن داخل صار يغلي من جراء القصف بغير حساب، ومن خارج كان مترفعاً عما

يجرى هنا ثم صار منشغلاً بما يجرى هناك.. فإن واحداً من جوانب المشهد كان يقدم جديداً.. يوجب الإهتمام.. فقد كان فلسطينيو عام 1948م يعيدون تقديم أنفسهم وسط ما يجرى من متغيرات.

تعامل "عرب 1948" كأقلية قومية بأروع صورها، وظهروا أشد تماسكاً بانتمائهم القومي من أى وقت مضى، برهنوا أنهم جزء من الجسد الفلسطيني.. وأنهم يعيشون في إسرائيل على خلفية قومية لم تأت عليها السنين.

لقد ربطت الإنتفاضة "عرب إسرائيل" مرة أخرى بالعرب الفلسطينيين في غزة والضفة.. مما أكد تداعي مقولة الانتماء القومي إلى إسرائيل الذى كانت تعتقد فيه الحكومات المتعاقبة في تل أبيب، وحين أطلقت القوات الإسرائيلية النار على مظاهرات نظمها شبان عرب تأييداً للإنتفاضة في أكتوبر 2000م، وقتلها (13 شاباً) عربياً في إسرائيل بعملية وحشية.. انطلقت مشاعر الإحساس العربي لدى "عرب إسرائيل" الذين يشكلون (18٪) من سكان إسرائيل.

وحسب تغطيات قامت بها هيئة الإذاعة البريطانية (BBC)، فإن الإنتفاضة أوصلت الشعور القومي العربي ما بين الأراضي المحتلة وإسرائيل. ونقلت عن فتاة عربية.. كنت أقول أنا إسرائيلية عندما كنت صغيرة، والآن أنا انتمي للشعب الفلسطيني وأعتنق قضيته.

• • •

يعود "مروان بشارة" في كتابه الهام "فلسطين - إسرائيل سلام أم فصل عنصرى" الذى صدر بالفرنسية في باريس عام 2001م - بأصول المشهد إلى عملية كاملة من الفصل العنصرى في إسرائيل.

وتقوم الأطروحة المركزية في كتاب "بشارة" على القول.. بأن نظام "الأبارتيد" الذى كانت إسرائيل تطبقه ضد الفلسطينيين في الأراضي المحتلة وحتى داخل إسرائيل نفسها تعمق منذ أوسلو، وأنه في الوقت الذى تخلصت فيه جنوب أفريقيا من نظام التمييز العنصرى في مايو 1994م.. كان نفس النظام يقوى في إسرائيل.

فمنذ أوسلو وإسرائيل تطبق تشريعين.. لليهود حرية التنقل والبناء والتنمية، بينما يتم حشر العرب في "بانتوستانات"، لليهود حرية الاستيلاء على الأرض والفلسطينيين ممنوعين منها.

لقد عمقت أوسلو الفوارق الكبيرة في مختلف المجالات.. المعيشة والتعليم والصحة والشغل.. استفادت من الدعم الدولي واستثمارات السلام ورفع المقاطعة العربية من الدرجتين الثانية والثالثة، وتدهورت حالة الفلسطينيين الإقتصادية وتعمقت تبعيتهم للقوة المحتلة، حيث تذهب (88٪) من الصادرات الفلسطينية إلى إسرائيل، والأراضي المحتلة هي ثاني سوق بعد الولايات المتحدة ويقدر بـ (2,5) مليار دولار.

جرى النظر للعرب في إسرائيل كطابور خامس، منعت علاقاتهم بالأرض.. وهذه أبرز خصائص الأبارتيد، ولما تظاهروا مع إخوانهم في الأراضي المحتلة طوقت القوات الإسرائيلية المناطق التي تقطنها أغلبية عربية وطبقت عليها معالجة أمنية مثلها مثل الأراضي المحتلة عام 1967م، وانتهت مظاهرات أكتوبر 2000 بمقتل (13) شخصاً من عرب 1948.

إن شواطيء تل أبيب محرّمة على العرب من مواطني إسرائيل ومخصصة لليهود دون سواهم، ومنذ أوسلو وحتى نهاية عهد باراك تمت مصادرة (273) ألف هكتاراً من الأرض كان يملكها فلسطينيون.

ويتفق الأخوين بشارة "عزمي ومروان" على أن إسرائيل صارت تخطط منذ أكتوبر 2000 لعزل الشرعية السياسية عن القوى القومية لفلسطين 1948، وإعادة "رسم حدود الديمقراطية" بهدف الانتقام من فلسطين 1948 بسبب إنتفاضتهم إلى جانب أهلهم في الضفة والقطاع.. ذلك أن إسرائيل باتت في مأزق كبير.. بعد أن فشل مشروع حزب العمل في كامب ديفيد، وفشل مشروع الأمن عند شارون.

* * *

لقد بدت الصورة فى لحظة واحدة.. تحوى ثورة فلسطينية تواجه كارثة، ودولة يهودية تواجه كارثة.. فالإنتفاضة لا يمكنها المضى فى مواكب النصوص حتى النهاية، وإسرائيل لا يمكنها الشعور بالأمن ما بقيت عملية التسوية متعثرة.

• • •

وهكذا، تلاقت الأزمة فى جانبيها.. حرب بلا نصر فى جانب، ونصر بلا معنى فى الجانب الآخر!

وعلى حين لم يكن العالم العربى مستعداً للمراجعة والخروج من الهزيمة.. كان هناك فى إسرائيل من شرع فى المراجعة للخروج من الانتصار.. بالمزيد.

وعلى حجم الثقة التى أفرزتها انتصارات المعارك وصعود الإقتصاد.. ذهب المؤرخون الجدد يعملون أقلامهم.. ما بين النقد والنقض، وما بين الإعتزاز والاعتذار.

الفصل الثالث

ما بعد الصهيونية

شيدت الصهيونية مرقدها في نشأتها.. خلقت أزمة في كل قفزة.. وانكساراً في كل انتصار، واحتاجت في بقائها إلى حشد دائم وتعبئة مستمرة، والهدف الذى جرى تسويقه حين بدأت الصهيونية سيرتها الأولى - والذى تمثل في إنهاء المعاناة والاستعداد للاسترخاء - لم يكن سوى ضرباً من أساطير الليل الشاردة، فقد صار الإستنفار وضعاً دائماً، والقتال طريقة حياة.

مأزق الصهيونية.. التي انقطعت أنفاس الإسرائيليين معها، ولم يعودوا قادرين على الإيمان بها والبقاء.. في معارك مفتوحة وتعبئة دائمة.

وهو مأزق الصهاينة الذين وجدوا أنفسهم في دولة تنهشها الأصولية وتشققها العنصرية وتدور يومياتها بين الرصاص والحجارة.

ثم هو مأزق من ينشدون التطبيع في الحياة، أي العيش في بلد طبيعي وظروف طبيعية وأحداث طبيعية.. حيث أضحى ظاهراً للجميع أن لا نهاية للظروف الإستثنائية ولا خاتمة للمعاناة والقلق.. بغير سلام يقبله الطرف الآخر.

وبدا للبعض أن السلام قد يلحق بإسرائيل من الأضرار ما لم يكن ممكناً بغير السلام.. فمثل هذا السلام إنما ما تحقق قد يدفع الصهيونية إلى منتهاها، ويكون على إسرائيل أن تحيا بغير غطاء.. وأن تمضي بغير طريق.

ولأن مثل هذه التجربة.. إسرائيل بلا صهيونية هي مخاطرة كبرى، فإن الإقدام على تهيئة الطريق لها من خلال تحقيق السلام لم تتوفر له قوة الدفع الكافية، إذ لم يمتلك بيريز ولا باراك، كما لم يمتلك نتنياهو ولا شارون تلك الجرأة اللازمة لتحقيق هذه القفزة التاريخية.

لم يجرؤ باراك على الحركة.. وجاء نتنياهو أكثر رغبة في قطع الطريق على أي مغامرة.. وزاد شارون، فبحث حلاً آخر.. هو "تتويج" الصهيونية بالشروع في عملية

التطهير العرقى الأخيرة، والتسوية بالتصفية.

فى هذا السياق، كان طبيعياً أن يتشابه موقفا الليكود والعمل والقوى السياسية الأخرى حين يتطلب الأمر قولاً فصلاً فى السلام، وكلما كانت التسوية تقترب من الملفات الرئيسية والمشكلات النهائية، كان العمل أقرب إلى أن يكون نسخة باردة من الليكود، والليكود نسخة فاترة من الأحزاب الدينية.. وكان طبيعياً مع ذلك كله.. أن تبدأ التسوية ولا تنتهى وأن تمضى عملية السلام من غير سلام.

جاء المقابل لغياب السلام.. يحمل الكثير من القلق واليأس داخل إسرائيل، وعلى الرغم من القوة العسكرية والسياسية للدولة.. وتعاظم نفوذها فى مساحات وآفاق عالمية لم تكن لها فيها موطىء قدم من قبل.. فإن الإسرائيليين لم يأنسوا بهذه القوة والمنعة.

وصارت هناك معادلة واضحة بمرور الوقت.. قوة إسرائيل وضعف الإسرائيليين.. أى قوة الجيش وهزال الشعب.

• • •

يعجَب المرء حين يتأمل قادة الحكومة وجنرالات الحرب ليجد معالم الإستعلاء والاستكبار.. ثم يتأمل حالة السكان ليجد معالم الفزع والاستضعاف.. ثم حين يراقب الخطاب السياسى فيجد جنوح الدولة وطموح الإمبراطورية.. ثم يراقب الواقع السياسى فيجد دولة "باهتة" وشعباً ممزقاً تبدو فيه علاقة الشعب بالأرض "علاقة عقارية" لا علاقة وطن ومصير.

الأمر الذى دعا المؤرخين الجدد للقول بفشل الحلم برغم نجاح القوة.

وهو ما عبرت عنه مجلة "ماريان" الفرنسية فى تقرير لها (أكتوبر 2000م) حيث وصفت المجلة إسرائيل بأنها "دولة عائمة" لا تتمتع بأهم مقومات الدولة التى تتمثل فى اعتراف الوسط المحيط بها.. وحدود ثابتة معترف بها.. وبشخصية قومية ينصهر فيها شعبها.

كما يكشف المشهد السياسى عن تمزق خطير.. عن قبائل تكره بعضها بعضاً، وتمعى

للقضاء بعضها على الآخر..

قبيلة الحاخامات أول القبائل وتسيطر على طبقات كثيرة لايزالون يعيشون فى العصور السحيقة، وأما رموز اليسار العلمانى المعتقدون بوجود الدولة، فقد تحولوا إلى فلاسفة فى العولمة والإنترنت والمشروعات الإقتصادية.. وفى مقدمتهم شيمون بيريز.

ويصف "جبرائيل سمحون" أستاذ الأدب فى جامعة تل أبيب فى مسرحيته "الملك المغربى" الحالة برمتها.. بأنها سقوط جماعى للدولة والشعب.. وهى بالأخص نكبة لأولئك المهاجرين الذين جاءوها لأجل الخلاص.. فكانت المأساة.

تصف المسرحية مجتمعاً يهودياً فى المغرب قيل له إن المسيح اليهودى المنتظر طبقاً لعقيدة اليهود.. قد بُعث بالفعل، وأنه جاء لكى يأخذهم فى حمايته إلى القدس لتأسيس المملكة اليهودية على الأرض.

وبما أن الأسطورة اليهودية تقول أن اليهود ينتقلون على متن السحاب إلى القدس.. فقد صعد جميع أبناء الطائفة إلى أسطح المنازل قبل أن يقفزوا منها لامتطاء صهوة السحاب.. وبالطبع فقد سقطوا جميعاً ولقوا مصرعهم. وترمز المسرحية إلى هجرة اليهود الشرقيين (السفارديم) إلى إسرائيل.. التى كانت انتحاراً جماعياً.. نفسياً قبل أن يكون مادياً.

ويجمل حالة الإحباط التى عليها نصف إسرائيل ذلك القول المأثور.. إذا أنت سألت طفلاً من أطفال اليهود السفارديم.. ماذا تريد أن تكون عندما تكبر سيرد عليه قائلاً: أريد أن أكون أشكينازياً".

* * *

ويعرض الروائى الإسرائيلى - العراقى الأصل - "سامى ميخائيل".. الذى هاجر فى طفولته من العراق.. تلك "المحرقة النفسية" لليهود السفارديم.. على لسان بطل إحدى رواياته "داوود".. يقول داوود ذو الستة عشر "بكى والدى.. وتصاعد البناء للسماء، كنت لا أصدق.. أبى شاؤول يمكن أن يبكى، لحظات وهزته أمى وهى تقول له: "كفى.. علينا ألا

نحزن على ما كان"

لقد أقنعوه بترك زوجته "العراق" لكي يدخل على عشيقته الجديدة "إسرائيل"، فدخل مسروراً وأغلق الباب وراءه ليجد مسخاً دميماً "أمي لم تفهم مشاعر والدى، إلا أننى فهمت.. فقد ماتت روح والدى منذ ترك العراق وجاء إلى هنا، كنا نعتقد بأننا عدنا إلى الوطن لكى نعيش.. يهوداً مع يهود، إلا أن كل ما تم هو تقسيم الشعب اليهودى إلى شعبين.. أحدهما فوق الآخر.

"لقد بعثوا بأبى إلى الجبهة المصرية فى حرب 1967م" يقول أبى "داخل العربة المدرعة التى أركبها، كنت أفكر فيمن حولى من الجنود الأشكيناز.. فلا أرى ما يربطنى بهم.. لا صداقة ولا أخوة، إننى شتلة غريبة بينهم حيث التضامن ظاهرى فقط وعندما تنتهى الحرب سنعود نحن اليهود العرب إلى حارات الفقر فى إسرائيل، ويعودون هم الأشكيناز إلى بيوتهم البيضاء".

وهكذا.. فإن اليهود الذين لم يعانوا الاضطهاد ولا التمييز فى بلدانهم.. وقصدوا إسرائيل بهدف "الاستجمام" الدينى والرفاهية الإقتصادية.. لم يجدوا شيئاً مما بُشّروا به، ودخلوا بأقدامهم ساحة معاناة واحتقار.. بدوا خلالها.. "خدم" لإخوانهم فى الدين.

• • •

لم يكن اليهود الغربيون (الأشكيناز) فى حالة رائعة، على رغم الإستعلاء والاستكبار.. فهو إستعلاء من غير أمن، واستكبار من غير ثقة.

وجاء الجيل الجديد أشكينازاً وسفارديم ممن عاصروا الإنتفاضتين جامعاً لكل أسباب الخوف واليأس.

ولعل توصيف شاب إسرائيلى فى الثامنة عشرة كتب رسالة وهو يستعد للتجنيد فى الجيش لحالته - وحالة جيله - النفسية هو الأوضح فى تبيان المأزق الكبير. كتب الشاب يقول: "إننى إذا ما قُتلت أثناء خدمتى العسكرية، فلن يكون ذلك من أجل شىء، لا من أجل

اليهود ولا من أجل إسرائيل، ليس من أجل السلام، ولا من أجل أسرتي وأصدقائي.. وإذا مت فإنني سأموت بسبب الفوضى والخراب.. بسبب الرغبة في الانتقام. إن السلام لا يتطلب ضحايا، نحن الذين نطلب ضحايا، وأنا لن أكون ضحية سلام، سوف أكون ضحية للحماقة والغباء. إذا مت لن يكون هناك مضمون لموتي، لأنني لن أموت من أجل شيء.

إنني إذا توفيت أثناء خدمتي العسكرية لن يكون هذا فخراً لدولة إسرائيل"

إن هذه المراجعات.. في الرواية والمسرح، وفي الفكر والسياسة.. وعقد جيل الآباء الذي ابتلع الخديعة وجيل الأبناء الذي يذهب إلى الموت من أجل أسطورة يقوم عليها جيش.. هي الفناء الخلفي لحركة ما بعد الصهيونية.. أو موجة "المؤرخون الجدد" في إسرائيل.

• • •

قد يصعب وصف جملة الأفكار التي تعيد النظر في الصهيونية بالحركة.. حركة ما بعد الصهيونية، فداخل هذه المراجعات ألوان طيف عديدة ومتمايزة، وبعض المراجعات إنما تهيىء لمزيد من القوة والبطش.. بنقد الذات وكشف النواقص ولفت الانتباه إلى عثرات الطريق، وهي أفكار وإن كانت تقع في إطار المظلة العامة لما بعد الصهيونية.. لا تعدو - في واقع الحال - أن تكون إحياءاً وتجديداً.

إذا كان ذلك صحيحاً - وهو صحيح - فإن جانباً كبيراً من هذه المراجعات جاء يحمل درجة من الندم وهامشاً من الاعتذار.

فقد ظهر من إعادة قراءة التاريخ.. أن أخطاء جسيمة قد ارتكبت، وأن الدولة "الديمقراطية" قد مارست التطهير العرقي والتفرقة العنصرية، وأن الشعب الذي ملأ العالم صخباً بقصص الهولوكوست وعذاب الشتات قد مارس "محرقة" مماثلة.

وأن الدعاية الإسرائيلية حول الحداثة والتحضر والتي لا يخبو صوتها على مدار الساعة.. ليست إلا غطاءاً على سرقة الزمان والمكان.

وتعرض الكاتبة والممثلة الإسرائيلية "جابى الدور" فى مسرحيتها "زقاق الكراسى البيضاء" قصة بيت عربى فى حيفا يعود إليه الفلسطينى "طاهر" من منفاه الأردنى ليبحث عن كنز كان مدفوناً أسفل البيت، حيث اضطرت عائلته للهرب، وبعد سعى طويل يعثر "طاهر" أخيراً على الكنز.. ولكنه لا يجد الذهب الذى يحويه، وانما يجد "رخاماً" لدفن أطفال.

• • •

ويذكر الكاتب "تشارلز جلاس" وهو يستعرض خمسة كتب تناولت الصراع العربى - الإسرائيلى فى دورية "لندن ريفيو أوف بوليتيكس" أن امرأة يهودية حدثته عن عودة أبيها من إسرائيل إلى فيينا التي كان قد غادرها عام 1938م. عاد إلى شقته التى تربى فيها من أجل تفقدها وتفقد مكتبه، وقابل المرأة التى تشغل الشقة وسألها.. فقالت له بلا اكتراث أنها استأجرتها بعد الحرب وكانت فارغة تماماً.

ولغرابة التاريخ.. فقد تكررت القصة فى فلسطين المحتلة مع ابنة الرجل نفسه الممثلة "جابى الدور".. إنها تعيش فى حيفا منذ 1980م مع زوجها فى الطابق الثانى من بيت عربى قديم على الطراز العثمانى، وبعد الاتفاق الأردنى - الإسرائيلى زار فلسطينيون بيوتهم التى طردوا منها عام 1948م، وذات يوم طرقت باب شقتها امرأتان، أم وابنتها، راحت الأم تفتش البيت غرفة غرفة.. وفجأة قالت لجابى: أين كتب أبى؟.. إنه نفس السؤال الذى سأله أبوها فى فيينا.. بعد أن تحول الضحية إلى مغتصب.

المؤرخون الجدد..

معرفة تقارب الاعتذار



تحظى قراءة التاريخ بإهتمام الخاصة والعامة على السواء، فهو السيرة الذاتية الكاشفة لما سيكون.. هو القفزة والنكبة.. الوفرة والجفاف.. الأسطورة والتراث.. وهو حكايا السهر وأحاديث السمر.

وفي كل التاريخ.. يوجد أكثر من تاريخ، فهناك تاريخ الأباطرة، وتاريخ الإمبراطوريات.. أو تاريخ الملوك وتاريخ الممالك.. ويتفاوت بينهما التاريخ من كونه صناعة فرد واحد أو حفنة من الأفراد إلى كوْنه صناعة جموع أكبر وطبقات أعرض.

وعلى الرغم من النفوذ الحاسم الذى يتمتع به التاريخ السياسى فى حقل التاريخ، فإن جوانب التاريخ الأخرى باتت أقدر على النيل من هذا النفوذ.. من التاريخ الإقتصادى إلى تاريخ الدين وتاريخ العلم وتاريخ الآداب والفنون.

وتكمن مشكلة التاريخ فى ذاته.. أى فى كون التاريخ تاريخاً، انقضت أحداثه وغاب أبطاله، وغادر جمهوره، ولم يعد بالإمكان كشف جوانبه الخافية أو الملتبسة.

• • •

تتبدى مشكلة التاريخ القديم والوسيط إلى التاريخ الحديث بالنظر إلى حالة "التاريخ المعاصر" أى محاولة تأريخ الأحداث الجارية.. التى يعايشها المؤرخ، ويتابعها الجميع عبر الفاعلين الأساسيين والمتحدثين الرسميين وعبر المظاهرات والانتخابات وعبر البرلمانات والفضائيات.. ثم لا يكون هناك اتفاق حول فهم ما حدث ولا وصف ما جرى، فتخرج المطابع بروايات ومعلومات.. كلها متعارضة وكلها موثقة.

لم يعد هناك معنى لذلك السؤال الشهير "من يكتب التاريخ؟" فقد صار الجميع يكتبون التاريخ، من الساسة إلى السعاة، ومن أساتذة التاريخ إلى مذكرات الغوانى.

المنتصرون والمهزومون يكتبون التاريخ، القائمون على السلطة والمعارضون لها والخارجون عليها، الأشخاص الملاصقون للزعامات وأولئك الذين قادهم الحظ ذات مرة إلى

تصفيف شعر الزعيم أو إعداد قهوة الصباح.

ولا يحتاج المرء فى إدراك ذلك سوى محاولة الاطلاع على قوائم الكتب التى تصدر فى الولايات المتحدة الأمريكية عن قيادات البيت الأبيض ورموز النخبة الحاكمة.

وربما تكون مشكلة التاريخ المعاصر أسوأ حالاً من مشكلات التاريخ القديم، فوفرة المعلومات في التاريخ المعاصر أكثر ارباكاً من ندرة المعلومات فى التاريخ القديم، كما أن مساحات الرأى وحدود الهوى تقل كثيراً فى التاريخ القديم وتزيد إلى حد العبث فى التاريخ الحديث.

والأغلب أن محنة التاريخ لن تكون لها كاشفة، وأن مأساة التأريخ للعالم القادم ستمضى بلا نهاية.

• • •

إذا كانت هذه هي محنة التاريخ على وجه العموم.. فما يكون الحال فى إسرائيل، حيث التاريخ المرتبك منذ البداية وإلى المنتهى، وحيث تطل الأساطير والخرافات.. فلا تكاد تترك مساحة لعمل العقل وإعمال الموضوعية.

ولربما تكون الولايات المتحدة الأمريكية قد أحسنت التفكير إذ لم تحفل كثيراً بعلم التاريخ، كما أنها لم تول كلمة "التاريخ" الإهتمام ولا الاحترام الكافيين، ذلك أن غياب التاريخ يقود بطبيعة الحال إلى ازدرائه.. فلا معنى للحفاوة بغير ما نملك ولا الزهو بما لا نحوز.

غير أن إسرائيل تمثل حالة أخرى، فلا هي تفتقد التاريخ على نحو الولايات المتحدة وغيرها، وهى لا تمتلك التاريخ على نحو ما تمتلك الأمم والحضارات.

إنها تملك تجربة ممزقة.. لم تكن التجربة فى حينها موضع تقدير، ولم تكن بعدها موضع إهتمام. ولما جاءت الصهيونية.. جاءت معها رؤية جاهزة للتاريخ. وعلى ضوء التاريخ المصطنع، أقيم تاريخ آخر، وقدمت إسرائيل نفسها ضحية للتاريخ والجغرافيا. وبعيداً عن العالم

العربى، راج التاريخ الذى كتبته إسرائيل، وغاب التاريخ الذى كتبه العرب.

ومع رواج التاريخ كما كتبته إسرائيل، ذاعت رؤيتها بأن التاريخ الذى يكتبه العرب لا يمثل التاريخ، وأن الأعداء العرب الذين يملكون أكثر من عشرين دولة أخرى لا يرغبون فى قبول دولة جديدة بينهم.

وبقدوم المؤرخين الجدد.. ضاقت الفجوة بين التاريخ هنا وهناك، فقد اقتربوا كثيراً من حقائق الصراع المرير، وكشفوا من المذابح والتهجير والتصفية ما جعل التاريخ المكتوب سابقاً ليس إلا لغواً.

• • •

ينظر الكثيرون إلى دراسة "بينى موريس" حول "مشكلة اللاجئين" التى أصدرها عام 1988م على اعتبار أنها البداية الفعلية لتيار المؤرخين الجدد.

فقد أثارت الدراسة التى تناولت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين عامى (1947 و 1948م).. ضجيجاً واحتجاجاً فى المؤسسات الأكاديمية والسياسية، وذلك بسبب اعتراضه على الرواية الرسمية لمشكلة اللاجئين، ولتأكيده مساهمة المؤسسة العسكرية فى طرد أعداد ضخمة من الفلسطينيين بالقوة حتى عام 1950م.

وهى الأفكار التى قام "بينى موريس" بتأصيلها فى كتابه الثانى "تصحيح خطأ اليهود والعرب فى إسرائيل 1936 - 1956"، والذى يبحث موضوع "الترانسفير" فى فكر بن جوريون وآخرين لدى قيام إسرائيل. ويخلص إلى أن فكرة "الترانسفير" لم تولد فى سياق أحداث عام 1948م، بل هى ذات جذور عميقة فى الصهيونية منذ ما قبل الحرب العالمية الأولى.

عمل المؤرخون الجدد على تفكيك الأسطورة الصهيونية، واعتمدوا فى ذلك على الأرشيف السرى الإسرائيلى والبريطانى بالأساس، حيث درسوا مراسلات الحكومة الإسرائيلية، ومضابط الجلسات والتقارير الأمنية والأوراق والمذكرات الشخصية الخاصة وحسب تعبير أحدهم فإن "تاريخ إسرائيل مكتوب بقلم" "مخبرين" لا "مؤرخين".. الأمر

الذى استدعى ضرورة المراجعة والتصحيح.

• • •

يبرز من بين تيار المؤرخون الجدد أو تيار ما بعد الصهيونية إسرائيل شاحاك، ميرون بنفسي، عاموس إيلون، عازر سكويد، آفي شلايم، إيلان بابي، غيرشون شافير، سمحا فلابان، يوسي اميتاى، ميخائيل كوهين، يورى ميلستاين، نورمان فنكلشتين، ايان لوستيك، نحمان بن يهودا، ميخائيل فارشوفسكي، ديفيد جروسمان، دانى وبنستاين، أميراهاس، أورى رام كنوع، بنيامين بيت هالحمى.

ومن بين أعمال كثيرة أنتجتها مراجعات ما بعد الصهيونية يمكن الإشارة إلى دراسات "الصهيونية والكولونيالية" لغيرشون شافير، "صدام عبر الأردن" لآفي شلايم، "بريطانيا والصراع العربى - الإسرائيلى" لإيلان بابى، "مولد إسرائيل.. خرافات وحقائق" لسمحا فلابان، "الهواء الأصفر" لديفيد جروسمان، "أسطورة المسادا" لنحمان بن يهودا، "الموقف من الكولونيالية فى علم الاجتماع الإسرائيلى" لأورى رام كنوع، "دعاوى إسرائيل الليبرالية" لزئيف سيتر نهيل، "المهاجرين الأوائل" و "أمركة إسرائيل" لتوم سيجيف، "المكان المقدس.. التاريخ المطمور للأرض المقدسة" لميرون بنفستى.

• • •

يكتب المؤرخون الجدد بالإنجليزية، أو يكتبون بالعبرية ولكنهم يحرصون على ترجمة دراساتهم للإنجليزية.. ويقول "بينى موريس": "إن معظم المؤرخين الجدد ولدوا حوالى عام 1948، ونضجوا فى جو مفتوح.. كثر فيه الشك والنقد الذاتى أكثر مما كان عند مؤرخى إسرائيل قبل عامى 1967و1973، وحرب لبنان عام 1982.

وعلى عكس المؤرخين الإسرائيليين الذين سبقوهم، يعكف المؤرخون الجدد على نقد المقولة الأساسية التى قامت عليها إسرائيل "أرض بلا شعب لشعب بلا أرض".

• • •

يحتاج الفكر العربى إلى حركة فكرية موازية.. حركة متوازنة وذات خطاب إنسانى عالمى، تكون مهمتها نقد الصهيونية، على أن تكون أقل انفعالاً مما كان يجرى فى العالم

العربى سابقاً، وأكثر وضوحاً وتبياناً مما يجرى لدى المؤرخين الجدد حالياً.

وتحتاج هذه الحركة الفكرية بدورها إلى أن تكون بالإنجليزية أو تترجم إليها.. نفس الميكانزم الذى يتخذه إطار ما بعد الصهيونية..

وكم سيكون مفيداً لو تجاورت مؤلفات نقد الصهيونية، العربية والإسرائيلية، معاً فى المكتبات الغربية، وسيكون الأمر أكثر إفادة لو جرى نقل وتطوير الكثير من المعلومات والتحليلات الإسرائيلية نفسها.. فى هذه الكتابات.

والأمر لا يستهدف فقط توريط الفكر الإسرائيلى فى دعم الهدف العربى، بالتأكيد على أوجه التطابق والتشابه والتقارب.. بما يجعل الخطاب العربى فى الغرب أكثر ذكاءً وحضوراً، ولكنه يتجاوز ذلك الى تأسيس مكانة جديدة للفكر السياسى العربى الذى طالما خسر معاركه مع الفكر السياسى الإسرائيلى..

ومن الممكن أن يكون التقليد الشهير فى المؤلفات العربية.. "الشرح على المتون" هو الخطوة الأولى إلى غايات الفكر السياسى العربى، أى أن تنشأ موجة تأليف عربية باللغة الإنجليزية، هدفها شرح وتفسير وتحليل مؤلفات مؤرخى ما بعد الصهيونية.. أى إعادة تقديم الرؤية الإسرائيلية فى نقد الصهيونية. ثم تكون الخطوة الثانية فى التحول من "إعادة التقديم" إلى "إعادة الإنتاج" أى ادخال الرؤية العربية إلى جوار الرؤية الإسرائيلية فى عمليات التأليف.. وصولاً إلى تغليب الرؤية العربية حتى لا تكون مراجعات "ما بعد الصهيونية" إلا هوامش على المتن العربى الجديد.

• • •

قد تبدو مثل هذه التصورات نوعاً من "الهندسة الفراغية".. تلك الرسوم والخطوط التى تعمل ما بين العقل والفراغ، غير أن الصهيونية ذاتها لم تكن غير ذلك، ثم كان تجسيد الخيال وتأطير الفراغ.. وإقامة دولة من الذاكرة.

كان "ناحوم جولدمان" أحد أبرز زعماء المنظمة الصهيونية العالمية فى نهاية السبعينات فى مقدمة الداعين إلى التخلى عن الصهيونية كحل للمشكلة الإسرائيلية.

ومنذ نهاية السبعينات إلى نهاية التسعينات تزايدت الآراء والأفكار الداعية إلى تجاوز الصهيونية إلى ما بعدها.

وفي مؤتمر بازل الذى انعقد فى سويسرا عام 1997م فى مناسبة مرور مائة عام على مؤتمر بازل 1897م.. دعا "ابراهام بورج" رئيس المنظمة الصهيونية العالمية كل الصهاينة فى العالم إلى منع إسرائيل من اضطهاد الغير، واعترف بأن الكثير من الأخطاء قد ارتكبت فى حق الفلسطينيين.

والأمر يتعدى بعضاً من قادة المنظمة الصهيونية العالمية إلى عدداً أوفر من المفكرين الإنسانيين والمؤرخين الإسرائيليين.

ويذكر "روجيه جارودى" و"جاك فيرجيس" فى كتابهما "محاكمة الحرية" أن الصهيونية تبدو اليوم، وأكثر من أى وقت مضى، حركة قومية عدوانية واستعمارية.

ويستشهد جارودى فى معرض دفاعه عن وجهات نظره خلال محاكمته التى جرت فى فرنسا عام 1998م بسبب نشر كتابه "الأساطير المؤسسة لدولة اسرائيل".. بما جاء فى كتاب "انحلال اليهودية" للحاخام "موشى مونهين" الذى لم "يقل شيئاً مخالفاً لما أقول به".

وحسب "مونهين" فإن الصهيونية هى التعبير الأكثر وضوحاً لانحلال اليهودية، ثم يوجه الحاخام نداءه إلى الإسرائيليين: "أود أن أقول لكم عودوا إلى إله آبائنا، إلى اليهودية التى جاء بها الأنبياء، ارفضوا ديانة النابالم، عودوا إلى الحدود التى أعطيتم إياها عام 1947 من قبل الأمم المتحدة رغماً عن العرب الفقراء، وعيشوا حياة بناء لا هدم"..

• • •

وفى كتابه "اليهودية ضد الصهيونية" الصادر عام 1969م كتب الحاخام "ايمانويل ليفين" يقول "إن الصهيونية تقودنا إلى كارثة".. وباسم اليهودية وضد الصهيونية، رفض "بيار مانديس وناحوم جولدمان" الغزو الإسرائيلى للبنان 1982م.

ويذهب المؤرخ البريطانى "أريك هوبسبوم" فى حديث له أمام الجمعية التاريخية

البريطانية إلى نقد أوسع للصهيونية وللدولة التى انتجتهـا.. يقـول هوبـسبوم: "لـست فـى حاجة للقول بأن مفهوم الصهيونية الذى يتمثل بالذات فى إقامة دولة قومية علمانيـة علـى أرض محددة، لمن جرى تعريفهم بالشعب اليهودى، إن هذا المفهوم قد ذهب فى اتجاه مضاد كلياً للتاريخ اليهودى منذ ألفى سنة.. بل هو مضاد للتاريخ اليهودى بأكمله"..

"إن مملكتي يهوذا وإسـرائيل كمـا عرفنـا فـى التـوراة لا تـشبهان فـى شـىء الدولـة القومية التى كانت فى ذهن تيودور هرتزل فى القرن التاسع عشر"..

"ولا توجد على الإطلاق استمرارية تاريخيـة بـين فلسطين مـا قبـل تـدمير الهيكـل الثانى وبين فلسطين ما بعد وعد بلفور"..

"وأما اللغة العبرية المتعارف عليها اليوم، فلم يتحدث بها أحد فى عصر الهيكـل، حيث كانوا يتكلمون اللغة الآرامية، كما أن أحداً لم يتحدث بالعبريـة فـى المرحلـة المبكـرة للصهيونية، حيث كانوا يتكلمون "اليديش" لغة يهود شرق أوروبا".

* * *

ينتقل المؤرخ البريطانى "دافيد ايرفينج" إلى الأحداث اللاحقة ليفضح أكثر عن حجـم الخداع الذى مارسته الصهيونية، ذلـك الخـداع الـذى يمتـد مـن تزييـف الماضـى البعيـد إلى تزييف الماضى المعاصر.

يقطع ايرفينج بأن المحرقة نظرية مفبركـة، وأن غـرف الغـاز النازيـة لم يكـن لهـا وجـود، وأن الجيـل الجديـد فـى أوروبـا ينظـر إلى اليهـود وقـضية التعويـضات باعتبـارهم مبتزّين. وبالمقابل فإن هناك انبعاث للحركات المعادية لليهود بين الشباب الأوروبي، الـذين يقومون بتدنيس المقابر اليهودية أو رسم إشارة للصليب المعكوف على جدران المعابد.

ويعود المؤرخ اليهودى الأمريكى "دانيال جولد هاجن" بهذه المشاعر إلى وقت سـابق، فعندما قام هتلـر بـضم النمـسا إلى ألمانيـا، كـان النـازيون النمـساويون يبولـون علـى النـساء اليهوديات اللواتى كن يعملن فى تنظيف شوارع المدينة وهن جاثيات على ركبهن وأيديهن!

ولم يكن هذا التصرف - في رأي جولد هاجن - تنفيذاً لتعليمات رسمية لكنه كان تصرفاً عفوياً من الناس أنفسهم.

• • •

لكن إنكار "ايرفينج" للمحرقة ونفيه التام لوجود غرف الغاز جاء بعيدًا عن معظم الإجتهادات الغربية بل وغير الغربية التي تجادل في الحدود لا في الوجود.. أي في حدود المحرقة لا وجودها.

• • •

قريباً من آراء ناحوم جولدمان وابراهام بورج وبيار مانديس، ومن أفكار روجيه جارودي، وجاك فيرجيس، وموشي مونهين، وايمانويل ليفين، واريك هوبسبوم، ودافيد ايرفينج.. دارت دراسات ومؤلفات مؤرخي ما بعد الصهيونية في إسرائيل.

جاءت هذه الدراسات من بعد إحساس عام بأن المشروع الصهيوني قد وصل منتهاه، وأنه قد حقق أغراضه التي قام من أجلها.. أصاب في ذلك أم أخطأ، وأنه قد حان وقت التحول.

إن انهيار الإتحاد السوفيتي، وهجرة اليهود الروس.. بما قد يجعل معظم يهود العالم في إسرائيل.. قد دفعا إلى هذا التحول.

وإذا ما أضيف لذلك الأثر الواسع لعملية التسوية برغم أزماتها على المستوى السياسي، ثم لاتجاهات ما بعد الحداثة الأمريكية التي غزت المجتمع الإسرائيلي على المستوى الثقافي والمعيشي.. تبدو عملية التحول حينئذ أكثر من ضرورة.

• • •

يصل "عازر سكويد" في مقال له حول "أهداف الصهيونية اليوم" نشرها في ذكرى مرور نصف قرن على قيام إسرائيل.. إلى أن أهداف الصهيونية - في نظر تيار واسع - قد تحققت، وينبغي الآن السعي لتحقيق الأهداف العادية التي تسعى لها الأمم المستقرة بأمان في دولها، مثل رفع مستوى المعيشة، وترقية مستوى الوجود الاجتماعي والثقافي.

ويتعبير أحدهم.. فإذا كانت الصهيونية هي دواء معين، فيجب تخفيف الجرعة من هذا الدواء، لأجل استكمال بناء المجتمع والدولة في إسرائيل. وعلى ذلك فإن الهدف الرئيسي للصهيونية اليوم.. ينبغي أن يتحول، لتكون إسرائيل هى المركز الروحى ليهود العالم.

وهو الهدف الذى عبرت عنه أفكار الفيلسوف اليهودى "آحادها عام" الذى كان داعياً للصهيونية الروحية ومعارضاً للصهيونية السياسية.

ولا يبتعد كثيراً الهدف الذى يضم "عازر سكويد" للصهيونية اليوم عن ذلك الذى وضعه الصحفى الإسرائيلى "عاموس إيلون" في مقال طويل نشرته صحيفة "نيويورك ريفيو" فى 19 ديسمبر 1996م. بعنوان "إسرائيل ونهاية الصهيونية".

يقول إيلون في شأن حرب 1967.. إن صورة الصهيونية كحركة تحررية علمانية فى التقاليد الليبرالية الأوروبية تغيرت بعدها، بسبب ما أحدثته من صحوة قومية دينية أصولية فى إسرائيل.

فقد خلق النصر فى هذه الحرب لدى الإسرائيليين شعوراً بالذاتية وساهم فى انغلاق العقلية السياسية، بعد أن أعطتهم الحرب لأول مرة ما اعتقدوا أنه حدوداً آمنة.

وعلى ذلك، لم تعد "المباراة الصفرية" قائمة بين إسرائيل ومنظمة التحرير، وأمكن بالتالى السعى لمقايضة الأرض بالسلام.

ويرى إيلون أن الصهيونية كأيديولوجيا قد حققت بذلك أهدافها، وأن المجتمع الآن فى ظل التركيبة الاثنية الحساسة، أى وجود مليون عربى يمثلون خمس عدد السكان، فى حاجة إلى مبادىء أقرب للتوجه الغربى التعددى، وأكثر مرونة وأقل أيديولوجية وهو ما يستدعى كذلك إعادة النظر فى عدد من القوانين وعلى رأسها قوانين العودة.

• • •

هنا يبرز التحذير الذى أطلقه وزير الهجرة الإسرائيلى عام 1995م من أنه إذا لم يعاد النظر فى القانون، فإن ما بين (8 إلى 10) مليون يهودى يحق لهم "العودة" واكتساب

المواطنة.. في الوقت الذى تعاني فيه الدولة من الازدحام والاختناق!

ويلفت الانتباه في رؤية "عاموس إيلون".. إرجاعه أفكار ما بعد الصهيونية إلى آراء بن جوريون عام 1951م.. عندما ذكر أنه لم يعد هناك حاجة للصهيونية بعد الاستقلال وبناء الدولة على أساس الأغلبية اليهودية.

• • •

بعد (30) عاماً أكد الفيلسوف "يرنكر" أن المسألة ليست أن الدولة قد تأسست.. بل إن معظم أهداف الصهيونية قد تحققت وعلى هذا فقد استنفذت الصهيونية أهدافها، وأن إسرائيل في طريقها لعصر ما بعد الصهيونية.

وينتهي إيلون إلى أن فكرة عودة يهود العالم، ينظر إليها الآن من جانب المفكرين اليهود ككارثة. وتكفي الصهيونية ما بذلته في بناء الديمقراطية واستخدام اللغة القديمة على نطاق واسع، و"منح حياة جديدة للخائفين والمعذبين" ثم النجاح الإقتصادى، والتصالح مع مصر والأردن والفلسطينيين بعد عقود من القتال بين العرب واليهود.

وإذا كانت فكرة الدولة الواحدة ثنائية القومية التي يدعو إليها عزمي بشارة وآخرون الآن هي - برأي إيلون - فكرة بن جوريون قبل ثلاثة أرباع القرن، فإن عملية التسوية التي شرعت في مدريد عام 1990م قد قامت على أساس السعي نحو دولتين طبقاً لحدود 4 يونيو 1967م. وهنا يخطو "آلان بابيه" إلى اقتراح وسيط ما بين الدولتين والدولة الواحدة.

• • •

"بابيه" هو أحد أبرز المؤرخين الجدد.. يعمل أستاذاً للتاريخ والعلوم السياسية في جامعة حيفا، وقد شارك كجندى في حرب أكتوبر على هضبة الجولان، ثم قضى ثلاثة أعوام يدرس بالجامعة العبرية بالقدس لعرب إسرائيليين ولإسرائيليين يهود. ثم التحق بجامعة اكسفورد، وصادق مؤرخين عرباً ومستشرقين منهم ألبير حورانى، والبريطانى روجر أوين، وهو ليس شيوعياً ولكنه عضو في حزب حاداش (الحزب الشيوعى السابق) من منطلق أنه الحزب المفتوح لكل طوائف إسرائيل دون تمييز.

وقد ألف كتاباً عن عائلة الحسيني الفلسطينية العريقة، لدحض أسطورة أن فلسطين كانت قبل هجرة اليهود إليها أرضاً بلا شعب.

يقترح "آلان بابيه" في كتابه الذي صادرته السلطات الإسرائيلية فور صدوره "حرب 1948 في فلسطين.. أصول النزاع العربي - الإسرائيلي".. بناء عملية السلام على أساس 1948 وليس 1967.. فالقضية ليست إزالة آثار عدوان 1967، ولا مستقبل غزة والضفة، وإنما مشروعية وجود إسرائيل كدولة في نظر الشعوب الأصلية بالمنطقة.

يقول بابيه: "إن إسرائيل تتحمل القسط الأعظم من المسئولية في المأساة التي وقعت وقتذاك، وخلقت جداراً من الكراهية المتبادلة، وكذلك القادة الفلسطينيون والإدارة البريطانية، والرئيس ترومان الذي كان أكثر إهتماماً بإعادة انتخابه أكثر من إهتمامه بما كان يجرى في معسكرات اللاجئين".

إن بابيه لا يقدم طرح الدولة الواحدة ثنائية القومية، ولا الدولتين القائمتين على موازين عام 1967م، وإنما يقدم اقتراحاً ثالثاً يقوم على دولتين طبقاً لموازين عام 1948م.

وهكذا فإذا كانت فكرة الدولة الديمقراطية الواحدة يعود بها عاموس إيلون إلى طرح بن جوريون عام 1924م، وفكرة الدولتين في إطار عملية مدريد تعود إلى الطرح العربي وإلى قرارات الأمم المتحدة بعد 1967م، فإن فكرة "آلان بابيه" تعود إلى الطرح الإسرائيلي وإلى قرارات الأمم المتحدة بعد عام 1948م.

ويعلق "محمد سيد أحمد" على اقتراح "آلان بابيه" قائلاً.. لقد ثبت أن هناك مشكلات لا حل لها في إطار التسوية الراهنة، قضية اللاجئين مثلاً، وليس متاحاً للدولة الفلسطينية المتآكلة إذا قامت أن تستوطنهم جميعاً، ومعنى ذلك تعليق مشكلتهم مبدئياً للحل.. وهو طرح سبقت أن تقدمت به أطراف عربية وفلسطينية ولم يسبق أن تقدمت به أطراف إسرائيلية.

ثم يمضي "محمد سيد أحمد" مثمناً هذا الطرح.. "إن آلان بابيه ينهض نموذجاً للإسرائيلي الذي ينبغي أن نمد إليه أيدينا.. ذلك أن نصرة آرائه نصرة للإنصاف والحق

والعدل.. وإنصاف للسلام".

• • •

البادى من هذا العرض.. تلك المفارقات التى لا تهدأ فى التعبير عن نفسها فيما جرى من وقائع الصدام وهواجس السلام. ففيما يبدو طرح الدولة الديمقراطية العلمانية الواحدة فى فلسطين حلماً مثالياً فى الوقت الراهن، تشير دراسات المؤرخين الجدد أنه كان اقتراح بن جوريون عام 1924م، وفيما يبدو طرح الدولتين على أساس حدود 1948 حلماً بعيداً، يقول البعض أنه كان مقبولاً من إسرائيل عام 1948م.

ثم تأتى المفارقة الثالثة فى ذلك السعى العربى الدؤوب نحو تسوية على أساس حدود 1967 ثم صعوبة ذلك وشدة تكاليفه.. شهيداً وراء شهيد وقمة وراء قمة.

إن الأمور على ذلك تبدو فى غير صالح الجانب العربى.. الذى رفض الدولة الواحدة 1924، ورفض الدولتين 1948، ثم رفض الدولتين 1967 فيما كانت إسرائيل على الجانب الآخر تبادر وتواجه الرفض.

• • •

الواقع.. إن جانب من ذلك يمثل الحقيقة، على أن الجوانب برمتها تمثل المأساة، فالجانب العربى كان يرى أن الدولة الواحدة والدولتين هو أمر خارج التاريخ وخارج الأخلاق.

. فليس من مبادىء الحياة ولا منطق الأشياء أن يأتى الغاصبون فيمكّنوا لأنفسهم، ثم يبدأون عروضاً بالتنازل عن بعض المغتصبات نظير قبول الأغلب منها،ثم تتوالى الأقدار أفعالها فيكون رفض المستضعفين لمنطق الإغتصاب مقدمة لمزيد من السطو فى جانب والضعف فى جانب، حتى تبدو العروض الأولى للمغتصبين فرصاً عظمى فاتت لضيق الرؤية وتهافت الرأى.

وعلى ذلك.. فما قدمه بن جوريون عام 1924م هو طرح بائس وظالم وكان من الطبيعى رفضه فى الحال. وربما يرى البعض أن ذات الظروف قد تكررت فى الطرحين التاليين 1948و 1967 .

على أن مثل هذا الرأى لا يمكن قبوله على اعتبار التماثل بين التواريخ الثلاث. كان لعام 1924م ظروفه وملابساته، وقد حدث أن انقضت سنوات بعده ثم ظهر أن الرفض الأخلاقى هو رفض لا طائل منه، وأن الإستعلاء الخطابى هو ضرب من الوهم، وأنه إذا كان القبول بنتائج جريمة تجرى أمامنا هو قبول مشين، فإن التقاعس عن تغيير ما يجرى هو العار الأكبر الذى سيلاحق الجباه والنفوس.

* * *

هنا يقتضى منطق الأشياء.. من جديد، أن يكون قبول الظلم الأصغر هو الخيار الأفضل فى حالة العجز عن التصحيح.

كان رفض "الظلم الأصغر" ممهداً لمجىء "الظلم الأكبر".. وهنا "أعظم الأخطاء" التى ارتكبها الجانب العربى فى القرن الأول من الصراع.

جاء الرفض من جانب الكثيرين يفتقد الحكمة.. ويفتقد الإخلاص معاً، حيث خطى الخطأ إلى الخطيئة، فقد انتبه الذين يفتقدون الحكمة إلى خطأ الطريق، ثم رأوا أن مصالحهم تكمن فى إعادة إنتاج الخطأ من أجل البقاء والاستمرار.

وجرت مراسم سب إسرائيل ليل نهار، وجرى التأكيد على أن حدود 1948 خيانة، وحدود 1967 خيانة، وكل الخيارات خيانة.

ولم يزد هؤلاء عن زينة القول وخشونة الصوت.. إلى أن جاءت سنوات أشد ظلاماً وضلالاً.. فراح الذين كان يسبونها بالأمس.. يقولون: أنَّى تعود هذه المبادرات بعد موتها، وراح الزاعقون الصاخبون الذين رفضوا (1948) وهم أحياء يرزقون، ثم رفضوا (1967) وهم ذوى سلطة وقدرة، يتسابقون على قبول "الظلم الأكبر"، بعد أن صار هو ذاته مستحيلاً.

وهكذا.: توافق الرفض العربى للظلم الأصغر مع العرض الإسرائيلى بقبوله.. اتفقا العرض والرفض معاً على التمهيد للظلم الأكبر الذى جاء بجهود الطرفين دون تقصير.

* * *

واصل المؤرخون الجدد عملياتهم لإعادة النظر فيما كان، ونرعوا في سبيلهم تلك العقود البائسة جيئة وذهاب.. ما بين النكبة والنكسة وما حولهما. وتوالت رؤى وآراء تبحث في "الظلم الأكبر" وتبدى بعض الندم وبعض الاعتذار..

• • •

يقرر "إسرائيل شاحاك" أن حقيقة أوضاع القرى العربية التي كانت موجودة قبل 1948 مكان الأرض المقامة عليها إسرائيل الآن، هي من أشد الأسرار صوناً في الحياة الإسرائيلية، فقد قرأنا في كتب المدارس عن أرض بلا شعب، بينما هناك (385) قرية عربية دمرتها وأبادتها إسرائيل من أصل (475) قرية كانت موجودة قبل 1948، وتم إرغام (750) ألف فلسطيني على الرحيل، وتم حفر مقابر جماعية للقتلى منهم في دير ياسين وناصر الدين وبيت داراس.

ويسلم "ميرون بنفستي" في كتابه "المكان المقدس.. التاريخ المطمور للأرض المقدسة منذ 1948" الذي أصدرته جامعة كاليفورنيا عام 2000م بأن طرد الفلسطينيين بعد 1948 كان تطهيراً عرقياً وتتحمل دولة إسرائيل المسئولية عنه، وإن كانت عمليات "تدمير القرى وطرد السكان "قبل 1948 لا تمثل - في رأيه - تطهيراً عرقياً.. وإنما هي عوارض حرب، يعرض بنفستي - الذي ولد لأب كان معلماً وصهيونياً عتيداً صار نائباً لرئيس بلدية القدس - في كتابه.. تلك الحوادث التي تبين أن تدمير فلسطين بناسها وعمرانها وتاريخها كان شرطاً أساسياً في الخطة الصهيونية لإنشاء إسرائيل.

ويصف كيف تكونت لجنة أشرف عليها بن جوريون في مطلع إنشاء إسرائيل، لكي تكون مهمتها إزالة كافة الأسماء العربية والإسلامية من الخرائط واختراع أسماء عبرية لها.

ويصل "إسرائيل شاحاك" إجمالاً إلى اتهام إسرائيل بالتطهير العرقي، وإلى وصفها بالعنصرية الكاملة.

"إسرائيل شاحاك" أحد أبرز المؤرخين الجدد وأكثرهم احتراماً.. كان صهيونياً شديد

الانبهار بديفيد بن جوريون، على أنه سرعان ما أعاد النظر بعد أن أصدر بن جوريون كتابه "مملكة إسرائيل الثالثة" التي بسط فيها نظريته العدوانية، ثم بعد متابعته لأحداث 1956 و1967 ومجزرة كفر قاسم.

ويرى الإسرائيليون في بشاحاك واحداً من "كارهي أنفسهم" والخارجين عن دينهم والناقمين على هويتهم من أجل رضا الآخرين.. وقد تم تهديده بالقتل عدة مرات، قبل أن يغادر الحياة في يوليو عام 2001م.

• • •

يذهب "أوري رام كنوع" قريباً من شاحاك ومتوازياً معه.. من نقد العنصرية إلى نقد الاستعمار. ويمثل "رام كنوع" ما يمكن تسميتهم بعلماء الاجتماع الجدد.. أولئك الذين يعيدون النظر من منظور علم الاجتماع بالإفادة من علم التاريخ.

يذهب الباحث في دراسته "الموقف من الكولونيالية في علم الاجتماع الإسرائيلي" إلى أن الفكر العربي ينظر إلى المجتمع الإسرائيلي باعتباره مجتمعاً استعمارياً، وقد انتقلت هذه الرؤية العربية إلى الدوائر الراديكالية الغربية في أوائل السبعينات، فالمستشرق الفرنسي "مكسيم رودنسون" ينظر إلى إسرائيل باعتبارها دولة استعمار استيطاني.. وهو واحد من هذه الموجة.

ويرصد "رام كنوع" تزايد الدراسات الإسرائيلية التي تعيد توصيف الصهيونية وتضعها في قائمة الحركات الاستعمارية التي استوطنت الأرض وطردت السكان الأصليين..

وهي دراسات يستلهمها التيار الجديد في علم الاجتماع الإسرائيلي، والذي يستخدم المنظور الاستعماري للتعرف على طبيعة المشروع الصهيوني في فلسطين.

والنتيجة التالية لذلك:. هي اعتقاد علماء الاجتماع الجدد في أن الجولة الثانية من الاستعمار والتي بدأت عام 1967م واعقبتها زيادة حركة المستعمرات في الضفة وغزة هي خطر يتهدد المجتمع الإسرائيلي نفسه، وأن تقسيم الأرض المتنازع عليها هو طرح لا بديل

عنه. ويذهب "ديفيد جروسمان" إلى نفس التقدير الذى يرى فى حرب 1967 تأكيد لأزمة لا خروج منها.

• • •

يعرض "جروسمان" فى كتابه "الهواء الأصفر" مفارقة النجاح والفشل فى صعود وهبوط دولة إسرائيل، فعلى الرغم من كل النجاحات التى حققتها إسرائيل بفكرها الصهيونى على مدى خمسين عاماً.. أبرزها اندماج مجتمع المهاجرين وتحقيق إنجازات فى حقل العلوم والتكنولوجيا، فضلاً عن مجالى الزراعة والصناعة، فإن مجتمعها لايزال يعيش وسط شعور بالضيق والقلق.. الأمر الذى وضع المجتمع الإسرائيلى فى أزمة تتصاعد أبعادها منذ ثلاثة عقود.

فقد أدت حرب 1967 إلى وقوع المجتمع اليهودى أسير تصور غير حقيقى حول قدرة إسرائيل التى لا تقهر، وانطلق الفكر التوراتى الجامح يعدو بعيداً بعينًا.

إلى أن جاء زلزال أكتوبر عام 1973م لينكشف الزيف والضعف.. وهو الزلزال الذى يراه "جروسمان" سبباً فى تفجير ينابيع جديدة للفكر اليهودى تعتمد على فكرة السلام كحل لمشكلات إسرائيل الخارجية والداخلية، وتبلور فكرة "السلام الآن" فى شكل حركة عقب مبادرة السلام التى قام بها الرئيس السادات عام 1977م.

ومع الغزو الإسرائيلى الفاشل للبنان عام 1982م ازداد تأثير هذه التغيرات الفكرية عمقاً ووضوحاً خاصة بعد وقوع مذبحة صابرا وشاتيلا.. الأمر الذى أدى إلى تعرية مساوئ الفكر الصهيونى وبالتالى تنامى حركات السلام، وقد كشفت الإنتفاضة الفلسطينية الأولى فى سبتمبر 1987 والتى قام بها جيل من الصبية ممن ولدوا بعد يونيو 1967 فى كشف واقع إسرائيل.

ويصل "جروسمان" إلى أن التصاعد الدينى الحاد منذ 1993، جعل ثلث الإسرائيليين يعتقدون بأن الخلاف الدينى العلمانى سيؤدى إلى حرب أهلية، وجعل

العلمانيين يطالبون بتقسيم فلسطين إلى ثلاث دول، الأولى للمتطرفين الأصوليين، والثانية للعلمانيين، والثالثة للفلسطينيين.

• • •

يجعل "بنيامين هالحمي" القول بأن إسرائيل تعيش منذ عام 1973م "أزمة إيمان". وهالحمي هو أستاذ علم نفس الدين في جامعة حيفا، ومثله مثل جروسمان يقمان فكرياً ضمن تيار ما بعد الصهيونية.

يكشف هالحمي عن إحساس جمعي بالتفكك والإنحلال، وتناقص في السيطرة، بعد أن خيّم الإحساس بالعجز على الجميع.

ولا تمثل هذه الحالة وعكة صحية، بل هي أزمة حادة.. أزمة فقدان الحلم المساعد على الأمل والعيش.

إن أسباب ذلك الشعور الحاد بتفكك المجتمع تعود إلى الزلزال الذى ضرب إسرائيل فى حرب 1973، وكان بداية الإنتكاسات والتراجعات الدبلوماسية والإقتصادية. وقد بدا المزاج الإسرائيلى منذ 1973، وأكثر منذ حرب لبنان 1982، وأكثر وأكثر منذ الإنتفاضة الفلسطينية 1987 متعباً ومحبطاً.

ففى عام 1973م تحطّم الحلم، ولم تفعل الرؤية الصهيونية التى وعدت بإنتهاء التاريخ المأساوى لليهود، لم تفعل شيئاً من ذلك، وأصبحت إسرائيل فصلاً جديداً فى التاريخ العاثر لليهود.

ويخلص "هالحمي" متألماً.. إلى أن الإنتفاضة الأولى كانت صدمة كبيرة للشعب الإسرائيلى كله، بل إنها ربما كانت أقوى من حرب 1973، لأنها أعادت الحركة الصهيونية برمتها إلى نقطة الصفر تقريباً، بعد أن انفتحت عين المجتمع الإسرائيلى على وجوده الاستعمارى فى مواجهة السكان الأصليين.

• • •

ما يقوله "هالحمى" بالغ القيمة فى كشف محنة ما وراء إسرائيل، تلك النفوس المتكسرة والقلوب المحبطة.. تلك الهزيمة أمام الذات والخسارة أمام الآخر.

ذلك الغليان الذى يمضى بغير سحب.. والذوبان الذى يجرى بغير قاع. إنها محنة الذات التى لم ترفعها السياسة ولم تدفعها الوفرة، وبينما كانت وسائل الإعلام تنقل أنباء القوة والسيطرة، كان الإسرائيليون فى واقع آخر.. شعور آخر، لا ينفعهم توسّع، ولا تفيدهم قوة.

• • •

تنقّل المؤرخون الجدد فى دراساتهم بيسر واضح بين نقد الوقائع ونقد الأساطير، إذ لم تكن المسافة واضحة بين الواقع والأسطورة.. وفضلاً عن جملة الأساطير الكبرى التى بنيت عليها الصهيونية، كانت هناك الأساطير الأصغر التى ساهمت فى التنفيذ، أى كانت هذه الأساطير الأصغر بمثابة اللائحة التنفيذية للأساطير الكبرى.

وقد اختص "نحمان بن يهودا" فى دراسته "أسطورة الماسادا" التى يمكن اعتبارها كبرى الأساطير الصغرى.. بإهتمام وفير. وتزعم الأدبيات الصهيونية الحديثة أن "الماسادا" هى قصة نهاية بطولية حزينة للثورة اليهودية الكبرى ضد الرومان.. حيث فضلت جماعة من "المناضلين اليهود" الفارين من القدس.. الانتحار فى قلعتهم على أن يستسلموا للرومان ويصبحوا عبيداً لهم أو يموتوا ميتة فظيعة على أيديهم.

على أن البحث التاريخى فى المصادر القديمة والحديثة يفضى - حسب بن يهودا - إلى اكتشاف أن من يُعدّون فى عرف اليهود أبطالاً كانوا مجرد عصابة من القتلة تدعى "السيفارى"، وقد عُرفت بلجوئها للإغتيال السياسى، وكانت تقوم بذلك ضد اليهود والرومان على حد سواء، وقد طُرد هؤلاء على يد اليهود لا الرومان، وهلكوا فى أعالى الماسادا.

• • •

كان "موشى دايان" رئيس الأركان الإسرائيلى يستلهم الماسادا فى حرب 1967،

وكان ينادى جنوده "قاتلوا ولا تستسلموا". وينقل "بن يهودا" عن موشي دايان أن "الماسادا أصبحت في نظر الشعب اليهودى رمزاً للبطولة والحرية". وبفعل ذلك، كان الجنود الإسرائيليون ينطلقون تدميراً وترويعاً بلا هوادة، ومع زحمة الأساطير، لم يكن القاتلون يشعرون بفداحة ما يفعلون، بعد أن ساد الجميع قناعة واضحة: المزيد من القتل ينهى المشكلة إلى الأبد.

* * *

تزاحمت دراسات جيل المؤرخين الجدد التى تعيد النظر فى الواقع والأسطورة، وحملت دراساتهم هامشاً مقبولاً من الاعتذار. وعلى نحو خاص فإن ما يمثله "إسرائيل شاحاك" يمثل الكثير من الاعتراف والرغبة فى التصحيح.. وبعده تتفاوت الجهود والنوايا.

وتجدر الإشارة هنا إلى رؤية بعض المتأملين فى خيارات ما بعد الصهيونية، وفيهم من يطلقون على أنفسهم "تيار البديل التقدمى للصهيونية"، والذى يتصدره "ميخائيل فارشوفسكى" مدير مركز المعلومات البديلة بالقدس.

* * *

يلخص "فارشوفسكى" الفلسفة الصهيونية فى جدل العلاقة بين مفهومى الأقلية والأغلبية.. فمعاداة السامية مفهوم قديم ارتبط باليهود طالما كانوا يعيشون فى وسط غير يهودى، وفى حالة تحولهم إلى أغلبية فى أى مكان.. يحاولون التخلص من عقدة الأقلية التى تخنقهم. ولذلك أصبحت هجرة اليهود إلى إسرائيل الطريق المباشر لإنهاء وضعهم كأقلية بحيث تكون الهجرة محاولة لصنع أغلبية.

ولذلك، لم يكن قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين 1947 مقبولاً من بن جوريون والقيادة الصهيونية لأنه يعنى أن الدولة اليهودية ستضم (45٪) من سكانها عرباً، وهكذا كان طرد الفلسطينيين من أراضيهم جزءاً من خطة وليس مجرد حادث فى إطار الحرب العربية - الإسرائيلية.

ويحدد فارشوفسكى الدور الأساسى للتقدميين فى إسرائيل فى تذكير الإسرائيليين

دائماً أن المكان الذي نعيش فيه هو مكان العرب.. مكان ذو تاريخ عربي وحضارة عربية وأمة عربية كبيرة، ولذا يجب أن نتصرف كأقلية.. وأن نحترم حقيقة أننا كذلك في عالم عربي، وأن نبدي استعدادنا لأن نكون جزءاً من المنطقة وتطلعاتها للوحدة والإستقلال والتنمية والحرية.

وهذا هو البديل التقدمي.. أما مشروع بيريز حول الشرق الأوسط الجديد فهو استمرار للفكر الصهيوني القديم، ويجب على المنظمات التقدمية العربية أن تعاون وأن تناضل مجتمعة لإعادة بناء الوحدة العربية ضد الإمبريالية.

وهكذا.. يتجاوز فارشوفسكي الصهيونية إلى الوقوف تماماً في صفوف اليسار العربي.. وبنفس المفردات من الوحدة والإستقلال إلى مجابهة الإمبريالية.

وقد أدت آراء إسرائيل شاحاك، وآلان بابيه، وفارشوفسكي ممن كانوا أكثر موضوعية في جملة المؤرخين الجدد إلى إطلاق موجة نقد عنيفة ضد التيار بكامله.

• • •

لقد جرى وصف تيار ما بعد الصهيونية بالسطحية والجهل المعرفي والخيانة للمشروع الصهيوني وخيانة دولة إسرائيل.

ويذكر الباحث اليهودي الأمريكي "ايان لوستيك" أن حدة الجدل حول ما يقوم به المؤرخون الجدد تصل إلى اتهام الظاهرة كلها بالتحريف والخيانة والرغبة في تدمير إسرائيل، وذلك لكون المؤرخين الجدد لا تمنح دراساتهم التجربة التاريخية لليهود والأيديولوجيا والممارسة الصهيونية مكان الصدارة في السرد.

وفي كتابه "فبركة التاريخ الإسرائيلي.. المؤرخون الجدد" الصادر عام 2000م عن دار "فرانك كاس" في لندن.. يشن أستاذ الدراسات المتوسطية في جامعة لندن "افرايم كارش" هجوماً شديداً على المؤرخين الجدد.

يربط "كارش" في كتابه بين تطور أفكار المؤرخين الجدد وتيار "ما بعد

الصهيونية".. والمراجعات التى تدور حول ضرورة انتقال إسرائيل إلى "مرحلة النضج" بعد الإنتهاء من مرحلة التأسيس، ونبذ الكثير من مكونات الفكرة الصهيونية التقليدية مثل تفرّد القومية اليهودية ونقاء الشعب اليهودى.. بعد أن بلغت الدولة مرحلة الثقة بالنفس وتقبل ترف اخضاع المقولات الأساسية للبحث.

انطلق "كارش" فى كتابه هذا، ثم فى فصليّة "ميدل إيست كوارترلى".. وفى اللحق الأدبى لصحيفة "التايمز" البريطانية ليشن هجوماً واسعاً على الفكرة والمفكرين.. مختصاً منهم إيلان بابيه وآفى شلايم، ثم متوسعًا ليشمل الآخرين.

يرى "كارش" أن تيار ما بعد الصهيونية قد قام بمراجعات ساذجة لا علاقة لها بالعمل الأكاديمى، فالمؤرخون الجدد غير مؤهلين أكاديمياً وأساليبهم البحثية غير موضوعية واختيارهم للوثائق إنتقائى، وهم غير مطلعين بشكل كاف، ولا يحسنون التفسير ولا التحليل، ويعتمدون اقتباسات مجتزأة من سياقاتهم، ولا يُعملون البراهين فيما يبحثون، ثم يصلون إلى نتائج خاطئة ومشوهة.. نتيجة الجهل وسوء النية معاً.

وبدوره، فقد قام "بينى موريس" بالرد على هجوم "افرايم كارش" متهماً إياه بالجهل.. وبأنه غير مؤهل أكاديمياً، وماضيه كله كان فى جهاز الإستخبارات العسكرية الإسرائيلية، وإنجازاته الأكاديمية لا تتعدى بضعة دراسات فى الإستراتيجيات العسكرية مصدرها الأساسى هو قصاصات الصحف، وذلك لا يؤهل "كارش" للدخول إلى ميدان التاريخ الذى هو أرقى من أن يصل إليه.. !

* * *

بقى الجدل على حالته بين المؤرخين الجدد وبين معارضيهم بغير حسم طيلة التسعينات، كان المؤرخون الجدد يزدادون انتشاراً وتكتسب كتاباتهم إهتماما، وكان الآخرون ينظرون فى غير تقدير ولا احترام.

ولما جاءت الإنتفاضة الثانية.. ودخلت إسرائيل أكبر مآزقها منذ نشأتها، تغيرت

الكثير من المواقف وتبدلت الكثير من الرؤى.. وتحرك الجميع نحو اليمين، واختفى هامش الاعتذار وكأن شيئاً لم يكن.

وفى تصريحه إلى وكالة رويترز للأنباء فى 27 يناير 2002م قال "بينى موريس "سوف ننتصر فى النهاية" وقال توم سيجيف "إن الفلسطينيين يدفعوننا ثانيةً للعودة إلى التوجه القبلى، والإرتماء فى أحضان الصهيونية.. وفى هذه الأعماق تصعب رؤية أفكار جديدة".. "قبل الإنتفاضة الثانية كان الإسرائيليون أكثر انفتاحاً أمام الآراء الجديدة، ولكن الإنتفاضة عادت بنا إلى مناخ تمنيت أن نكون قد خرجنا منه". ونقلت "رويترز" عن عدد من المؤرخين الجدد قولهم "إن القدرة على التعاطف مع الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الإحتلال قد انهارت تماماً".. وكانت الإعلانات تملأ الشوارع "سوف تنتصر الصهيونية".

كان هناك فى الفضاء البعيد نفر قليل مختلف.. كانوا يطلقون لافتات عليها "كفى للإحتلال.. كفى للصمت.. من يصمت فهو شريك.. من لا يرفع صوته يتحمل مسئولية الدمار المتبادل".. "حكومة شارون تقوم بأعمال شريرة ينتصب فوقها علم أسود" ولكن جريمة إسرائيل كانت أكبر من تلك الإيماءات، وكانت نكسة المؤرخين الجدد غطاء لما يجرى..

• • •

لقد اختفى المؤرخون الجدد فى أكثر الأوقات احتياجاً إليهم، وبدت آراؤهم ومؤلفاتهم أوهن من الحركة بعيداً عن رفوف المكتبات وقاعات البحث، وكأنه ينبغى الإنتظار نصف قرن من جريمة التطهير العرقي التى تجرى حتى تنكشف الوثائق ويتم النظر فيما إذا كان هناك ما يبرر الاعتذار!

بدا المؤرخون الجدد.. وكأنهم، فيما مضى من نقد واعتراف، كانوا يمارسون رياضة ذهنية وتمارين أكاديمية بغية دعم سيرتهم الذاتية.

• • •

أضاع المؤرخون الجدد فرصة ثمينة لنضال حقيقى من أجل السلام، فلا قيمة لخطاب

السلام في زمن السلام.. بل القيمة لخطاب السلام في زمن الحرب.. وللتنبيه في زمن الغفلة.. ولنداء التسوية في زمن الصدام.

تنافس المؤرخون الجدد على تسويق السلام حين كانت المفاوضات تتوالى جولاتها، وحين كان الإعلام متوجهاً إلى أنصار السلام، وكان المولون في كل مكان يخدقون على الدعوة والدعاة.. وحين انحسرت الشاشات وضاقت التدفقات.. لم يكن في إسرائيل من يواصل ما كان قبل شهور.

ومرة أخرى.. عجزت الثقافة عن مواجهة السياسة، وفشلت الكتب في ايقاف الرصاص.. وكان المؤرخون الجدد يهتفون: سوف ننتصر.. سوف ننتصر.



تجديد الصهيونية..

الشرق الأوسط الجديد



يروى الإسرائيليون فيما بينهم هذه النكتة.. "عاد جبريل إلى السماء بعد مهمة استطلاعية الى الأرض.. سأل الرب جبريل: ماذا رأيت هناك؟ قال جبريل: في أفريقيا الوضع سئ جداً.. الناس يموتون جوعاً.. وفي أوروبا.. مع أن الناس يعيشون جيداً، فإنهم غير سعداء، والسبب في ذلك هو أنه يجب عليهم أن يدفعوا أسعاراً غالية.

وفى إسرائيل فإن الوضع محيّر.. التضخم المالى مرتفع جداً، والضرائب مرتفعة جداً، ومع ذلك فالجميع يعيشون جيداً. الناس سعداء جداً.. ثم سأل جبريل الرب: وماذا إذن؟ فقال الرب: من الواضح أنهم يعتمدون علىّ لأخلصهم مرة أخرى".

ويشرح "لورانس ماير" فى كتابه "إسرائيل الآن" الذى ترجمه "مصطفى الرز" عام 1997م.. ما وراء النكتة من مفارقات الإقتصاد السياسى فى إسرائيل. ففيما تحاول تل أبيب أن تكون أكثر اكتفاءاً ذاتياً من الناحية العسكرية، فإنها أكثر اعتماداً من الناحية الإقتصادية على المساعدات الخارجية.. فقد أصبح اقتصاد إسرائيل مدمنًا للمساعدات.

• • •

فى عام 1975م كتب "أمنون روبنشتاين"، الأستاذ فى جامعة تل أبيب فى كتابه "حتى نكون شعباً حراً" يقول.. إن عدد العمال المنهمكين فى المهن الإنتاجية من صناعة وزراعة وبناء انخفض إلى (23٪)، وهو تغيير يعنى التحول من مجتمع منتج إلى مجتمع يعتمد على غيره. وخلال عقد السبعينات استهلكت إسرائيل أكثر مما أنتجت.

فى أثناء حملة انتخابات الكنيست عام 1977م حذر "ايجال يادين" زعيم الحركة الديمقراطية من أجل التغيير من أنه "ليس هناك خطر أعظم يتهدد مستقبلنا الروحى واستقلالنا أكثر من المساعدات التى نحصل عليها من إخواننا وأصدقائنا".

وكان عضو الكنيست "مائير آميت" الذى عمل رئيساً لشركة صناعات "كور" التابعة لاتحاد النقابات العمالية يقول: "ثلث العجز المالى الوطنى فى إسرائيل يقوم الأمريكيون

بتغطيته، وقد أصبحنا أكثر اعتماداً على الولايات المتحدة، الأمر الذى يعرضنا إلى ضغوط إقتصادية قوية، وهى ضغوط ربما تكون مصحوبة بعقوبات إقتصادية قوية".

* * *

يجمل "لورانس ماير" القول بأن التطور الإقتصادى في إسرائيل يعدّ من معجزات ما بعد الحرب العالمية الثانية، فليس هناك بلد آخر يمكنه أن يزعم أنه قام فى وقت واحد ببناء مجتمع حديث وجيش حديث، ومجمعات صناعية حديثة، وزيادة حجم الصادرات في غضون ثلاثين عاماً.

لكن إسرائيل فى الوقت نفسه تعانى من تضخم مالى مرتفع، ولم يحدث أبداً أن باعت إسرائيل إلى السوق العالمى أكثر مما اشترت منه، وقد ارتفعت ديونها الخارجية على نحو دراماتيكى، ويعيش الإسرائيليون فى ظل مستوى من الحياة لن يمكنهم مواصلة العيش فى ظله بدون المساعدات الخارجية.

ويصف "ماير" الحالة المعيشية فى إسرائيل على نحو دقيق وجذاب.. مؤكداً ما جاء فى البداية.. عن إقتصادات متعثرة، وحياة ميسورة. فى إسرائيل.. يعيش الأشخاص من خلال السحب على المكشوف من الحساب الجارى، ومعظم الإسرائيليين يعيشون فى ظل أرصدة سلبية دائمة فى حساباتهم، حتى إن رواتبهم لا تفعل أكثر من تسديد جزء من ديونهم، وهذا ما يجعلهم يقترضون من البنك بمعدلات فائدة تزيد على معدل التضخم المالى، ويعيشون شهراً آخر.

والإسرائيليون الفقراء يعيشون عند حد الكفاف، وهم قلّما يأكلون اللحوم، ولا يملكون السيارات، ويعيشون فى شقق صغيرة ومزدحمة، ويركبون الأتوبيسات المدعومة من الحكومة.

* * *

يذكر التقرير السنوى عن حالة الفقر فى إسرائيل أنه فى عام 1999م عاش (20٪) من الإسرائيليين تحت خط الفقر، وأن (25٪) من أطفال إسرائيل فقراء، وأن القدس، وبنى باراك، وأشدود هى أكثر المدن فقراً.. وهؤلاء الـ (20٪) قد انخفض

دخلهم بنسبة (26٪) عن خط الفقر.

وفي عام 2012م كان الفقر لايزال عند مستواه.. (20٪) من المجتمع الإسرائيلي، وقال شيمون بيريز في سبتمبر 2012: "إن الفقر ربما يكون أكثر خطرًا على إسرائيل من الحالة الأمنية، ويجب علينا أن نوقف فوراً حالة (توريث الفقر) في إسرائيل".

ويعرض كتاب "إسرائيل الآن" نماذجاً للاحتياجات العيشية في إسرائيل والتى تفصح عن مشكلة حقيقية وأزمة قادمة فيما لو زالت المساعدات الخارجية.. فأسعار البيض والجبن والحليب مساوية لما يمكن أن يدفع المرء في الولايات المتحدة، أسعار اللحوم والدجاج أغلى من مثيلاتها في أمريكا.. وأما أسعار الشقق فمرتفعة للغاية.

والعادة أن الشباب المتزوج يذهب إلى الآباء في طلب المساعدة، والكثير من الآباء يأخذون ما أمكنهم توفيره من نقود قليلة ويشترون شققاً، ثم يقومون بتأجيرها في إنتظار ذلك اليوم الذى يحتاج فيه الأبناء إليها، وفي حالات عديدة يضطر الزوج الشاب إلى العيش مع الآباء والنوم الجماعي في غرفة واحدة.

إن إسرائيل تعاني نقصاً حاداً في الأماكن السكنية؛ والجزء الأكبر من المباني أقيم بصورة متسرعة، فيما بات الكثير منها في حاجة إلى تجديد. وتكاليف تأثيث شقة أو بيت مرتفعة جداً، فالثلاجة العادية تزيد تكلفتها عن الألف دولار وتزيد الغسالة عن الثمانمائة دولار، وأما الأثاث فمرتفع.. لأن الخشب والمسامير والأشياء اللازمة للصنع يتم استيرادها من الخارج.

وتبلغ تكلفة الماكينات والأجهزة بصورة عامة في إسرائيل ضعف تكلفتها في الولايات المتحدة الأمريكية.

كيف يعيش الإسرائيليون والحال كذلك؟.. هناك جواب واحد عند "ماير" هو الصعوبة، فهم يلعبون لعبة الكراسي الموسيقية المالية مع دخلهم الشهري.

ولا يرى الإسرائيليون رواتبهم في العادة، فهم باستمرار مدينون للبقالة والجزارة وللبنك وبائع الفاكهة والخضروات.. وهم يوزعون دخلهم بطريقة قلّما تؤدى إلى تسديد أى دين.. إذ يبقى الدين متجدداً طيلة الحياة.

* * *

وهكذا.. فيما تعيش إسرائيل في إقتصاد كلى يبدو قوياً وناجحاً، فإن الوضع المعيشى للإسرائيليين لا يعكس تلك الأرقام التى ينطق بها الإقتصاد الإسرائيلى.

وإذا ما كان ممكناً أن نسلم مع دراسات عديدة مثل تلك التى أشرنا إليها عند ماير، ومثل دراسة "أحمد السيد النجار" التى أصدرها مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام عام 1998م بعنوان "بناء دولة.. دور المساعدات الخارجية لإسرائيل" فضلاً عن دراسات "رمزى زكى" وآخرين ممن أجادوا في دراسة الإقتصاد الإسرائيلى.. إذا كان ذلك التسليم ممكناً - وهو ممكن - فإن النتيجة التالية.. هو الشعور الإسرائيلى بالقلق فيما لو انتهى الصراع وساد السلام، واختفى دور المساعدات الخارجية، وتُركت إسرائيل لتواجه مصيرها في الإقتصاد والسياسة معاً.

والأغلب أن مثل هذا الطرح كان ماثلاً في ذهن شيمون بيريز وغيره ممن أقلقهم بقدر ما أغواهم أن ينتهى الصراع عند نقطة ما وأن يحل الإقتصاد محل السياسة.

• • •

الفكرة الحاكمة لكل مشروع الشرق الأوسط الجديد هى هذه بالضبط. أن يحل الإقتصاد محل السياسة.. وأن يحل الاشباع محل التاريخ.. كما تحل الوفرة محل الثقافة. ذلك أنه إذا كان التاريخ والدين سوف يغذيان الصراع باستمرار، فليس غير الإقتصاد يمنع الصدام ويؤكد الوفاق.. بل ويخلق ضرورات التعاون والانفتاح.. وقتها يصبح التطبيع مصلحة لا رؤية، وضرورة لا فضلاً، وحتمية لا اختياراً.

فنداء الإقتصاد يفترق عن السياسة في أنه يعمل بحساب، ويتجه بحساب، ويبقى ما بقى الحساب، وحين تدور عجلة الإنتاج والتسويق وتظهر إلى السطح تلال من أوراق البنكوت ما كان لها أن تأتى في ظروف المقاطعة والرفض والجهاد.. سوف تجد هذه التلال من يحميها على الجانبين.

• • •

جاء "شيمون بيريز" داعياً إلى ذلك الشرق الأوسط.. مدفوعًا بالخوف من نهاية عصر المساعدات، ومتشوقاً إلى فتح جديد من فتوحات إسرائيل.. يليق بغزوات العصر وطموحاته.. كما جاء مدفوعاً بنجوميته الخاصة في سلام تحميها الكاميرات، ووقفة فاخرة في أوسلو لنيل جائزة نوبل للسلام.. إلى إحساس بنجاح إسرائيل.

في تلك الأثناء عام 1995م.. كان الناتج المحلي الإجمالي في إسرائيل يصل إلى (91) مليار دولار، ووصل متوسط نصيب الفرد إلى (16) ألف دولار، وبلغ معدل النمو بحسب تقديرات البنك الدولي إلى (4,6٪) طيلة النصف الأول من التسعينات.

وهكذا.. بدا للحاكمين في تل أبيب.. أن الفرصة مواتية للحركة.. وأن مرحلة جديدة تبدأ.. وطريقاً جديداً يجري تمهيده في هدوء، وكان العالم في الخارج يخطو هو الآخر صوب عملية تاريخية أكبر عنوانها العام.. نهاية السياسة وبداية الإقتصاد.

• • •

قضى السياسي الإسرائيلي "شيمون بيريز" نصف قرن من العمل المتواصل في الشأن العام، تعاقبت عليه خلال هذه السنوات أحداث الشرق الأوسط بكاملها.. سبعة حروب وانتفاضتين وثورة دائمة ضد إسرائيل.

ولد "بيريز" في بولندا عام 1923م، وهاجر إلى فلسطين عام 1934م حين كان عمره أحد عشر عاماً، وهناك عمل مع أسرته خفيراً لإحدى المزارع الجماعية اليهودية ذات التوجه اليساري. وصار بيريز يسارياً إشتراكياً بالتالي، وعندما تأسس الإتحاد العام لنقابات العمال (الهستدروت) صار أصغر الأعضاء المنضمين إليه.

التحق بيريز بالدراسة الجامعية في جامعة تل أبيب، ولكنه انصرف عنها مفضلاً العمل اليدوي الذي كان يمارسه ليلاً للإنفاق على تعليمه.. ولم يحقق بالطبع نجاحاً يذكر في مضمار العمل اليدوي، ولولا انضمامه إلى الهستدروت وشغفه بالعمل السياسي لبقي بيريز عاملاً متوسط القيمة متواضع المعيشة.. غير أنه حاز نجاحاً هائلاً ومفاجئاً حين بدأ يتوجه للعمل العام

وشئون السياسة، حتى إنه عُين مديراً عاماً لوزارة الدفاع وعمره (29) عاماً.

انضم بيريز إلى حزب "الماباى" الذى أسسه بن جوريون بعد أن ثبت أقدامه فى الهستدروت، وحين وقعت انشقاقات "الماباى"، انشق بيريز هو الآخر إلى أن صار فى أبريل 1977 رئيساً لحزب العمل، ورئيساً مناوباً للحكومة مع اسحق شامير.

وعلى الرغم من وضعيته النافذة فى النظام السياسى الإسرائيلى، ومما يملك من لباقة وذكاء ودرجة واضحة من البلاغة وقوة التعبير، فإن بيريز لم ينجح قط فى أية انتخابات دخلها.. إذ لقى بيريز ست هزائم قاسية.. حتى لقب "بالرجل الذى ولد ليخسر"!

كان بيريز من بين المؤيدين لخوض الإعتداء على مصر عام 1956م، ومن الذين حرضوا على حرب 1967 على الرغم من تردد العديد من القادة العسكريين والمدنيين حسب اعترافات موشى دايان.

ويذكر "اسحق رابين" فى مذكراته أن "بيريز كان يؤيد سياسة الاستيطان أينما يريد المستوطنون"، وكان رابين وقتها يعتقد أن بيريز يقود بتطرفه الإسرائيليين صوب اليمين ويزيد من قوة الأصوليين اليهود الذين قادوا حملة الاستيطان الأولى.

وفى شرحه لعلاقة رابين ببيريز يقرر "افرايم انبار" فى كتابه "رابين" أن "وزير الدفاع شيمون بيريز كان وراء التصعيد العسكرى فى لبنان أواسط السبعينات، وكان على اسحق رابين لجمه فى كل مرة، وكان عليه محاولة التوصل إلى حلول سلمية للأزمات مع لبنان وسوريا من دون الاقتراب من المواجهة العسكرية التى طالما أيدها بيريز".

ويذهب "مروان بشارة" فى قراءته لشيمون بيريز (الحياة 27 أبريل 2000م) إلى أنه لم يوافق على دعم المفاوضات مع العرب إلا بعد أن أصبحت التسوية جزءاً من الإستراتيجية الأمريكية بعد حرب الخليج، وبعد أن انتقل بيريز أيديولوجياً وسياسياً من كونه "رجل أوروبا فى حزب العمل إلى كونه رجل الولايات المتحدة فيه"، وتوج بيريز ذلك التوجه الجديد باتمام خصخصة الإقتصاد الإسرائيلى التى كان الليكود قد بدأها فى نهاية

السبعينات، على الطريقة الأمريكية.

وهكذا.. كان طريق شيمون بيريز من شهادة جامعية لم يتحصلها إلى صورة إنسانية لا يستحقها، ومن الإيمان الكامل بالحرب إلى الحديث المفرط عن السلام.

• • •

يعود إلى شيمون بيريز الطرح النظرى القوى لمشروع الشرق الأوسط الجديد، فعلى الرغم من أن أفكار الشرق أوسطية كإطار تعاونى بديل عن الإطار الصراعى بين العرب وإسرائيل يعود إلى جهود ذهنية متناثرة بدت أكثر وضوحاً بعد حرب 1967.

وعلى الرغم أيضاً من دعوة وزير الخارجية الإسرائيلى "آبا ايبان" فى خطابه بالجمعية العامة للأمم المتحدة فى 18 مايو 1967م إلى سلام كامل وإلى وسائل اتصال بين حيفا وبيروت ودمشق وعمان والقاهرة، وبين وادى النيل والهلال الخصيب عبر جنوب النقب.. وكذا اتصالات سلكية ولاسلكية، وتعاون علمى واقتصادى بين بلدان الشرق الأوسط. فإن بلورة جملة هذه الإشارات إلى طرح متكامل.. كان محظوظاً بأن وجد أطراً عديدة للاختبار والتطبيق تعود إلى بيريز ومشروعه حول الشرق الأوسط الجديد.

وضع شيمون بيريز كتاباً بنفس العنوان.. حاز درجة عالية من الشهرة، ثم راح يؤكد على نفس الأفكار في كتابه التالي "الكفاح من أجل السلام".

يقول بيريز فى "الشرق الأوسط الجديد".. "خلال السنة الأولى من حكومة العمل التى شكلها اسحق رابين عام 1992م توليت وزارة الخارجية، وأرادت أوروبا دوراً لها، فكان أن رسمتُ معهم برنامجاً خاصاً بشرق أوسط جديد يقوم على التعاون الإقتصادى، ثم يتلوه تفهم سياسى متواصل، إلى حين تحقق الاستقرار. وقد حفزت هذه الفكرة تحليلات العديد من حلفاء إسرائيل وبينهم فرانسوا ميتران وهيلموت كول"

"ويعود للمستشار الألمانى كول الفضل فى زرع الاحتمالات العظمى للشكل الإقليمى الجديد لكل من أوروبا والشرق الأوسط

وبدأت الشركات الأوروبية الرئيسية في تطوير خطط لتوسيع النشاط التجاري في الشرق الأوسط، وبدأ البنك الدولي نشاطه، حيث وضع أسس أنشطة مختلفة، وعرض اليابانيون تولي أمر القطاع السياحي، وتولى الفرنسيون والألمان قطاعي النقل والمواصلات، والإيطاليون المشروع المحتمل لقناة البحرين الميت والأحمر، والنمساويون قطاع الكهرباء والمياه، والدانمركيون الزراعة، والكنديون اللاجئين، والبريطانيون التجارة الحرة، والأمريكيون الموارد البشرية".

ويذكر بيريز أن "أبو العلاء" رجل منظمة التحرير الفلسطينية في محادثات أوسلو كانت له خطة تنمية إقتصادية للشرق الأوسط لقيت إهتماما في قراءتها والاطلاع عليها.

• • •

حدّد كتاب "الشرق الأوسط الجديد" هدف المشروع في إنشاء مجموعة إقليمية لها سوق مشتركة وهيئات مركزية منتخبة وفق نموذج المجموعة الأوروبية، والهدف من ذلك هو التحول من إقتصاد الحرب إلى إقتصاد السلام. فقد أنفقت الدول العربية وإيران (180) مليار دولار على شراء السلاح في الفترة من (1973 - 1991).

ويعرض بيريز بعض أسعار الأسلحة.. فيشير إلى أن الطائرة المقاتلة "إف 15"، أو "ميراج 2000" تتكلف (60) مليون دولار، وأن صاروخ "اباتشي" يتكلف عشرين مليوناً، ويصل صاروخ "سكود – دى" إلى خمسة ملايين، كما يصل سعر الدبابة الشرقية الصنع إلى مليون دولار، والغربية الصنع إلى خمسة ملايين من الدولارات.

ثم يخصص بيريز فصولاً أخرى من كتابه.. عارضاً مصادر الاستثمار والتمويل، والحزام الأخضر، والمياه، والنقل، والسياحة.

• • •

كان بيريز أوفر حظاً من منظرين عديدين حول العالم.. حيث لقى تصوره حول الشرق الأوسط الجديد إهتماماً وتطبيقاً، فكان مسار المفاوضات متعددة الأطراف، والمؤتمرات الإقليمية للتعاون الإقتصادي في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

وبدأ الشروع في تأسيس بنك لتنمية الشرق الأوسط، ومشروع للتعاون الثلاثي بين إسرائيل والأردن وفلسطين لاستغلال منطقة البحر الميت.

ولم يدم الحال طويلاً.. فقد وصل الليكود إلى الحكم في إسرائيل عام 1996م، وتجاهل نتنياهو الفكرة برمتها، وحين عاد العمل إلى السلطة عام 1999م، لم يشر برنامج إيهود باراك إلى الشرق أوسطية.. لا مفهوماً ولا تطبيقاً.

وباستثناء مسمى الوزارة التي تولاها بيريز في حكومة باراك "وزارة التعاون الإقليمي" ومستوى التعاون بينها وبين مركز بيريز للسلام الذى تأسس عام 1998م.. فإنه لم يكن هناك ثمة جديد في عهد باراك إلى أن جاء بيريز وزيراً للخارجية في عهد شارون.

• • •

إذا كان الوجه الأول لشيمون بيريز هو الإيمان بالحرب، والوجه الثاني هو الحديث عن السلام.. فإن الوجه الثالث هو خلاصة الوجهين معاً!

وكثيراً ما أعلن بيريز قبوله إقامة دولة فلسطينية، ثم نفى ذلك قبل نهاية اليوم.. ولم تعد مثل هذه التفاصيل في الوجه الثالث لبيريز تدعوه للقلق أو بالرغبة في ضبط الصورة على نحو أفضل.. وكثيراً ما تعاقبت على لسانه عبارات من نوع "نحن لسنا في حاجة إلى شهادة حسن سير وسلوك من القاهرة".. "إننا نؤمن بعدالة ما نفعله ولا يعنينا كثيراً ما يقوله غيرنا مادمنا نرى أن أفعالنا تتوافق مع مصالحنا".. "إن الجميع يعرف أن أى طرف لا تقف معه الولايات المتحدة الأمريكية فإنه يواجه مشكلة العيش في هذا العالم.. وأمريكا معنا".

وقد دفع هذا الشكل الإستعلائي من الخطاب السياسي النائب العربي في الكنيست "محمد بركة" إلى توجيه رسالة إلى لجنة جائزة نوبل في استكهولم يطالب فيها بسحب الجائزة من بيريز لأنه "يسئ إلى سمعة الجائزة".

وفي عام 2007م طالب العضو العربي في الكنيست "جمال زحالقة" بسحب نوبل من بيريز. وفي عام 2009م أطلق نشطاء عريضة توقيع لأجل سحب جائزة نوبل من بيريز.

• • •

مرة تحدث بيريز في المنتدى الإقتصادي العالمي في دافوس فقال: "إننا لا نريد لإسرائيل أن تكون جزيرة من الثراء في بحر من البؤس، أو جزيرة من النظافة وسط بحر من التلوث وأنا أقول لهم لا تكونوا حمقى أيها السادة.. من يريد السيطرة على فقركم؟ هل جننتم؟ إننا بالكاد نسيطر على ما لدينا من فقر.. هل تعتقدون أننا نريد الذهاب إلى مصر للسيطرة على فقرها؟ وما الدافع لذلك؟.. ليست لديكم إقتصادات وطنية.. بل فقر وطني " ثم ينهب بيريز الى حيث يقصد.. " لا خيار أمامنا إلا أن يصبح العالم قديماً مثل الشرق الأوسط، أو أن يصبح الشرق الأوسط جديداً مثل العالم".

• • •

الواقع.. أن بعض هواجس بيريز كانت في موضعها، فهاجس ما بعد المعونات.. كافٍ لقلق عظيم. فالمتوقع إذا ما نجحت أي تسوية، أن تصبح إسرائيل للمرة الأولى مع نفسها وجهاً لوجه، وأن يفيق الإسرائيليون على حقائق الإقتصاد الذي يمثل نصف عالة على الغرب، وبالتوازي فإن تعثر التسوية من شأنه أيضاً أن يطلق الثورة الفلسطينية وأن يرهق الإقتصاد العالة.

لقد جاءت الإنتفاضة الثانية، فحسب مكتب الإحصاء المركزي في إسرائيل، فإن إجمالي الناتج المحلي قد انكمش بنسبة (7,4٪) سنوياً، وهو أسوأ أداء للإقتصاد الإسرائيلي منذ 1953، وبدوره فإن شارون لم يدخر جهداً لتحقيق هذا الأمر.

ويرى المعنيون بآرييل شارون أنه مسرف بلا حساب، وعندما كان وزيراً للزراعة في حكومة بيجين الأولى حوّل الأموال إلى المستوطنات وأهمل الزراعة. وفي سبتمبر 1984، تولى وزارة الصناعة وانتهى عهده إلى تدهور الصناعة وإرضاء رجالها.

وفي يوليو 1985، صوّت شارون ضد البرنامج الإقتصادي الذي نجح في إنقاذ الإقتصاد الإسرائيلي من التضخم، وفي عام 1990م تولى وزارة الاسكان، وهو على صلة شخصية حميمة بالمقاولين.. فتضامنت الدولة في بيع الشقق التي بنيت في مواقع غير مناسبة حسب مشروع شارون بإعادة رسم خريطة إسرائيل، ولم يرغب المهاجرون في

الذهاب إلى مناطق لا تتوفر فيها أماكن عمل ومستقبل.. وظلت الأحياء السكنية خاوية وخسرت الدولة الكثير.

واقترح "اسحق موداعي" وزير المالية محاكمة شارون بسبب انحراف ضخم بأربعة مليارات شيكل، ثم جاءت نكبة الإقتصاد الإسرائيلي في ظل حكمه الذي جاء مهاناً بفعل الإنتفاضة التي لم تحفظ ماء وجهه.

* * *

جاءت الإنتفاضة الثانية في وقت كان الإقتصاد الإسرائيلي يحقق فيه نهوضاً قوياً، بلغ معدل النمو خلاله (6٪) عام 2000م حسب بيانات صندوق النقد الدولي في مايو 2001، فانخفض معدل النمو، وتراجع الشيكل في مقابل الدولار، وتدهورت مؤشرات البورصة الإسرائيلية، وتراجعت الاستثمارات الأجنبية المباشرة بعد أن كانت (9,1) مليار دولار عام 1998م، وهو رقم يتجاوز قيمة الاستثمارات الأجنبية المباشرة لأي دولة عربية منفردة في ذلك العام.. كما زادت البطالة وتدهور مستوى المعيشة، وخسرت إسرائيل في أول عامين للإنتفاضة نحو (12) مليار دولار.

* * *

على جانب آخر.. كان الفلسطينيون الذين اقتنع عدد منهم بمفاهيم الشرق الأوسط الجديد.. ويأملون نهايةً لعذاب طويل ومرير.. وبدايةً لإقتصاد قد يقدم مالم تقدمه السياسة.. كانوا ينتظرون، وطال الإنتظار.

ويذكر "قيس عبد الكريم".. أن الحلم الوردي الذي جرى الترويج له عند إبرام أوسلو بشأن تحويل غزة إلى "سنغافورة البحرالمتوسط" لم يلبث أن تحول سريعاً إلى كابوس.. فقد تم تكريس الهيمنة الإقتصادية الإسرائيلية عبر اتفاق باريس، وتوالت الآثار المدمرة لإجراءات الإغلاق والحصار، وجاء اتفاق باريس "الملحق الإقتصادي لاتفاق أوسلو" تكريساً لواقع الإلحاق الإقتصادي الإسرائيلي، وترسيماً لحالة الاندماج بالإقتصاد الإسرائيلي المتفوق.. من موقع التبعية.

وعلى ذلك.. لقد انكمش الإقتصاد الفلسطيني، وتراجع الناتج المحلي الإجمالي بنسبة (16٪) خلال السنوات الثلاث التي أعقبت البدء بتطبيق أوسلو، وتقدر نسبة التراجع في الناتج القومي بحوالي (25٪) خلال الفترة من (1995 - 1997)، وفيما كان متوسط دخل الفرد قبل أوسلو (1800) دولاراً عام 1992م، بلغ (1500) دولاراً عام 1997م.

كما تراجعت حصة الاستثمارات الخاصة من (21٪) من إجمالي الناتج المحلي الإجمالي عام 1993م إلى (10٪) عام 1997م، وتفاقم العجز في الميزان التجاري حيث وصل إلى (50٪) حسب تقديرات البنك الدولي، وهي نسبة لا يمكن احتمالها طويلاً. ووصلت البطالة إلى (35٪) عام 1996م، فيما وصل عدد الفلسطينيين تحت خط الفقر إلى عشرين بالمائة، ما الذي يمكن استخلاصه إذن مما يجري؟

• • •

لقد باتت مشكلة المياه واحدة من أبرز المعضلات التي مرّت عليها الأفكار الشرق أوسطية.. إن أزمة المياه تتفاقم يوماً بعد يوم.. ففي دمشق وعمّان.. تتراكم الصنابير القاحلة، وتغيب بنصف الشهر أو يزيد تدفقات المياه إلى المنازل.

وفي فلسطين تزيد الأزمة، وفي إسرائيل تبلغ غايتها برغم السرقات والإعتداءات واسعة النطاق على مصادر المياه العربية. ومرة تنشر الصحف أخباراً عن حلول تركية وأخرى مصرية، تارة بأفكار عن بالونات عملاقة تمضي فوق البحر إلى موانئ المنطقة، وتارة بأفكار عن توصيل مياه نهر النيل عبر سيناء إلى النقب لتكمل "الترع" المسيرة لاحقاً.

ويذهب "محمد سيد أحمد" في كتابه "سلام أم سراب" الذي نشره عام 1995م بعد عشرين عاماً من كتابه الشهير "بعد أن تسكت المدافع" إلى أنه بالإمكان قيام عمل عربي - إسرائيلي مشترك، يصاحب عملية السلام، ويسهم بدور ملموس في تصحيح الموازين، ويمكن استثماره في معالجة مشكلة يدرك العالم أنها بسبيلها للتفاقم، وهي مشكلة شحّ المياه العذبة في الكوكب التي ستصل إلى حد خطير في الشرق الأوسط مما يحتاج "مبادرات ثورية" لاقتراح مصادر مياه عذبة جديدة، مثل بذل جهد إقليمي خارق لتحلية كميات

هائلة من البحر المتوسط والأحمر، وتخصيص هذه المياه لمناهضة الشح وتعمير الصحراء.

وهو ما يقتضي إشراك الأطراف العربية في ذلك، بحيث تسقط صورة إسرائيل كواحة في قلب منطقة عربية جلها من الصحراء الجرداء.

وقد غيّر "محمد سيد أحمد" فكرته لاحقاً بعد أن وصل نتنياهو إلى السلطة عام 1996م، وعاد ليقترح - أن تنسق مصر مع دولة ذات خبرة متطورة في تحلية المياه كفرنسا، ثم تسهم مصر في صندوق عربي بأموال فوائض البترول على نمط المشروع الذي أصبح فيما بعد نواة الإتحاد الأوروبي (مشروع الصلب والفحم) من أجل تمويل أبحاث في موضوع تحلية مياه البحر، وخفض سعر التحلية حتى يصبح إقتصادياً، عندها سوف تسعى إسرائيل - يقيناً - إلى المشاركة في المشروع، ووقتها سنشترط عليها تسوية شاملة لكل ملفات الصراع.

• • •

والواقع أن ذلك الإقتراح هو ما أخذت به إسرائيل لا الدول العربية، فقد بدأت بالفعل في تنفيذ المشروع، وخصصت له عدة مليارات من الدولارات، بدعم من الولايات المتحدة ومن الإتحاد الأوروبي واليابان.

وسوف يشمل المشروع عدة محطات للتحلية بتكنولوجيا مبتكرة غير نووية، وهو ما سيجعل لإسرائيل اليد العليا في السيطرة على مصادر المياه العذبة، وسيكون بوسعها تحميل الدول العربية الجزء الأكبر من تكلفة المشروع مع احتفاظها بالأسرار التكنولوجية للتحلية.

ويستكمل "محمد سيد أحمد" - في موقع ثالث - رؤيته، واجداً في العام 2020م بداية مرحلة ثالثة في العلاقة بين العرب وإسرائيل. في المرحلة الأولى كانت العلاقة تحكمها "القومية".. العروبة في مواجهة الصهيونية، وفي المرحلة الثانية كان "الدين" يحكم العلاقة.. الإسلام في مواجهة اليهودية. وفي المرحلة الثالثة.. ستكون "البيئة" هي

الحاكمة للعلاقة.. حيث سيجد الخصوم أنفسهم أمام كارثة النقص المتزايد للمياه.

• • •

إن جانبًا من معضلة الصراع في مراحله الثلاث يكمُن في عدم إيمان معظم الإسرائيليين بعملية السلام ومشاريع التعاون الإقليمي.

فى كتابه "مسيرة التردد نحو الاعتدال: مواقف الرأى العام اليهودى فى إسرائيل من عملية السلام الفلسطينية - الإسرائيلية" الذى صدر عن مركز الدراسات السياسية والإستراتيجية بالأهرام عام 2002م، قام الباحث الفلسطينى "خليل الشقاقى" بدراسة (43) إحصائية أجريت فى الفترة من عام 1996 إلى عام 2001م، ومن بين أرقام ونسب عديدة، يمكن المرور على عدد من معالم الدراسة.

كانت نسبة تأييد الرأى العام الإسرائيلى لحق العودة عام 1999م (13٪)، وهى القضية التى - برأى المؤلف - عصفت بباراك وأقصته عن السلطة بعد أن أظهر بعض المرونة فى خطته التى قدمها فى كامب ديفيد الثانية يوليو 2000.

ووصلت نسبة تأييد الرأى العام الإسرائيلى لعمليات الإغتيال السياسى ضد القادة الفلسطينيين عام 2001م إلى (90٪).. وأيد (70٪) من الرأى العام استخدام الدبابات فى الحرب ضد المدن والقرى الفلسطينية.

وانخفض تأييد الرأى العام الإسرائيلى لاتفاقية أوسلو إلى أدنى مستوى له منذ عام 1994م، إذ وصل إلى (33٪) بعد مرور سنة على إنطلاق الإنتفاضة، وارتفعت نسبة معارضة الاتفاقية إلى (67٪) من الرأى العام.

وعلى الرغم من أن دراسة "الشقاقى" قدمت أرقاماً أخرى إيجابية بشأن التحول نحو الاعتدال، فإن اتجاهات الرأى حسب الإحصاءات اللاحقة.. كانت تتجه من احتمالات الاعتدال إلى يقين التطرف.

• • •

إن حركات السلام فى إسرائيل، سواء تلك التى تنادى بدولة واحدة تجمع الفلسطينيين واليهود مثل "بريت شالوم" و"ريحوت" و"هاشومير" و"هاتسهير"، أو تلك التى تنادى بالتعايش بين دولتين مثل "ماكى" وحركة "السلام الآن" وكتلة "ميريتس" وغيرها لم تفعل شيئاً في التسعينات ولا بعدها، بعد أن كان دورهم واضحاً فى الثمانينات.. وكان من بين دورهم تنظيم مظاهرة احتجاج على غزو لبنان عام 1982م ضمت مائتى ألف شخص، ثم إنهم دعموا باستمرار السلام الدائم مع مصر والأردن.. لكنهم غابوا تماماً فى الإنتفاضة الثانية.

قليلون الذين بقوا على مواقفهم.. يؤكدون خطاب السلام فى زمن الحرب، خلافاً للأغلبية الساحقة من اليسار الذين ينتجون خطاب السلام إذا ما حل السلام، ويبررون خطاب الحرب إذا ما بدأ القتال.

استمر "يورى افنيرى" على موقفه الذى ينهض على عدم الثقة فى اليسار الإسرائيلى قائلاً: " أنه لا يمكن اتهام الثور –شارون– الذى حطم محل الفخار، ولكن من فتح له باب الدكان –باراك وبن عامى– وزاد "يوسى ساريد "أبعدوا كل اليائسين.. إن روضة أطفال أقدس فى نظرى من حائط المبكى".

ورأى الكاتب اليسارى "يواف بيلد".. أن رد فعل إسرائيل القاتل على الإنتفاضة هو رد فعل طبيعى لقوة استعمارية مهزومة، وكما كان الحال بالنسبة للبريطانيين فى أيرلندا، والفرنسيين فى الجزائر، والأمريكيين فى فيتنام، والروس فى أفغانستان.. هناك خيبة أمل كبرى إزاء حتمية الاعتراف بحدود قوة إسرائيل.

• • •

لقد أعادت الأحداث إلى التفكير إيهود باراك بما لم يكن حاضراً على هذا النحو من قبل. وكان السؤال الجامع لاستحضار باراك هو: هل أخطأ الفلسطينيون أم أصابوا؟ وهل كان باراك الذى مهد لشارون مخلصاً للسلام أم كان ممثلاً هزلياً جمع أوانى الفخار فى طريق الثور الهائج عن قصد وترتيب!

• • •

كان الرأى الغالب فى الإعلام العالمى أن باراك وصل فى طرحه للسلام إلى آخر المدى،

وأن الفلسطينيين أضاعوا فرصة لن تتكرر، وجاءت أحداث 2002 لتزيد من قوة هذا الرأى وتكثر من مؤيديه.

لكن الفلسطينيين رأوا أنهم أخطأوا فى تقدير استعداد الشعب الإسرائيلى للسلام، فالذين أبرموا اتفاق أوسلو كانوا على اتفاق بأن الذى سيتم تطبيقه من أوسلو هو اتفاقيات المرحلة الإنتقالية، وأن الفلسطينيين لن يكون أمامهم سوى التنازل عن القضايا الهامة التى تأجلت للمرحلة النهائية.

رفض عرفات إسقاط المرحلة النهائية وقبول عرض ظالم من باراك.. واصطف الإسرائيليون خلف شارون بأغلبية تزيد عن (70٪) حيث التقى اليسار واليمين معاً من أجل القضاء على السلطة الفلسطينية.

ويروى "سليم الزعنون" رئيس المجلس الوطنى الفلسطينى.. وقائع محاولة إسقاط المرحلة النهائية فى مفاوضات كامب ديفيد.. مقابل "فتات" يسمّى بالمرحلة النهائية.. يقول:

"فى آخر جلسة من جلسات كامب ديفيد.. وجه الرئيس كلينتون للرئيس عرفات تحذيراً واضحاً: إنكم إذا لم تقبلوا المقترحات المطروحة كحزمة واحدة، فإنكم ستتعرضون لمواقف صعبة جداً.. أولها أن الفلسطينيين سيعودون على قوائم الإرهاب، ولن يستقبلهم الرئيس القادم سواء كان بوش أم آل جور. كما أن السفارة الأمريكية فى إسرائيل ستنتقل إلى القدس. هذا قرار الكونجرس وأنا أعطله ولا تضمنون من سيأتى بعدى.

إن المساعدات الأمريكية التى تقررت لكم عام 1993م من الدول المانحة ستتوقف، وهنا قرار كونجرس أيضاً. وإذا عاد رئيس الوزراء الإسرائيلى - باراك - متسلحاً برفض فلسطين لهذه المقترحات، وقامت إسرائيل بحرب ضد مناطق السلطة الفلسطينية، فإن الولايات المتحدة ستقف بجانب إسرائيل، طبقاً لمعاهدة التحالف الإستراتيجى بين البلدين".

وحسب "سليم الزعنون"، فإن كلينتون توقع وقتها بأن تقوم إسرائيل بتشكيل حكومة وحدة وطنية، سيكون شارون هو "البلدوزر" الذى يدفع بنصف مليون فلسطينى

جديد على الحدود.

وسيريك هذا الوضع الجديد الفلسطينيين بحيث ينسيهم قضية لاجئي 1948 ونازحي 1967. وأما رئيس الإستخبارات الأمريكية "جورج تينيت" الذي كان حاضراً الجلسة، فقد وجه تهديداً مباشراً للرئيس عرفات قائلاً: "يبدو أن الرئيس الفلسطيني قد نسي أنه يعيش في منطقة من السهل فيها أن تتغير الحدود والشعوب.. فمن الممكن اقتحام سوريا، والقيام باحتلال جديد، وإجبارها على الموافقة على حدود سايكس بيكو 1923، بدلاً من الرابع من يونيو 1967 التي تطالب بها، ولن تكون هناك دولة فلسطينية بل حكم ذاتي محدود لبعض الأماكن"!

• • •

وقريب من الرأي الفلسطيني، ذهب عدد قليل من المحللين اليساريين والمؤرخين الجدد في إسرائيل.. وكان "داني ربينوفيتش" الكاتب اليساري الإسرائيلي حسبما جاء في كتاب "عادي أوفير".. "ثلاثون من أبرز الكتاب والمفكرين الإسرائيليين يحللون".. في مقدمة الكاشفين لسياسة باراك.

يذكر "رابينوفيتش" أن في الأسابيع الأولى للإنتفاضة قاد باراك حملة إعلامية لم يسبق لها مثيل، قال: "عرضتُ على الفلسطينيين عرضاً لا سابق له في سخائه، عرضاً كاملاً تقريباً، لا يمكن لغيري أن يعرضه ذات يوم. ولكن في هذه اللحظة بالضبط، وعندما وجد الفلسطينيون أنفسهم قاب قوسين أو أدنى من تجسيد حلمهم القومي، قررت قياداتهم ركل اليد الممتدة إليهم، وأن تحرق فرصة حقيقية لسلام مشرف".

ويعلق الكاتب.. بأن هذا الخطاب الإعلامي يصور الفلسطينيين كأن عروسة بسبب تجمّد في "طرحة الفرح" قامت فجأة وألغت حفل الزفاف وجلبت على نفسها الدمار، ويبقى ضحاياها باراك وكلينتون - وحدهما يواجهان الضيوف والخجل.

• • •

إن الخطة في كامب ديفيد لم تنشر، لكنه - حسب رابينوفيتش - لم يكن سهلاً على الفلسطينيين أن يوافقوا على الإكتفاء بمساحة قدرها (22٪) من أرض فلسطين، فالضفة وغزة يمثلان الأراضي المحتلة وهي التي ينوى الفلسطينيون إنشاء دولتهم عليها، وعندما دخلوا في مسيرة أوسلو، دخلوا على أمل أن تسلم لهم في نهاية المطاف هذه الأرض بكاملها خالية من المستوطنات، ثم اكتشفوا فجأة أن خريطة التسوية التي قدمها إيهود باراك تُظهر مدينة القدس في حدودها البلدية الممتدة من رام الله وحتى مشارف بيت لحم، كجزء لا يتجزأ من إسرائيل.

فهم الفلسطينيون أن إسرائيل لا تنوى أن تتضمن هذه المنطقة الهائلة في المفاوضات. أيضاً.. كانت الخريطة تشمل ضم إسرائيل (20٪) من مساحة الضفة مغروسة كالإسفين في قلب دولتهم.. ويشقها إلى قسمين: قسم في الشمال وآخر في الجنوب بصورة تجعلهما منفصلين بشكل نهائي تقريباً عن بعضهما.

كما أن كل قسم منهما متصل بمحور حركي معقد يمر كله في منطقة إسرائيلية وتحت رحمتهم إلى الجزء الثالث في قطاع غزة. زد على ذلك، الكتل الاستيطانية التي تتمسك إسرائيل بسيادتها عليها، ومنشآت عسكرية ومناطق فاصلة وطرق التفافية. إنها دولة فلسطينية مقطّعة الأوصال، دولة بالاسم فقط، مجزأة وضعيفة وبلا جيش.. هذا ما وصفه باراك "نهاية النزاع"!

* * *

يمضي "رابينوفيتش" إلى ما جرى لاحقاً.. من انطلاق إنتفاضة الأقصى.. ليراها نموذجاً لغضب شعبي متراكم منذ نصف قرن.. ولكن الإنتفاضة مثلها كأية تمردات شعبية تعاني عدم السيطرة الكاملة عليها، ومن صلة متقطعة بين الإستراتيجية العامة وبين أحداث كثيرة ومتنوعة تبادر إليها جهات كثيرة في المناطق.

ويظل المنطق العام للإنتفاضة.. هو خلق وضع شبيه بوضع كوسوفو، حيث يقوم شعب

إسرائيل بدور يوغوسلافيا والفلسطينيون بدور ألبان كوسوفو، وحيث أن القيادة الإسرائيلية غير قادرة على التنازل، فلابد من ضغط دولى على غرار ما مارس الناتو على الصرب، مما أفضى فى النهاية إلى إخلاء الجيش اليوغوسلافى من كوسوفو وحلول قوات الأمم المتحدة.

هكذا.. تتوافق شهادتان.. على أن باراك لم يقدم فرصة تاريخية لتسوية الصراع، بل كانت مجرد فرصة لإبقاء الحال على ما هو عليه!

• • •

الصافى من تلك الرؤى.. أن مشروع الشرق الأوسط الجديد.. كطريق لتجديد الصهيونية.. قد واجه انتكاسة كبرى بما آلت إليه التطورات، فقد أتى العسكريون الإسرائيليون على كل ما كان من خطب الرخاء ومواعظ التنمية، كما أن اليسار الإسرائيلى لم يكن قادراً على الفعل ولا راغباً فيه.. وأما الإسرائيليون فقد انزاحوا يميناً واصطفوا من خلف شارون.. فى ظل أجواء جديدة لم يعد فيها مكان لحديث السلام.. وأصبحت الحرب هي الحل.

ويذهب "لورانس ماير" فى كتابه "إسرائيل الآن" إلى أن حدة الولع بالحرب لدى الإسرائيليين قد هدأت بعد حرب 1973.. فقبل ذلك التاريخ لم يكن ممكناً فى نظر أى إسرائيلى أن يفكر فى المفاوضات أو الحلول الوسط مع العرب.. ولكن الأمور تغيرت بعد عام 1973م.

أحد المحاربين قال لماير: "لماذا أصبحنا نؤيد السلام.. لأن أحداً لم يُترك سليماً بسبب الحروب.. هناك (1٪) من الإسرائيليين قُتلوا فى حرب 1948، وقُتل (700) إسرائيلى فى حرب 1967، وقُتل (700) آخرين فى حرب الإستنزاف مع مصر من (1968 - 1970م)، وقُتل (2550) إسرائيلياً فى حرب 1973. إن كل إسرائيلى له قريب أو صديق قُتل فى حربٍ، والمقابر فى إسرائيل تمتلىء كل عام، والذين أصيبوا بجروح يزيدون عن القتلى ويملأون كل مكان.. رجال ونساء مشوهين مدى الحياة"

ويستطرد "لورانس ماير".. "إن الثمن الذى يدفعه الإسرائيليون ليس إقتصاديا فقط

إن امرأة مطلقة لا تعرف كيف تعثر على رجل غير متزوج كي تضرب معه موعداً. قالت امرأة إسرائيلية "ليس هناك واحداً منهم ".. "لدينا نقص في عدد الرجال ممن هم في سني.. إنهم قُتلوا في الحروب. وقالت أرملة مات زوجها عام 1967م " الشئ المخيف هو أننا كنا على استعداد لتقديم تضحيات، لتقديم حياتنا حين الضرورة، من أجل جعل الأشياء سليمة لأطفالنا.. وسوف يذهب ولدى إلى الجيش في العام القادم، ويبدو أن أطفالنا سوف يقدمون التضحيات نفسها.. وليست هناك نهاية لهذا كله".

وقال ضابط في سلاح المدفعية عن جنوده الذين يعمل على تدريبهم: "إنهم أذكياء.. ويمكنك أن تتصور مدى ذلك التبديد الهائل للقدرات حين تقوم بتدريب شباب كهؤلاء على كيفية حشو ماسورة مدفع بالقذائف وإطلاقها من النقطة "أ" إلى النقطة "ب" على بعد خمسة أميال أو عشرة من أجل قتل أفراد لا يعرفون عنهم شيئاً"

* * *

جاء عصر شارون وقد توحّشت النفس الإسرائيلية، وبدَت دروس الماضي من الماضي، وتحولت إسرائيل إلى دار الحرب. إن هذه التحولات بذاتها قد أربكت إسرائيل.. وأعادت التساؤلات من جديد..

هل ترغب إسرائيل في السلام؟ وهل تجد في السلام مصلحة لها؟ وهل ترى نفسها جزءاً من المنطقة أم امتداداً لخارجها؟ وهل بإمكان أنصار السلام والشرق الأوسط الجديد أن يجدوا طريقاً لما يهدفون؟ إنها تساؤلات.. تذهب من الإقتصاد إلى السياسة.. ومن السياسة إلى الثقافة.. هي تساؤلات الهوية والذات.. إنه السؤال الأكبر.. ما هي إسرائيل؟ ولماذا؟

* * *

مثّل مشروع الشرق الأوسط الجديد إجابة مفادها.. إسرائيل دولة شرق أوسطية، وهي ردّ على إجابة سابقة.. إسرائيل دولة أوروبية. وكثيرًا ما توازى الجدل حول كون إسرائيل دولة اليهود.. أم هي دولة يهودية.. مع الجدل حول كونها جزءاً من الغرب الحضارى أم هي جزء من الشرق الأوسط المحيط.

فى خطبة لوزير الخارجية الإسرائيلى "شاريت" أمام الأمم المتحدة أواخر الخمسينات قال: "إن إسرائيل دولة غربية، إنها امتداد للحضارة الأوروبية تدافع عنها وتحمل علَمها، وهي واحة الديمقراطية في صحراء التخلف"، ويرى رأى "شاريت" جمْع من العامة والخاصة في إسرائيل. ،

وقد وقف "جابوتنسكي" أحد رموز ما يسمّى بالصهيونية التصحيحية، ووقف معه أتباعه ضد وصف إسرائيل بأنها امتداد للحضارة الأوروبية.. حيث أن جوهر التاريخ الأوروبي هو استئصال اليهود، وكان استئصالهم من قبل النازيين بتواطؤ كل النظم الأوروبية، وأما فترة التعاطف مع اليهود التي ميزت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية، فليست سوى لمحة من الزمن ولا يوجد ما يمنع من تصور فترة قادمة أكثر تعصباً ضد السامية.

جابوتنسكي الذى عاش في ظل الدولة العثمانية قبل تصفيتها فى الحرب العالمية الأولى، ومثّل مرجعاً مهماً للصهيونية لطالما كان مغذياً لليمين.. انتصر لكون إسرائيل شرق أوسطية لا أوروبية، والشرق الأوسط برأيه ليس عربياً بل هو شرق أوسط إسلامي.. فالعالم العربي برأيه ليس إلا أكذوبة، ومنطقة الشرق الأوسط لا يوجد بها سوى عالم إسلامي، فالقومية العربية هي اختراع خلقه الوهم، وإطار الصراع ليس عربياً - إسرائيلياً، ولكنه إسلامي صهيوني.. هو صراع بين إسلام متخلف ويهودية متقدمة، وليس بين قومية عربية وقومية صهيونية.. إنه أيضاً صراع حتمي لا مفر منه.

• • •

يرى عالم السياسة "حامد ربيع".. أن إسرائيل سوف تتحول بنهاية المطاف إلى دولة شرق أوسطية، فهي في سبيلها ألا تصير دولة غربية، فكما يحدث الآن من تطور في ضخامة عدد السكان العرب، يحدث الشيء ذاته في تطور عدد سكان اليهود الشرقيين في إسرائيل، سواء بسبب زيادة نسبة الإنجاب بينهم أو بسبب تحول أبناء اليهود الغربيين..

فاليهودى الذى يولد فى إسرائيل من أب فرنسى مهما كان ولده متشبعاً بالثقافة والتقاليد الفرنسية.. سوف يكتسب عقلية وتصور الشرقي، ولذا فمن التوقع أن يسيطر الفهوم الشرقي على الساحة اليهودية في إسرائيل بمرور الوقت، ويعنى ذلك أن تتحول إسرائيل إلى دولة شرق أوسطية.

ويكفي أن نعرف أن أكثر من نصف سكان إسرائيل من سن (20 – 50) سنة قد زاروا مصر ولو لأيام، مما يعكس الرغبة فى التعرف على عاصمة المنطقة التى يعيشون فيها.

• • •

فى السياق الآخر.. تتطور إسرائيل لتصبح دولة يهودية لا دولة اليهود.. أى ليست دولة تمثل قومية اليهود فى العالم، وإنما إحدى "القوميات اليهودية" فى العالم، مثل القومية اليهودية الأمريكية، اليهودية الفرنسية، وغيرها.. ستصبح إسرائيل دولة يهودية وليس أكثر.

وينتهى "حامد ربيع" إلى أنه من الممكن للدولة الفلسطينية أن تعيش بجوار إسرائيل، وهناك نماذج عديدة لدول صغيرة تعيش مع جيرانها، جيبوتى بجوار أثيوبيا مثلاً، كما أن الضفة وغزة تشكلان أربعة ملايين نسمة وهو حجم يزيد كثيراً على تعداد عديد من دول العالم.. ثم إن إنشاء فلسطين يجب أن يكون فى إطار وحدوى، للحد من إمكانية تأثير إسرائيل على الدولة الفلسطينية، "فتخطيطنا الإستراتيجى يجب أن يكون مبنياً على أساس دولة الشام"، وبذلك يكون إنشاء الدولة الفلسطينية دعوة للوحدة لا للتجزئة.. وفى إطار مشروع عربى لا شرق أوسطى.

الأصولية اليهودية..

أوهام المعبد الثالث



إذا ما كان الدين هو هدف الفهم والتأمل لما يجرى فى إسرائيل، فإن المشهد يثير الضحك، جموع من المؤمنين وجموع من الملحدين.. سواء بسواء!

عدد كبير يذهب إلى حائط المبكى، وعدد أكبر لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر.. ولكنه قد يعطي صوته لأولئك المتدينين الخاشعين!

كان بن جوريون ملحدًا، ورفض دخول المعبد اليهودى، ولكنه آمن بالصهيونية وأقام دولة إسرائيل، وهو الذى لا يؤمن بالتوراة ولا بأنبياء بنى إسرائيل، وكان بن جوريون يسأل عن قبر "أرنست بيفن" وزير خارجية بريطانيا ليذهب إلى القبر ويدوسه بحذائه، لأنه لم يساعد فى خطة إنشاء إسرائيل!

وهو أيضاً الذى ألغى مبدأ التعليم الرسمى الموحد، وسمح للمتدينين بتعليم مستقل فى مدارس دينية، وأعفاهم من أداء الخدمة العسكرية!

وكثير من الإسرائيليين ليسوا معنيين بتفاصيل الدين اليهودى، وكثير من الكثير غير معترف بيهوديتهم، لأن الحاخامات لم يقتنعوا بإيمانهم.

* * *

وعلى الرغم من ذلك، فإن الجميع يحمل داخله درجة من الأصولية حتى لو كانوا غير مؤمنين!

وتقول إحدى النكات الشهيرة : "لو عاش واحد يهودى فى جزيرة، فإنه يبنى معبدين.. أحدهما لكى يصلى فيه والثانى حتى لا يصلى فيه"!

والمعبد اليهودى هو بناية صغيرة متواضعة نوعاً ما، تتسع لنحو ثلاثين أو أربعين من المصلين الذكور، ومساحة أخرى صغيرة ومستقلة أو شرفة داخلية للنساء.

وفى إسرائيل (60) ألف معبد يهودى، وتقام الصلاة فى كل صباح وفى كل مساء.

وفى صباح السبت تكون المعابد مليئة بالمصلين.

ويجتمع كبار الحاخامات أثناء الغروب من كل جمعة فى قرية "غريفات" فى جبل ميرون بمنطقة الجليل الأعلى بالشمال، مرددين أنشودة دينية عنوانها "فليأتِ من نحب".. بإنتظار ظهور المسيح لمواكبته إلى القدس مشياً على الأقدام.

• • •

تضم إسرائيل ثلث يهود العالم.. أى خمسة ملايين يهودى من بين (15) مليوناً من اليهود فى العالم.

وتختلف اليهودية عن معظم الأديان، فى كونها ديناً مغلقاً، حيث لا يحق لأى إنسان أن يعتنق اليهودية، خلافاً لجميع المبادىء والأديان التى تعمل لزيادة المؤمنين بها.

ولكى يكون الإنسان يهودياً يجب أن يكون من أم يهودية، ومازالت محاكم إسرائيل ترفض الاعتراف بيهودية مواطنيها من أب يهودى وأم غير يهودية.

• • •

يذكر "سهيل ديب" فى كتابه "التوراة.. تاريخها وغاياتها".. أن الحاخام الأكبر فى حيفا قد اعترض على زواج أحد ضباط المظلات من جاليا بن جوريون (حفيدة بن جوريون) لأنها من أم إنجليزية مسيحية، والحجة التى قدمها الحاخام أنه ليس هناك أى إثبات على أنها يهودية!

• • •

وفى إسرائيل أحزاب دينية، وجماعات دينية، وأشخاص مهوسون.. يمارسون العنف الدينى ضد اليهود العلمانيين.. فضلاً عن المسلمين والمسيحيين فى فلسطين.

فى نوفمبر عام 2001م.. هددت وزارة الداخلية الإسرائيلية بفرض عقوبات صارمة على الذين يضبطون وهم يأكلون الخبز فى الأماكن العامة فى المناسبات الدينية، وقال "ايلى يشائى" وزير الداخلية: "على الجميع احترام القانون الذى يحظر استهلاك الخميرة،

وسوف يقوم مفتشون من الوزارة بفرض غرامات على كل من يتناول الخبز".. وأعلن "إسرائيل لاو" كبير الحاخامات دعمه للإكراه في فرض احترام التقاليد الدينية.

في نفس التوقيت.. وافق الكنيست بشكل مبدئي على تشريع يقضي بسجن النساء اليهوديات اللاتي يصلين عند حائط المبكى بالقدس.

ويفرض التشريع عقوبة السجن عدة سنوات على كل امرأة يهودية ترتدي "شالاً" للصلاة، وتقرأ بصوت عال من التوارة عند حائط المبكى، وهو تشريع وقف وراءه الأصوليون لإبطال حكم المحكمة العليا الإسرائيلية بمنح النساء حق الصلاة عند حائط المبكى.. مخالفاً للتقاليد المتشددة اليهودية.. الأمر الذي دعا "ناعومي كازان" نائبة الكنيست عن حركة ميريتس اليسارية للقول "بأن ذلك التشريع الذي يفرق بين النساء والرجال إنما يضع إسرائيل في خندق واحد مع إيران وأفغانستان".

وفي بلدية "بني باراك" قرب تل أبيب، أصدر حاخام البلدية فتوى بمنع النساء من الاختلاط بالرجال بداخل عربات المواصلات العامة. وأفتى آخر بمطاردة النساء المتبرجات، وظهرت منشورات وملصقات.. تؤكد أن كل فتاة تعيش في حي يهودي وتلبس قصيراً أو مكشوفاً.. سوف تتعرض للضرب، ودعا أحد الملصقات إلى "قتل كل متبرجة في إسرائيل".

وصار المتطرفون اليهود يعترضون النساء في الشوارع ويمزقن ملابسهن حتى يصرن عاريات تماماً، ومن المدهش أن عدداً وفيراً من الشواذ والمجرمين كانوا ينفذون الفتوى بإخلاص شديد، وفي كل يوم سبت يرشقون السيارات بالحجارة، حتى على الطرق السريعة، وتصل الحوادث المسجلة لدى الشرطة إلى أكثر من عشرين حادثاً في الشهر.

• • •

يذكر "أمنون كابيليوك" في كتابه "رابين.. إغتيال سياسي" أن الأصوليين اليهود منعوا المطربة الإسرائيلية "ميرى آلوني" من الغناء بإحدى قاعات نيويورك نظراً لاعتبارهم أن صوت المرأة عورة.

وفى عام 1995م، مارس الأصوليون ضغوطاً لوقف التنقيب عن الآثار فى مناطق المقابر اليهودية حتى لا يقلق ذلك راحة "عظام الموتى"، مما دعا المدعى العام الإسرائيلى إلى إصدار قرار بعدم إعتبار "العظام" من الآثار.

• • •

وإذا كان بعض الحاخامات يذهبون إلى الجليل فى إنتظار المسيح، فإن الملياردير اليهودى الاسترالى" جوزيف جوتنيك" يتزعم حركة دينية متطرفة اسمها " شاباد" يرى أعضاؤها أن الحاخام "شنيرسون" هو المسيح المنتظر، وأنه قد اختار الملياردير الاسترالى ليكون مبعوثه إلى يهود إسرائيل!

يرى بعض الأصوليين أن حدود إسرائيل، حسب التوراة، ينبغى أن تشمل مدينة حمص السورية، ويرى آخرون أنها تشمل حماة، وحلب.. وبعضهم يراها تشمل تركيا، وذات مرة طالب أحد الحاخامات بحقوق تاريخية لليهود فى قبرص!

والماثل وراء هذا كله.. أن الدين اليهودى على حالته الراهنة يقاوم تماماً قيم العقلانية والتنوير، وأن التراث الدينى والممارسات القائمة تقف على النقيض من عصر العقل وقيم الحداثة.

• • •

يصف الكاتب البريطانى اليهودى "ماثيو انجل" إسرائيل بأنها تحوى قوماً.. شديدى التعصب وشديدى التدين ولكنهم لا يعرفون الوصايا العشر.. وتذكر أغلب الإحصاءات أن (80٪) من الإسرائيليين لا يعرفون الوصايا العشر.. وتقع الوصايا العشر فى اليهودية موقع الأركان الخمسة فى الإسلام من شهادتين وصلاة وزكاة وصوم وحج.

لقد تحالف الجهل مع ضيق الأفق.. لتتجاوز الأصولية اليهودية.. النظرية إلى جماعات وتنظيمات تمارس العنف ضد الفلسطينيين.. بل وضد الإسرائيليين أنفسهم. وإذا كان ماثير كاهانا.. هو النموذج الأعلى، فإن جولد شتاين وايجال عامير وعوفاديا يوسف.. نماذج بازغة وغيرها كثير.

• • •

أسس الحاخام "مائير كاهانا" حركة "كاخ" اليهودية المتطرفة بعد وصوله من الولايات المتحدة إلى إسرائيل عام 1971م، ويرى "يهود شيرنزاك" أستاذ العلوم السياسية في الجامعة العبرية أن كاهانا وضع الأسس النظرية التى أسهمت في ترعرع الإرهاب، وأن العنف أصبح جزءاً من العمل الأصولي بعد وصول "كاهانا" الذى يعد أخطر إرهابي في إسرائيل.

وبالتوازى مع حركة "كاخ".. كان "كاهانا" قد أسس في حي بروكلين في نيويورك مؤسسة "هاتيكفا" أي الأمل، وهي منظمة إرهابية أخرى.

ولم يكن ممكناً مع "كاهانا" الحوار، فهو يرى أن العرب "حفنة من القردة والخنازير" والحل الوحيد لهم هو قتلهم جميعاً وتخليص البشرية منهم.

ولكن كاهانا لم يتمكن مما كان يدعو إليه، بل كانت يد الآخرين إليه أسرع مما توقع وانتظر.. ففي نيويورك عام 1990م جرى قتل مائير كاهانا وجرى اتهام الشاب المصري سيد نصير بارتكاب الحادث.

• • •

أبَى "بنيامين مائير كاهانا" ابن "مائير كاهانا".. أن يترك رسالة والده الإرهابية، فقد شرع في تأسيس منظمة جديدة تخليداً لوالده وهي منظمة "يعيش كاهانا" أو "كاهانا.. حيّ". وقد بلغ بهذه المنظمة التطرف إلى حد فرض حظر قانوني عليها في إسرائيل، واعتبارها في الولايات المتحدة منظمة إرهابية.

وقد عملت منظمة "يعيش كاهانا" بالتعاون مع "منظمة هاتيكفا" على الإعداد لعدد من الإغتيالات والتفجيرات في الصفوف الفلسطينية والعربية. وكان "بنيامين كاهانا" هو الآخر أسرع خطى إلى الموت.. حيث تم قتله في كمين له بإسرائيل في نوفمبر عام 2001م.

وعندما داهمت الباحث الأمريكية مقر منظمة "هاتيكفا" في نيويورك في أعقاب قتل " كاهانا الابن "، وجدت أكثر من (80) صندوقاً، وعدداً من أجهزة الكمبيوتر، وخزانة ملفات، والعديد من الصناديق البلاستيكية.. التي تخدم عملها الإرهابي.

وقد قيل إن الداهمة تمت بطلب من "شلومو بن عامي" وزير خارجية إسرائيل بعد أسبوع من مقتل بنيامين كاهانا. وقد رحل آل كاهانا.. تاركين وراءهم.. بقايا حركة "كاخ" ومنظمة "يعيش كاهانا" و "جبهة كاهانا " التي أعلنت بين مقتل الأب وابنه في عام 1996م.. وهي تنظيم إرهابي يشمل المنظمتين معاً.. "كاخ" و"يعيش كاهانا".. بالإضافة إلى منظمة "هاتكفيا" الإرهابية، وتنظيم جديد اختفت آثاره بعد إعلانه.. باسم "بنيامين كاهانا.. حيّ".

• • •

لم يكن الفاصل طويلاً بين مقتل آل كاهانا وبين بزوغ "نجم" إرهابي جديد، فقد أصبح "باروخ جولد شتاين".. كاهانا جديداً، بمجرد انضمامه للجماعات الأصولية المتطرفة. قام جولد شتاين بتنفيذ مذبحة الخليل عام 1994م والتي راح ضحيتها (29) مصلياً فلسطينياً أثناء أدائهم الصلاة بالحرم الإبراهيمي.

ويلخص قول "جولد شتاين" في فيلم تسجيلي أمريكي تم إنتاجه عام 1994م قبل المذبحة – خلاصة رؤيته – يقول: "هناك وقت للقتل ووقت للعلاج".. قاصداً وقتاً للقتل، وآخر لامتصاص الغضب والمناورة حتى مجزرة أخرى.

على الرغم من أن جريمة "باروخ جولد شتاين" تفتقد أي كفاءة أو شجاعة، فقد أطلق النار على أناس يؤدون الصلاة، فقد غدا قبره.. ضريحاً ومزاراً يشد إليه المتطرفون الرحال.. ويواصل أنصاره من خلاله سيرته الإرهابية.

ويذكر بعض الدارسين أن أحد الكتب التي تروي سيرة حياة "جولد شتاين" كانت من الكتب المفضلة لايجال عامير.. الإرهابي الذي قتل اسحق رابين عام 1995م لأنه وقّع اتفاق سلام مع الفلسطينيين.

وتعلق مجلة "لونوفيل أوبزرفاتور" الفرنسية (فبراير 1997) على ما جرى.. بأنه نوع من الأصولية المتواصلة.. فالإسرائيليون يعيشون تحت رحمة الأفعال المجنونة والمنحرفة التي يقوم بها المتطرفون.

فالذين قتلوا المصلين في الخليل وقتلوا رابين.. يرون في مسيرة السلام خطيئة يجب إدانتها.

إنهم يقولون.. نحن نقتل من أجل خلاص إسرائيل، وكلهم أمضوا سنوات شبابهم منكبين على قراءة النصوص المقدسة وينتمون للحلقة المعروفة "بمجانين الله" لتجسد مثال التعصب.

• • •

لقد وصل الأمر إلى أن دعا بعض الحاخامات الجنود الإسرائيليين إلى عدم إطاعة أوامر قادتهم بالإنسحاب من الضفة الغربية.. وقال أحدهم: على الجنود ألا يفعلوا ما يطلبه ضباطهم بل حاخاماتهم.

وزاد الأمر.. حيث لم يكتف الحاخام المتطرف "عوفاديا يوسف" بما نهب إليه الآخرون.. بل دعا إلى "قتل" كل من يخدش قدسية يوم السبت، وأما العرب فهم برأى الحاخام "حشرات سامة.. لن يقوم سلام معهم".. "إن الرب قد ندم على خلقه لهؤلاء العرب من أبناء إسماعيل"!

• • •

وما أسهل أن يجد المرء توافقاً في الخرافة والهوس الديني بين رؤوس متعددة في إسرائيل بعضها لم يدخل معبداً في حياته. فبينما كان "ناتان شارانسكي" رئيس حزب بعاليا - لليهود الروس - يحذر من تقسيم القدس، لأن من يفعل ذلك سيكون أول من يقسمها بعد ثلاثة آلاف سنة من تاريخ المدينة..

كان آرييل شارون يقف أمام أعضاء السلك الدبلوماسي الأوروبي ليقول: إن القدس هي عاصمة دولة إسرائيل منذ ثلاثة آلاف سنة بموجب وعد الله لإبراهيم. وأما "حركة أنصار الهيكل المقدس" فقد أعلنت نهاية العالم وحلول يوم القيامة!

• • •

لا تقع الأصولية اليهودية خارج النظام العام في إسرائيل، فهي جزء من مؤسسات

الدولة، وهى أساس فى التعليم والمعيشة.. من طعام وسكن ومواصلات. وللأصولية أحزاب وشركات.. حاخامات ووزراء، وهى وثيقة الصلة بالليكود.. وموضع حساب وتقدير من اليسار.

وقد بات العلمانيون يخشون على أنفسهم وحياتهم من جراء المد الأصولى فى إسرائيل. ومن النادر أن يجد القارىء إحصاءات مستمرة عن عدد العلمانيين والمتدينين فى أى بلد مثلما يجد فى إسرائيل.

وعلى وجه العموم فإن "تل أبيب" هى عاصمة العلمانية التى يتحصنون فيها ضد "القدس" مقر الأصوليين. ويرى رجال الدين أن "تل أبيب" هى "سودوم جديدة".. مدينة الخطيئة والفاحشة التى حل غضب الرب عليها وجعل عاليها سافلها.

ويرى الأصوليون.. أنه بعد أن انتهوا من فرض آرائهم وفرغوا من أمر مدينة القدس، تحولوا إلى مدينة تل أبيب من أجل إعادتها إلى الصواب والصراط المستقيم.. حيث أن (90٪) من سكانها علمانيون.

وتنقل مجلة "التايم" (يناير 1997) عن الروائى الإسرائيلى "يورام كانويك": "لا أعرف من هو الطرف الذى يسير على طريق الفوز؟.. إنها الحرب بين الطرفين. وحسب استطلاع للرأى أجرى فى تلك الأثناء.. كان (35٪) من الذين أخذت آراؤهم يعتقدون أن الإنقسام ما بين المتشددين والعلمانيين سيقود إلى حرب أهلية".

ويعلق الروائى "كانويك": "ربما كان التقسيم مفيداً، لكنه فى آخر مرة انقسم فيها اليهود على أنفسهم منذ عدة قرون، تلاشت حوالى (10) قبائل فى المجهول".

ويخلص "إسرائيل شاحاك ونورتون ميتسفنسكى" فى دراستهما "الأصولية اليهودية فى إسرائيل" والتى شرحا فيها تيارات الأصولية وجذورها التاريخية.. يخلصان إلى أن "الصورة العلمانية الديمقراطية الرائجة عن إسرائيل لدى الغرب ليست حقيقية، فالمجتمع الإسرائيلى منقسم إلى أبعد الحدود، والتيارات الدينية الأصولية منقسمة فيما بينها حول

المعتقدات والعلاقة مع الآخر، وفي النظر إلى ضرورة قيام إسرائيل قبل مجيء المسيح المخلص، وفي ضرورة القضاء على المسيحية في العالم الغربي".

• • •

إذا ما وسعنا الرؤية لتشمل الخلاف الديني العلماني.. لكانت الأمور أكثر تعقيداً.. إنه خلاف حول كل شيء.. إعلان الدولة، الدستور، من هو اليهودي، يوم السبت، المرأة، الزواج المختلط الأطعمة والذبائح، الآثار والحفريات، حائط المبكى.. حتى الموت والدفن.

وفي هذه الشبكة الكثيفة للآراء والمعتقدات.. هناك علمانيون ومتدينون: علمانيون يمينيون، وعلمانيون يساريون، وعلمانيون شيوعيون.

وهناك متدينون متشددون (حريديون)، متدينون إصلاحيون، ومتدينون صهيونيون. وداخل المجتمع الحريدي المتشدد.. هناك حريديون ليتوانيون وحريديون حسيديون وحريديون شرقيون وحريديون منعزلون كلية عن الدولة.. وهناك أصوليون شرقيون وأصوليون غربيون.. وروس وأفارقة وآخرون. والحريديون (الحريديم).. معادون للحداثة وللقيم الغربية ولهم مجتمعهم الخاص بهم.

• • •

إنها خريطة مرهقة وبالغة التعقيد، ثم إنها تتغير باستمرار، وعند كل انتخابات تختفي أحزاب وحركات وتظهر أخرى. وفي الفترة من عام (1949 إلى عام 1992م).. ظلت القوة التمثيلية للأحزاب الدينية شبه ثابتة.. إذ ظلت تحصل على نسبة (11٪) إلى (16٪) من الأصوات.

وفي انتخابات 1996 التي صعد فيها نتنياهو وصلت إلى حد لم يسبق له مثيل حيث أحرزت مجتمعة (19٪) من الأصوات.

وفي الإجمال، شكلت الأحزاب الدينية القوة الثالثة بعد أحزاب اليسار والأحزاب اليمينية، وأصبح حزب "شاس" ثالث أكبر حزب في الكنيست، وفي انتخابات عام 2001م حاز منفرداً على (17) مقعداً. وعموماً فإن مقاعد الأحزاب الدينية في الكنيست

الإسرائيلى قد تطورت على النحو التالى:

(16) مقعداً عام 1949م، ثم (18) مقعداً عام 1959م، (18) مقعداً عام 1969م، (16) مقعداً عام 1977م، ثم (10) مقاعد عام 1981م، (14) مقعداً عام 1984م، (18) مقعداً عام 1988م، (16) مقعداً عام 1992م، (23) مقعداً عام 1996م، (27) مقعداً عام 1999م، (24) مقعداً عام 2003م، (21) مقعداً عام 2006م، ثم (22) مقعداً عام 2009م.

وإلى جانب الأحزاب الدينية.. تعمل الجماعات الدينية بدأب شديد وإن كانت لا تشارك فى الانتخابات البرلمانية.. وبعضها جماعات دينية تؤمن بالصهيونية.. مثل حركة كاخ، وحركة ميماد، وكتلة الإيمان "غوش أمونيم". وبعضها الآخر جماعات دينية لا تؤمن بالصهيونية.. مثل حركة حراس المدينة، حركة الطائفة الحسيدية، حركة حباد الحسيدية.

إلى هنا يبلغ الإرهاق مداه من متابعة شئون الملحدين والمؤمنين، ومن فهم خريطة لا تثبت على حال، وأناس يرون الدين بألوان الطيف.

• • •

والمفارقة الكبرى هنا.. ما الذى جاء به الأصوليون اليهود.. إذا ما كانت الدولة كلها فكرة أصولية؟!

والمفارقة الشارحة لذلك.. أن الأصولية الدينية المحضة هى ضد إسرائيل، لأن إسرائيل جاءت ضد مشيئة الله حسب الإعتقاد اليهودى.. فلم يكن مطلوباً من المتدينين اليهود أن يذهبوا إلى فلسطين ويقيموا دولة إسرائيل.. فالله وحده هو المسئول عن ذلك، وما على اليهود إلا إنتظار إرادته وأسبابه.

وأسباب الله فى ذلك إنما تكمن فى يسوع الخلص.. المنتظر، الذى سيقوم ببناء مجد اليهود ويجمع شتاتهم من كل العالم.. ويقيم مملكة الله فى فلسطين.

ولما كان الأمر كذلك.. فإنه من الخطأ أن ينوب العبد في الفعل عن الرب، أو يعجل الإنسان بالسياسة ما أراد الله له الإنتظار بالمشيئة.

وهنا يمكن أن نفهم أولئك المتدينين اليهود في إسرائيل ممن يرون إسرائيل دولة كافرة، وأنها قامت ضد إرادة الله، وأنها من عمل القوم الفاسقين.

وكان على الصهيونية حين جاءت.. أن ترتكب هذه الخطيئة الدينية اليهودية، وأن تقيم هي الدولة بدلاً من المسيح الذى طال إنتظاره. وبعد ذلك.. كان على "الصهيونية الدينية" أن تعمل على تأويل النصوص والتماس الأعذار.. وتقديم تفسير جديد يوفق بين العقل والنقل.

لقد خرج أصحاب "الصهيونية الدينية" على رأى الدين الذى كان سائداً منذ دخول الرومان فلسطين وتشتيتهم لليهود في القرن الأول قبل الميلاد.

لقد رأوا.. أن المسيح المخلص هو اليهود أنفسهم، وأن عليهم أن يعملوا لبناء هيكلهم الثالث.. دون إنتظار.

• • •

يرجع المؤرخون بأصول "الصهيونية الدينية" إلى أواخر القرن التاسع، وإن كانت أصولها الفلسفية تعود إلى القرن الثالث عشر الميلادى على يد الحاخام "موشي بن نحمان".. الذى اعتبر "أورشاليم" مركز أرض إسرائيل والمكان الوحيد لتأدية الوصايا العشر، وجعل الاستيطان فيها فريضة تعادل كل فرائض التوراة مجتمعة.

ومن ثم فإن "الصهيونية الدينية" كانت المدد لترويض معطيات عصر الحداثة، فهيأت السبيل لدولة تقوم على الأسطورة في عصر العقل، وعلى الأمة في زمن الدولة.

و"الصهيونية الدينية" تتوسط "الصهيونية السياسية" و"الأصولية اليهودية" ونعنى بالأصولية اليهودية هنا.. الأرثوذكسية اليهودية.

فبعض الحاخامات من عناصر "الصهيونية الدينية" يطالبون بالإنفصال عن

العلمانيين، ودعا أحدهم إلى تغيير النشيد الوطني للدولة.. لأنه من عمل الصهيونية، واحلال المزمور السادس والعشرين من التوراة مكانه.

وأما عناصر "الأرثونكسية اليهودية".. فهم من قدامى المؤمنين، هم منشغلون بقراءة التوراة واستيعاب التلمود.. الكتاب المفسر للتوراة.. وهم لايزالون قابضين على آرائهم العتيقة.. فالشعب اليهودي هو شعب الله المختار وعليه أن يبقى ساكناً في إنتظار قدوم المسيح!

• • •

تشهد الحياة السياسية في إسرائيل على أن الحكومات المتعاقبة في الحكم ورموز الدولة كانوا يدللون التيار الديني باستمرار. ولا يكاد يوجد شخص واحد في الحياة السياسية الإسرائيلية لم يشهر في يديه "التوارة" يوماً، أو يقتبس منها ما تيسر من القول.

كان البعض منتبهاً لخطر ذلك، وكان هرتزل ووايزمان من بين أوائل من تنبئوا بخطر الدين ورجال الدين على المشروع الصهيوني.

يقول "هرتزل" في كتابه "دولة اليهود" في وضوح: "يجب أن نجعل رجال الدين اليهود ضمن حدود معابدهم بنفس الطريقة التي سوف نجعل فيها الجيش المحترف ضمن حدود ثكناته، ويجب أن ينعم الجيش ورجال الدين بالاحترام البالغ الذي يستحقونه، ولكن لا ينبغي أن يتدخلوا في إدارة الدولة التي تضفي شرعية عليهم، وإلا فسوف يثيرون صعوبات لأنفسهم ولغيرهم".

ويذكر "وايزمان" في مذكراته التي كتبها بعد إعلان قيام إسرائيل.. "إن من واجبنا أن نوضح للجماعات الدينية اليهودية من البداية المبكرة.. أن الدولة بينما تحرص على احترام المشاعر الدينية الصادقة على نحو كبير، لكنها لا تستطيع أن تدير عقارب الساعة إلى الوراء من خلال جعل الدين المبدأ الرئيسي في سلوك الدولة، وينبغي أن يقتصر الدين على المعابد وبيوت تلك العائلات التي تريده، ولكن لا ينبغي له أن يراقب وزارات الدولة".

وكان حاييم وايزمان.. يرى في الدين أفيوناً لليهود، ومصدراً رئيسياً للسلبية

والكسل، لأنه يعزز فكرة أن قراءة التوراة والصلاة أفضل من العمل الجسدى، وبالتالى يخلد الاعتماد على الصدقة التي تذل النفس وتحط من قدرها.. "فمدينة القدس مثلاً.. مدينة تعيش على الصدقة ورسائل جمع التبرعات وأموال الأعمال الخيرية".

• • •

يروى "لورانس ماير" أنهْ كان يستعد للذهاب إلى القدس، فسأله أحد الإسرائيليين: "هل أنت ذاهب إلى القدس؟ إننى لا أطيق الذهاب إلى هناك بسبب جميع هؤلاء المتدينين الكاذبين".

ومرة كان أحد الإسرائيليين يقوم بتعبئة "نموذج" لتصريح رسمى، واكتشف الموظف حذفاً مقصوداً فى تعبئة النموذج. سأل الموظف: "إنك نسيت أن تكتب ديانتك، وسوف أكتب أنك يهودى".. قال الإسرائيلى: "لقد تركت الفراغ متعمداً، لا تكتب أى شىء، فإننى لا أومن بأية ديانة". قال الموظف: "ولكنك يهودى". وأصر الآخر على القول "اترك الفراغ على حاله.. لست مؤمناً".

وفى رواية ثالثة.. يقول أحد الإسرائيليين.. "إننى لا أرغب فى الاستيقاظ مبكراً، إن يوم السبت هو اليوم الوحيد الذى يمكننى أن أنام فيه حتى وقت متأخر، لولا أصوات هؤلاء المصلين".

إنها حالة النقمة على الدين وعلى المتدينين فى إسرائيل، فقد ضجّ العلمانيون بتصاعد المد الديني، وبتحوّل إسرائيل التدريجي من إدعاءات الحداثة والعقلانية إلى سراديب المبكى وغياهب التلمود.

• • •

ذكرت مجلة "التايم" فى تحقيق مطول أجرته مطلع العام 1997م.. أن عدداً من اليهود الغاضبين يطالبون بثلاث دول، دولة فلسطينية، وأخرى يهودية علمانية، وثالثة يهودية أصولية، وأن الفكرة تحظى بنقاش حاد في إسرائيل!

ويعد الروائى اليسارى "يورام كانويك" والصحفى (الأمريكى المولد) "زئيف

تشافيتش".. من أبرز الداعين لفكرة "الدول الثلاث".

فالأصولية اليهودية تدعو إلى أفكار تتعارض مع مصالح إسرائيل، ومع رغبات معظم الإسرائيليين، ويقولون إن الرد هو "الطلاق" و"التقسيم" على مستوى طائفي.. وبمعنى آخر.. تصبح دولة إسرائيل للعلمانيين، ودولة "يهودا" للمتطرفين.

ويذكر "كانويك" في حديثه إلى التايم.. "إنهم لا يأكلون معنا، ولا يرغبون في الزواج منّا".. "إذن فيأخذوا الأرض الجبلية الجميلة في القدس والخليل ويفعلوا ما يسرهم، ونحن نستمر في بناء دولتنا في تل أبيب".

ويذهب "تسفي بارئيل" الصحفي في "هاآرتس" إلى أن ما يحدث من تطاول من المتطرفين على العلمانيين كارثة، وأن إسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي يسمح فيها لأقلية مدللة (10٪) من السكان مثل الأصوليين السيطرة على الآخرين.

• • •

على الرغم من أن الأصولية اليهودية قد صعدت في إسرائيل في أعقاب حرب 1967، فإن وصول نتنياهو إلى السلطة في عام 1996م كان دافعاً قوياً لاستفحالها. اعتاد نتنياهو أن يغازل التيار الديني، وأن يجامله في الميزانيات وفي المشاركة في الحكومة والمؤسسات.

وكانت السنوات الثلاث التي قضاها نتنياهو فترة مد أصولي بلغ مدى غير مسبوق، وفي عهده كانت الاشتباكات تقع في الشوارع بين الفريقين، وراح العلمانيون يفكرون في تقسيم للبلاد وإلا فستكون حرباً أهلية في دولة يصعب بقاؤها يوماً آخر فيما لو وقعت مثل هذه الحرب.

• • •

وقد وجد العلمانيون في "إيهود باراك" منقذاً علمانياً لكارثة الأصولية اليهودية، ووجد باراك نفسه هو الآخر مدفوعاً لإعلان ثورة علمانية ولإعطاء وعود بكسر شوكة الأصوليين.

أعلن باراك فى 20 أغسطس 2000 بدء ثورة علمانية في إسرائيل، والسعى لإقرار دستور للبلاد، وإصلاح النظام التعليمى، وإتاحة فرصة الحصول على العلوم للجميع، وإلغاء وزارة الأديان، وتدريس الإنجليزية والرياضيات لجميع التلاميذ الإسرائيليين خاصة الذين يدرسون في المدارس الدينية التابعة لحزب شاس، وإصدار قوانين جديدة للزواج المدنى، وحقوق المرأة.

وكلّف باراك لجنة وزارية تضم وزراء العدل والخارجية بالوكالة وشئون الشتات.. يوسى بيلين، وشلومو بن عامي، وميخائيل ملكيور وذهب "دان ميرودور" فى مناقشات الكنيست.. إلى ضرورة أن ينص الدستور على حرية التعبير والمساواة بين الذكور والإناث واليهود وغير اليهود.. ورأى أن الأحزاب الدينية تمثل تعبيراً منحرفاً لليهودية.

• • •

ومثل آلاف اللجان فى العالم الثالث.. لم تفعل اللجنة المشكلة شيئاً، وتغلبت الأصولية على العلمانية.

وأعلّن زعيم حزب شاس "ايلى يشاى".. أن سنّ الدستور يمس القيم اليهودية، ويؤدى إلى حرب ثقافية وحضارية، وأنه سيحدث انشقاقات فى صفوف الشعب اليهودى.

وذهب "موشي جافنى" النائب الأصولى إلى أن مقترحات باراك تنطوى على عدم المسئولية، وتسيء إلى دولة إسرائيل بصورة خطيرة. وأما باراك نفسه.. فلم يكن فى حاجة إلى مجهود كبير لينقلب على نفسه، وفى مفاوضات كامب ديفيد كان يطالب بسيادة على المسجد الأقصى وما تحته.. حيث أنقاض الهيكل، وتذكر بعض التحليلات أن باراك كان على وشك تبنى دعوة الأصولية اليهودية بتدمير المسجد الأقصى ومحاولة بناء الهيكل مكانه!

• • •

عاد العلمانيون إلى تكبتهم فى مواجهة الأصولية، وفى مواجهة الهزائم المتلاحقة، انطلق العلمانيون ينتقدون ويهاجمون. وفى موجة الإنتقادات.. برز قول "يوسى بيلين":

"إن القدس لا تعني أي شيء بالنسبة لي".

وأما حائط المبكي.. الذي يراه يهود العالم أهم رمز لليهودية، وأنه عندهم الصرح الباقي الوحيد من الهيكل الثاني الذي هدمه الرومان عام 70 ميلادية. فقال عنه المفكر اليهودي وعالم الكمياء أيضاً "يشاياهو ليبرفيتش".. "لقد أصبح التعلق به تعلقاً وثنياً، وهذا المكان القدس وثني المفهوم في مجمله، إنه ساحة رقص دينية، وهو ليس مقدساً، إنه ليس شيئاً على الإطلاق.

ويصل "ليبرفيتش" .. "لقد أصبح الحائط والساحة مثل نصف مساحة ملعب كرة قدم مكاناً للسائحين والاستعراضات العسكرية.. هناك من يعتقدون أنه مكتب بريد الله تعالى، غير أنه في الحقيقة ليس إلا ذلك العجل الذهبي"!

• • •

وكثيرة هي القولات التي ذهبت تنتقد وتهاجم، وكان بعض الحظ في جانب العلمانيين، ذلك أن "أهارون باراك" رئيس المحكمة العليا كان يعمل لصالحهم باستمرار. والمحكمة العليا هي أعلى سلطة قضائية في إسرائيل، و"أهارون باراك" هو أشهر قضاتها، وقد أخذ على نفسه مسئولية مناهضة الأصولية وتأكيد الشكل الديمقراطي.

وهو الذي أفتى بإبقاء طريق "بار إيلان" الشهير بالقدس مفتوحاً يوم السبت برغم مطالبة المتشددين بإغلاقه أمام السيارات.

وحفلت الصحف الأصولية بافتتاحيات تصفه بأنه ديكتاتور وعدو لليهودية، وتعرض "أهارون باراك" لتهديدات بالقتل، أودع بسببها تحت حراسة أمنية مشددة.

حاول نتنياهو فرض قيود على المحكمة العليا لتقليص سلطاتها لصالح الأصوليين، وطالب "اسحق ليفي" وزير النقل وقتها وهو أصولي من حزب المفدال.. بتشكيل محكمة دستورية مستقلة للفصل في هذه القضايا الجوهرية. واقترح أصوليون آخرون أن يتولى الكنيست تعيين أعضاء المحكمة العليا بدلاً من قيام السلطة القضائية بذلك.

وكانت رغبة الأصوليون في تقليص دور المحكمة العليا الحامية للنظام العلماني تلقى تجاوباً في الشارع الإسرائيلي.

فقد احتشد ربع المليون أصولي.. وهو ما يعادل (5٪) من سكان إسرائيل.. في مظاهرة حاشدة احتجاجاً على قضاة المحكمة العليا ووزارة العدل.. ومنادين بتطبيق الشريعة وإلغاء الفصل بين الدين والدولة.

ووصف "عوفاديا يوسف" الزعيم الروحي لحزب شاس الديني قضاة المحكمة العليا بأنهم بلا خلق ولا دين، وأنهم ينتهكون حرمة السبت ويرتكبون الموبقات.

على أن العلمانيين مضوا في طريقهم الشاق، داعمين المنظمات الداعمة للعلمانية ومحاولين كسب معارك قانونية واحدة وراء الأخرى برغم الصعوبات.

* * *

ترصد مجلة "لونوفيل أوبزرفاتور" الفرنسية في مطلع العام 1997م.. ذلك التراجع الكبير في تأثير رجال الدين في مجال الزواج. فخلال العشرين عاماً السابقة، انخفض عدد الأزواج الذين يعقدون زواجهم بواسطة الحاخامات من (28) ألف إلى (26) ألف حالة برغم أن عدد السكان قد تضاعف.

لقد زهد الإسرائيليون في الزواج بالمراسم الدينية، وأصبحوا يفضلون صور الزواج الأخرى البديلة مثل الزواج المدني.. في أوروبا وفي قبرص.. أو الحياة المشتركة وإنجاب الأطفال بلا زواج.

ومن الزواج إلى مراسم الدفن.. قطع العلمانيون شوطاً هاماً.. فقد سمح للمرة الأولى في تاريخ إسرائيل بدفن أحد المواطنين وزوجته دون الالتزام بالطقوس الدينية، وهي نقلة اعتبرتها الصحف ثورة اجتماعية في تاريخ الدولة العبرية.. فهي المرة الأولى التي يتم فيها إفتتاح مقبرة مدنية عامة في إسرائيل.

ويعلق رئيس جمعية "الراحة البسيطة" الإسرائيلية على ذلك قائلاً: "أخيراً..

سنتمكن من الموت بالطريقة التي نريدها.. في هذا البلد".

ورد الحاخام الأكبر الذي وافق على المقبرة المدنية: "إذا كان أحد يريد أن يُدفن مثل الحمار.. فإن ذلك لن يكون له أي تأثير على الأجيال القادمة".

وتستقبل المقبرة المدنية الملحدين.. أي اليهود غير المعترف بهم من قبل الحاخامات، وكذلك المنتحرين، وهناك (800) ألف مهاجر روسي لا يسمح بدفنهم إلا في القسم المخصص لليهود المشكوك في دينهم.

■ ■ ■

توجد في إسرائيل منظمات علمانية هدفها الإجابة على هذا السؤال: كيف تنتقل من الأصولية إلى العلمانية؟.. أو كيف تصبح علمانياً؟.. وذلك بغرض إعداد أجيال من العلمانيين الذين يمكنهم مواجهة المد الأصولي المتزايد.

في القدس تأسست منظمة "رابطة شعب حر" التي تهدف إلى تزويد العلمانيين بأيديولوجية متكاملة ومستقلة عن الحاخامات والتوراة والتلمود.

وفي الولايات المتحدة تأسست منظمة "هيلال" اليهودية.. محاولة اقناع المواطن اليهودي ليكون علمانياً، إنها "تمد يد العون إلى من يبحثون بالفعل عن سبيل لترك الأصولية اليهودية المتشددة".

ويرى القائمون عليها.. أن أي علماني يريد أن يتدين فإن هناك نظام كامل يساعده على دخول عالم اليهود المتدينين مع إيجاد عمل له ومعاونته على الزواج وتكوين أسرة.. ومن يريد أن يصبح علمانياً فإنه لا يجد من يساعده.

■ ■ ■

هكذا.. تمتد الحرب بين الفريقين، من الحياة إلى الموت، ومن المظاهرات إلى المنظمات، ومن السلطة إلى الشارع.. وهي حرب فيها كثير من ملامح الحروب بين كل الأصوليات والمدنيات، وفيها خصوصيات دين لا يعرف التبشير، وشعب لا يعرف الآخر،

ودولة لا يمكنها البقاء في ظل الدين، ولا البقاء خارج الدين!

• • •

وإذا كان هذا هو موقف الأصولية اليهودية من العلمانية اليهودية، فما هو موقفها إذن من الأديان الأخرى؟

اللاحظة الأولية على هذا السؤال.. أنه فيما يوجد عدد كبير من المؤلفات حول رأى الإسلام في اليهودية، فإنه لا يوجد ذلك العدد حول رأى اليهودية في الإسلام. سبب ذلك.. أن الإسلام يعترف باليهودية، ولذا كان طبيعياً أن يهبّ لدراستها.. واليهودية لا تعترف بالإسلام ولذا كان طبيعياً أن تُهمل النظر إليه.

ومنذ زمن الفيلسوف اليهودى "موسى ابن ميمون" لا يوجد ذلك النقاش الغنى بين الإسلام واليهودية، أو ذلك الإهتمام العقائدى والفكرى اليهودى تجاه المسلمين. يضاف إلى ذلك، أن اليهودية دين مغلق والإسلام دين مفتوح عماده الدعوة.. وأن الإسلام بذلك يحتاج إلى فهم عقائد وثقافات الآخرين حتى يتمكن من النفاذ إليهم ونيل قبولهم وتهيئة الطريق إلى إسلامهم.

وأما اليهودية، فحيث إنها دين الخاصة من الناس.. لا يدخله أحد بالإيمان ولا بالقبول، وإنما بصلة الدم وديانة الأم، فإنه لا يعنى اليهودية الفهم الكامل لعقائد الآخرين.. ذلك أن تحولّهم عن دينهم إلى اليهودية ليس مطلوباً ولا مقبولاً.

وقد جاءت إسرائيل.. لتجعل من اليهودية ديناً سياسياً محضاً، وليكون كل إهتمام اليهود فيها منصبّاً على موازين القوى واحتمالات الحرب وآفاق التسوية.

ومن بين طرائف الأحداث.. أن النائب العربى في الكنيست "عبد المالك دهامشة".. طالب السلطات الإسرائيلية بإقامة مسجد داخل الكنيست الإسرائيلى لكى يستطيع النواب العرب الصلاة فيه، أسوة بوجود كنيس يهودى بالكنيست. وقد وافقت السلطات الإسرائيلية على إقامة المصلى، وتم إفتتاح المسجد للصلاة فى أكتوبر 1996، حين كان نتنياهو فى

السلطة والأصوليون إلى جواره.

وبينما كان يجرى التحضير لحفر نفق يستهدف هدم بيت المقدس، استقبل مسجد الكنيست الذى كان غرفة لسكرتيرة.. سجادة جديدة، وعدد من المصاحف وصورة للمسجد الأقصى على أحد الجدران!

• • •

وإذا كانت علاقة الإسلام باليهودية فى إسرائيل علاقة مرتبكة وناقصة وباهتة المعالم.. فإن علاقة اليهودية بالمسيحية داخل إسرائيل هى علاقات مسكوت عنها تماماً.. ولا يعرفها الكثيرون.

وشأن حالة الإسلام واليهودية.. فإن المسيحية تعتبر اليهودية جزء من الإيمان المسيحى والتوراة شطر من الكتاب المقدس.. غير أن اليهودية لا تعترف بالمسيحية ولا تؤمن بنبوّة السيد المسيح، وترى أنه جاء ثمرة لخطيئة ارتكبتها السيدة مريم، وأن المسيحية برمتها نوع من الكفر.. ولذا كان طبيعياً أن يقوم اليهود بصلب المسيح.. الذى لم يكن مسيحاً، لأن المسيح الحقيقى سيأتى فى آخر الزمان.

وهو المسيح الذى تنتظره الديانات الثلاث.. الإسلام والمسيحية واليهودية، غير أنه فى الإسلام والمسيحية هو ذاته عيسى – عليه السلام – أو يسوع المسيح، ولكنه فى اليهودية ليس ذلك النبى الذى جاء، فظهوره سيكون آخر الزمان.. وللمرة الأولى.

وترى الأصولية اليهودية والمسيحية معاً.. أن المسيح سيظهر فى فلسطين أو المنطقة المحيطة بها، ومن ثم فإن هذه المنطقة ستشهد كارثة مّا قبل عودة المسيح حيث سيموت ملايين الأشخاص.. والمعركة الشهيرة لتلك الأحداث فى آخر الزمان هى معركة "هرمجدون".

• • •

حسب نظرية هرمجدون.. المسيطرة على الأصولية المسيحية.. فإن الله قد خلق العالم عام 4000 قبل الميلاد، وعمُر العالم الآن طبقاً لذلك هو (6000) سنة.

وأن الله الذى خلق العالم فى ستة أيام واستراح فى اليوم السابع.. سوف يوقع كارثة كبيرة فى نهاية الألف السادس تتبعها ألف سنة من الحكم الذهبى للمسيح.. أى أن العالم كله بناء على ذلك سبعة أيام من أيام الله، وإذا كان يوم الله بألف سنة من يوم الإنسان، فإن يوم الراحة السابع هو ألف سنة فى راحة البشرية فى حضور المسيح.

ويذهب الكاتب "محمد السماك" إلى أن الإيمان بذلك يعود إلى السنوات الأولى للمسيحية، ثم عاد الإيمان بقصة "هرمجدون" فى العصور الوسطى من أجل دعم الحروب الصليبية، وفى القرن التاسع عشر وضع "جون نيلسون" سيناريو لنهاية العالم من خلال نبوءات التوراة فجعل تاريخ العالم سبعة عصور.. والعصر السابع يتوج بعودة المسيح الثانية. وقد سيطرت هذه النظرية على الحركة الإنجيلية طيلة القرن العشرين، وصدر كتاب "هال ليندسى" عام 1970م طبقاً لهذه النظرية وبيع منه 40 مليون نسخة وعنوانه "الكرة الأرضية.. الفقيدة الكبيرة"..

والسيناريو الجذاب الذى جاء فى هذا الكتاب يجرى على النحو التالى: مسيحيو الشرق يتعرضون للاضطهاد والطرد.. أعداء المسيح ينتصرون ويحكمون سبع سنين.. حرب نووية كبرى يعود بها المسيح.

• • •

الأخطر فى كل هذا الفكر.. هو أن قيام إسرائيل عام 1948م، يمثل أهم علامة على صحة هذا الفكر وتزايد الإيمان به والقتال لأجله.. إذن لابد من إسرائيل قبل ظهور المسيح، ولابد أيضاً من هدم المسجد الأقصى وإعادة بناء الهيكل الذى هدمه الرومان عام 70 ميلادية!

وفى الولايات المتحدة الأمريكية زاد الإيمان بهذه النظرية، وفى ظل عملية الإحياء الدينى فى الولايات المتحدة.. تنامت الحركة الأصولية المسيحية.

وداخل الحزب الجمهورى الأمريكى يشكل "التحالف المسيحى" مركز قوة كبير

داخل الحزب، وهو المحرك "لحملة الحرية الدينية وإنقاذ مسيحيي الشرق"، وتمثل حركة "حماة العهد" التبشيرية الإنجيلية التي نظمت مظاهرة عام 1997م وحضرها مليون مؤيد أمام البيت الأبيض.. قوة كبرى داخل الولايات المتحدة.. وبين الفريقين تحالف كبير.

وهكذا.. التقت الأصولية اليهودية والأصولية المسيحية على إيمان واحد.. بقاء إسرائيل.

• • •

يمثّل التحالف الجاري بين الأصوليتان اليهودية والمسيحية.. تحولاً عن مسار العلاقة بين الديانتين على مر التاريخ.. فالخلاف الجوهري حول نبوّة المسيح وحول مسئولية قتله وصلبه حالَ دون الإلتقاء قروناً طويلة.

وقد كان الفاتيكان من أشد المعارضين للحركة الصهيونية منذ مؤتمر بازل عام 1897م، ورفض البابا بيوس العاشر في لقائه مع تيودور هرتزل عام 1904م دعم الحركة الصهيونية وهجرة اليهود إلى فلسطين، كما لم توافق الكنيسة الكاثوليكية على وعد بلفور عام 1917م. ثم بدأ التنازل تباعاً.. فأعلن الفاتيكان الحياد إزاء إعلان قيام دولة إسرائيل عام 1948م.

ثم كان إصدار البابا يوحنا الثالث والعشرين عام 1964م وثيقة تقضي بتبرئة اليهود من دم المسيح. ولاحقاً.. أصدر البابا يوحنا بولس الثاني وثيقة تؤكد الأصل اليهودي للمسيح. وفي عام 1994م، بدأ التبادل الدبلوماسي رسمياً بين الفاتيكان وإسرائيل، وفي 1998م.. اعتذر الفاتيكان لعدم تدخله لإنقاذ اليهود من أيدي النازيين.

والمشهود من تلك التطورات، أن الأصولية المسيحية ومعها رأس الكنيسة الكاثوليكية في الفاتيكان.. تمضي في اتجاه التوافق والتطبيع مع اليهود ديناً ودولة.. ولكن إسرائيل لم تقطع ذات الشوط في الاتجاه المعاكس.. حيث يضمر الإسرائيليون ازدراءً للمسيحية وعداءً شديداً للتبشير بها في الأوساط اليهودية.

وفى عهد نتنياهو تجمع مئات اليهود امام مكتبه للمطالبة بطرد المبشرين المسيحيين من إسرائيل وإحراق نشراتهم، كما ضربوا العديد من موزعي البريد الذين حملوا هذه النشرات.

وأمر الحاخام "عوفاديا يوسف" زعيم حركة شاس موزعى البريد الإسرائيليين بحرق النشرات التى ترسلها الجماعات التبشيرية المسيحية بإعتبار ذلك واجباً دينياً.

وفى سبتمبر 1996، حظرت إسرائيل نشاطات جماعات التبشير المسيحى تماماً، وهو ما جعل أعضاء "الحركة العالمية لشهود النبوءات" التى تأسست فى بريطانيا فى وقت سابق إلى الشعور بالإحباط وهذه الحركة تعمل بالأساس على التبشير بالمسيحية فى إسرائيل إلى أن تهتدى إسرائيل إلى المسيحية.

ويذكر "سهيل ديب" أن الكاتبين "تارفورد" و"ماكنيكول" صاحبا كتاب "مرجل الشرق الأوسط The Middle East Couldran "... قد اكتشفا.. "أن التبشير هو أقوى سلاح يمكن به محاربة إسرائيل". ويشعر الإسرائيليون بالفزع من محاولات جذب اليهود إلى المسيحية، ولا يستشعرون الرضا تجاه الفاتيكان ولا مؤسسات أو رموز الدين المسيحى.

وحين قام البابا يوحنا بولس الثانى بزيارة إسرائيل فى عام 2000م، نظم (2500) من الحاخامات والأصوليين مظاهرة قبل مجيئه لرفض أى محاولة من البابا لاختراق الدين اليهودى.. أو أن يكون له نوايا تبشيرية بتحويل اليهود للمسيحية. ولهذه الحساسية اليهودية تجاه المسيحية أصول تاريخية، فقد عانى اليهود من المسيحيين الكثير، وفى أوقات الشدة لم يكن لهم مخرج سوى اعتناق المسيحية.

ويفسر البعض ذلك.. بكون العداء الذى واجهه اليهود، والذى كان يتراوح ما بين الاضطهاد والقتل إنما صدر عن الصليبيين، ومحاكم التفتيش، ومارتن لوثر، وروسيا القيصرية. ولقد ظل هذا العداء قائماً حتى نهاية القرن التاسع عشر، ومن كان يعتنق المسيحية كان ينجو بنفسه.

ويعترف الكاتب الأمريكي "ماكس ديمونت" المتخصص في اليهوديات.. بأن "الفتح الإسلامي لشبه جزيرة أيبريا وأسبانيا والبرتغال.. قد وضع حداً لإكراه اليهود على اعتناق المسيحية. فتحت حكم المسلمين الذي استمر خمسة قرون، نشأت أسبانيا ذات الديانات الثلاث والحضارة الواحدة، حيث شارك المسلمون والمسيحيون واليهود في صنع حضارة امتزجت فيها ثقافاتهم ودماؤهم وأديانهم.

حدث ذلك من قرون.. وقد ردت اليهودية على الإسلام بجزاء آخر، احتلال وتدمير، ثم إنكار لتقاليد عريقة في الحوار والحياة المشتركة، وكأن هذا التاريخ لم يكن ذات يوم".

الفصل الرابع

إسرائيل الصغرى



إسرائيل والعالم..

بعض التحوّلات



ربما يكون تعبير الكاتب البريطاني "روبرت فيسك" هو الأدق في علاقة الغرب بإسرائيل.. يقول فيسك في جملة واضحة "إن قادة الغرب جبناء".

إن "فيسك" ليس وحده في عدم تقدير "قادة الغرب المعاصرين" ذلك أن النخبة الفكرية في العالم ترى أفول زمن "القادة العظام" وحلول زمن "القادة الصغار".. لكن "فيسك" كان أكثر وضوحاً في وصف حالة الجبن المتزايدة لقادة الغرب "الصغار" في مواجهة إسرائيل. إن هذا الجبن تجلى في التخاذل الغربي إزاء الفلسطينيين في حرب غزة عام 2008م.. لم يساعد الغرب في إنقاذ أحد، وكل ما ساعد فيه هو إصدار بيانات الأسف!

ويقارن " فيسك" بين ما جرى في عام 2008م في فلسطين التي هي ليست عدواً للولايات المتحدة وبريطانيا وما جرى قبل نصف قرن في عام 1948م.

كانت القوات الروسية تحاصر برلين وكان الألمان الذين هم أعداء الولايات المتحدة وبريطانيا يعانون ويلات الحصار. قامت واشنطن ولندن بعمل إنساني كبير، حيث أقامت جسراً جوياً إلى برلين من أجل إنقاذ الألمان الأعداء!

ولكن حين حدث ذلك الحصار مع الفلسطينيين في القرن الحادي والعشرين.. كان الغرب جباناً.. وأدار رأسه بعيداً!.

إن قادة الغرب الذين ساعدوا في هذه المذبحة الإنسانية هم أنفسهم الذين يتسابقون من أجل نفاق إسرائيل في كل المناسبات.. وحدث في أسبانيا أن قام رئيس وزرائها "خوسيه ماريا أزنار" بقيادة مظاهرة من عشرات الآلاف تضامناً مع إسرائيل ضد المحرقة.

• • •

إن العالم العربي والإسلامي يرى المحرقة أمراً مشيناً وجريمة كارثية ارتكبها الغرب ضد المواطنين اليهود الأبرياء.. ولكن الجريمة كانت بحق اليهود وليست بحق إسرائيل، وليس مفهوماً أبداً.. لماذا يتظاهر البعض في الغرب ضد المحرقة تضامناً مع

إسرائيل.. وكأن إدانة المحرقة تتطلب بالضرورة تأييداً لإسرائيل.. هنا يكمن المأزق الأخلاقي للغرب.

• • •

حين قام الرئيس الفرنسي ساركوزي بزيارة نصب تذكاري للمحرقة قال: "أشعر أنني إسرائيلي.. إن بقاء إسرائيل كدولة يهودية واجب أخلاقي".

قرر ساركوزي تدريس المحرقة للأطفال في فرنسا حيث يجب على كل طفل فرنسي في الصف الخامس الإبتدائي أن يتذكر طفلاً يهودياً قُتل أثناء الإبادة.. أن يعرف اسمه ومكان قتله.

اعترض علماء النفس على قرار ساركوزي الذي سيُشعر الطفل بالذنب إزاء طفل آخر لا يتحمل أدنى مسئولية فيما جرى له..

وقال المعترضون: "كيف سيكون شعور أسرة مسلمة أو مسيحية حين تطلب المدرسة من ابنها تذكّر طفل يهودي في ذكراه.. إن ذلك قد يحدث آثاراً عكسية"..

وسخر الفيلسوف الفرنسي "باسكان براكنر" قائلاً: "إن ساركوزي يلقي علينا كل يوم بفكرة سيئة".. ثم واصل "إنه عبء ثقيل أن نطلب من طفل صغير أن يصف طفلاً ميتاً".

قام ساركوزي بزيارة إسرائيل وامتلأ خطابه في الكنيست بمقتطفات من التوراة، وقال: "جدي كان يهودياً وعانينا كارثة المحرقة".. ثم استدرك يقول: "إنني لست يهودياً.. لكن جدي هو الذي كان يهودياً ". لكن ساركوزي ارتدى الطاقية اليهودية ومضى يتحدث عن معاناة اليهود دون كلمة واحدة عن معاناة الفلسطينيين.

إنه الأسى على محرقة قديمة بدعم محرقة جديدة!

• • •

لقد كان الزعيم الكوبي "فيدل كاسترو" جسورا حين وصف إسرائيل بأنها مثل ألمانيا النازية. قال كاسترو: "إن الصليب المعقوف أصبح علم إسرائيل.. وأن إسرائيل لن تتردد في ارسال مليون ونصف المليون رجل وامرأة وطفل في غزة إلى أفران الغاز كما فعل هتلر مع ملايين اليهود في ألمانيا النازية".

ثم أوضح كاسترو: "إنني لا أكره اليهود.. وقد تضامنت بلادي معهم في الحرب العالمية الثانية، واستضافت كوبا عدداً من الناجين اليهود.. لكنني أرى بالمقابل أن ما يجري في فلسطين يماثل ما جرى لليهود.. إنها إبادة.. وللأسف فإن العالم سينشغل بمونديال 2008 عن محرقة 2008".

وقد جاء مقال الكاتب "ديفيد أرانوفيتش" في صحيفة "التايمز" مماثلاً لرؤية كاسترو. أجْمَل "أرانوفيتش" كارثة 2008 في فلسطين بقوله: "إنها آلام تفوق طاقة البشر.. مقتل (1000) وإصابة (5000) وتشريد (12000) من الفلسطينيين الأبرياء.. إنه إرهاب لا يحتمل، إن بعض الفلسطينيين يلقون أنفسهم من النوافذ.. ما ينقص إسرائيل فقط أفران الغاز من أجل حرق الفلسطينيين".. ثم انتهى "أرانوفيتش" للقول: "إن مجازر إسرائيل ضد فلسطين تعادل مجازر النازي ضد اليهود".

• • •

لقد توازى ذلك مع حملة أطلقها إتحاد النقابات العمالية في بريطانيا لمقاطعة المنتجات الإسرائيلية.. جاءت الحملة تحت عنوان "لماذا نشتري بضائع مسروقة.. إنها قادمة من المستوطنات وهي أرض مسروقة".

وقد اندلعت مظاهرات في لندن وبرلين واستكهولم وبودابست وأوسلو وكوبنهاجن وأثينا. وفي مدينة نيس أحرق الشباب الفرنسي محلات تشير إلى أمريكا وإسرائيل. وحين قام "إيهود أولمرت" رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق بزيارة جامعة شيكاغو من أجل إلقاء محاضرة.. استقبله طلاب الجامعة بالأحذية.. وكتب أحد الطلاب "على جامعتي أن تخجل من دعوة مجرم حرب".. وحين تحدث مسئول الجامعة مهدئاً الطلاب ومبرراً الدعوة بأنها

من اجل ان يجيب أولمرت على أسئلة طلاب جامعة شيكاغو.. قال الطلاب: "عليه أن يجيب على الأسئلة.. لكن ليس في هذه القاعة.. بل في محكمة العدل الدولية في لاهاي".

• • •

قام عدد من النشطاء في بريطانيا وبلجيكا وبعض دول أوروبا بمحاولات عديدة للملاحقة القضائية لمجرمي الحرب الإسرائيليين.. وتمكن النشطاء في بريطانيا من التضييق على حركة عدد من المجرمين الذين لم يتمكنوا من دخول لندن خشية إلقاء القبض عليهم.

وحسب صحيفة " يديعوت أحرونوت " فإن إسرائيل طلبت السماح لوفد عسكرى من كبار ضباط الجيش الإسرائيلي بزيارة بريطانيا مع التعهد بعدم إعتقالهم خلال الزيارة.. لكن بريطانيا رفضت التعهد، وألغت إسرائيل الزيارة.

وذكرت صحيفة "التايمز " أن جنرالاً إسرائيلياً متقاعداً كان مطلوباً في بريطانيا بتهمة ارتكاب جرائم حرب حيث قام بتدمير خمسين منزلاً فلسطينياً، ورفع نشطاء ضده دعوى قضائية في بريطانيا.. وقد طلبت المحكمة إلقاء القبض عليه ولم يعرف الجنرال بصدورالحكم.. كان الجنرال قادماً إلى مطار هيثرو على متن شركة طيران "العال " الإسرائيلية.. طلب منه قائد الطائرة أن يمكث في الخلف ولا يغادر، وأن ينتظر اللحق العسكري الإسرائيلي..

عادت الطائرة بالجنرال ولم يتكمن رجال الشرطة الذين كانوا ينتظرون عند منطقة الجوازات من القبض عليه.

أقام النشطاء دعوى قضائية ضد الشرطة البريطانية التي تقاعست في القيام بواجب إلقاء القبض عليه.. ودافعت الشرطة بأن الطائرة التي تقلّ الجنرال كانت تحمل قطع سلاح.. وحدث تخوف من تبادل إطلاق النار. إن "تسيبي ليفني" وزيرة الخارجية الإسرائيلية السابقة هي الأخرى مجرمة حرب، وتقدم فريق قانوني بريطاني برفع دعوى قضائية من أجل إعتقالها في حال دخولها الأراضي البريطانية. وقد كانت عملية حماية "ليفني" من

إلقاء القبض عليها عملية مهينة.. حيث تم إخفاؤها وتهريبها حين ذهب رجال الشرطة لإلقاء القبض عليها.

أما "موشي يعقون" الذى تولى رئاسة الأركان وجرى ترشيحه لمنصب وزير الدفاع فقد تراجع هو الآخر عن زيارة لندن بعد أن تم وضعه على قوائم الإنتظار بتهمة ارتكاب جرائم حرب.

لقد دفع هذا الوضع صحيفة "يديعوت أحرونوت" للقول "أصبحت إسرائيل مثل جنوب أفريقيا العنصرية.. أصبحنا دولة منبوذة"

▪ ▪ ▪

إن القول بنازية السياسة الإسرائيلية له صدى فى الداخل، فوزير الخارجية " افيجدور ليبرمان " له رؤى متطرفة للغاية.. يقول " توم سيجيف ":

"إن الديمقراطية تنسحب من دولتنا.. وزير خارجيتنا ينتمى لحزب كأحزاب اليمين المتطرف في أوروبا.. إن تجربتنا الديمقراطية فى إسرائيل تتعرض لخطر داهم". وإذا كان " ليبرمان " على نحو ما يقول "سيجيف" يشبه الأحزاب اليمينية المتطرفة فى أوروبا.. فإن "حركة القيادة اليهودية" التى أسسها "موشي فايجلين" هى حركة متطرفة تماماً.. إنها الحزب النازى الإسرائيلى.. ينقل الكاتب "نبيل زكى" عن "فايجلين" قوله: "لقد ارتقت النازية بألمانيا من الحضيض إلى وضع رائع مادياً وفكرياً.. بفضل النازية وصلت ألمانيا للكمال، وأصبح الشباب جزءاً رئيسياً من المجتمع، وساد نموذج للعدالة ".

احتل "فايجلين" المرتبة رقم (20) فى قائمة حزب الليكود فى انتخابات الكنيست. ويتضمن البرنامج السياسى طرد المسلمين تماماً من المسجد الأقصى وإلغاء الوقف الإسلامى وقطع المياه والكهرباء عن الفلسطينيين.

ويرى "فايجلين" ضرورة احتلال كل أراضى إسرائيل في فلسطين وسوريا ولبنان.. وأما عرب 1948 فإنهم أمام خيار واحد إما الولاء الكامل لإسرائيل أو الطرد وحق تقرير

المصير فى أى دولة عربية.

يؤمن "فايجلين" بالقتل والإبادة.. وأيّد مذبحة الإرهابى "جولد شتاين" فى الحرم الإبراهيمى.. والمقولة الحاكمة للنازيين الإسرائيليين هى قول "فايجلين" : " لا يوجد شئ اسمه الشعب الفلسطيني "!

• • •

إن النزعة النازية فى إسرائيل ليست موقفاً فكرياً أو أخلاقياً فحسب، بل لها أسبابها الموضوعية في الإحساس بالفشل والوهن.. والشعور العام بتآكل إسرائيل. إنها نزعة تحاول الرد على الهزيمة الداخلية التى أعقبت حرب 1973 ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية.

إن جانباً من الفكر السياسى العربى كان يركز على قوة وتماسك المجتمع الإسرائيلى بعد حرب 1967 ،وجانب أقل كان يركز على ضعف وتراجع المجتمع الإسرائيلى بعد حرب 1973 ، وجانب لا يذكر ذهب يبحث فى زيادة معدل التدهور الإسرائيلى بعد كامب ديفيد.. ذلك أن أغلب الفكر السياسى العربى كان يتحدث عن التدهور المصرى والعربى بعد كامب ديفيد دون رؤية ما الذى يجرى فى الناحية الأخرى.

• • •

لقد كان لافتاً للانتباه ماجاء فى رسالة الدكتوراة التى أقرها معهد البحوث والدراسات العربية للباحث الفلسطيني "أحمد وفيق عوض" والتى رصد فيها تدهوراً حاداً فى إسرائيل بعد كامب ديفيد.. يقول الباحث: "إن إسرائيل ذات الطابع العلماني والإشتراكي والقومي التي بدأت منذ عام 1977 تنحدر نحو الرؤية الدينية المتعصبة. أصبح الإسرائيليون يصوتون أكثر فأكثر لصالح طوائفهم وأيديولوجياتهم أكثر من صالح الدولة، زاد المتدينون فى الجيش والشرطة.. قد تصبح إسرائيل عما قريب غير إسرائيل التى تأسست عام 1948 ".

لقد توالت مؤشرات تراجع " الدولة الحديثة " فى إسرائيل.. حيث زاد الفقر

والجهل.. كما زادت أعداد الكافرين بالدين والدولة، وزادت معهم أعداد المهاجرين من إسرائيل إلى أى مكان آخر.

• • •

زاد الفقر فى إسرائيل حتى وصل إلى نسبة (30٪)، وحسب صحيفة "يديعوت أحرنوت" نقلاً عن الجهاز المركزى للإحصاء لعام 2011، فإن إسرائيل عضو فى منظمة البلدان المتطورة (OECD) والتى تضم (34) دولة.. أصبحت إسرائيل الأسوأ فى كل مؤشرات الفقر والتدهور وتدنى مستوى المعيشة بين كل بلدان المنظمة.

لقد توازى الفقر مع الجهل حيث تزيد نسبة المتدينين الذين لا يعرفون شيئاً عن العلوم الحديثة وكل معارفهم تقع داخل التوراة والكتب الدينية.

• • •

وبالمقابل فقد ظهر تيار آخر أصبح كافراً تماماً وخارج الدين. وفى عام 2011م رفع الأديب الإسرائيلى "يورام كانيوك" دعوى أمام المحكمة من أجل تغييرخانة الديانة من "يهودى" إلى "ملحد". ومن بعده ذهب قائد سلاح الجو الأسبق "عاموس عامير" بطلب لتغيير ديانته إلى ملحد.. أما الشاعر الإسرائيلى "عودد كراملى" فقد أسس صفحة على موقع التواصل الاجتماعى "فيس بوك" للراغبين فى التحول من "اليهودية" إلى "الإلحاد" وهى الصفحة التى انضم لها (600) إسرائيلى فى اليوم الأول فقط!

وقد دفعت هذه الصدمة الحاخام الأكبر السابق "إسرائيل لاو" للاعتراض والفزع.. وقال لاو : "إذا تخلينا عن اليهودية لن نكون أمّة.. نحن أمة بسبب التوراة.. وبدونها يتنهى وضعنا كأمة.. إن هذا تدمير تامّ لتاريخنا ودولتنا وأمّتنا".

إن مخاوف الحاخام "لاو" هى مخاوف طبيعية.. ذلك أن "اليهودية" هى الغطاء الأيديولوجى للمشروع الصهيونى.. وأن التحول منها إلى "الإلحاد" يرفع هذا الغطاء.. لكن آخرين كانوا يرفعون غطاء آخر لم ينتبه إليه "لاو".. هو أن معظم اليهود الحاليين هم من "المتحولين" أى الذين تحولوا من غير اليهودية إليها.. أى أنهم لم يكونوا يهوداً ولا هم

من نسل بني إسرائيل، بل هم أناس وأفراد من أديان ومذاهب شتى اعتنقوا اليهودية في إطار " تغيير الدين ".

• • •

جاء كتاب "شلومو ساند" الأستاذ في جامعة تل أبيب قوياً وصادماً في هذا السياق. يذهب "ساند" في كتابه "إختلاق الشعب اليهودي" الذى صدر عن "دار فيرسو" في لندن عام 2010م إلى أن أغلب اليهود هم من المتحولين دينياً.. من لم تطأ أقدامهم الأرض المقدسة.. ومن ثم فإن نظرية تأسيس دولة إسرائيل على أساس أن "الشعب اليهودي" الذى تأسس في زمن التوراة قد تاه وتبعثر ثم هو يعود الآن إلى أرض الميعاد هي نظرية غير صحيحة.. لم يكن هناك منفى ولا شتات ولا يوجد اليوم شعب إسرائيلى بل هو تجمّع من هذا الشتات.

ثم يتحدث "ساند" عن التحول الديني الكبير لمملكة (الخزر) في البحر الأسود إبّان القرن الثامن الميلادى إلى مملكة يهودية كشكل من أشكال الحياد الدبلوماسي أثناء الصراع الإسلامي المسيحي، وأن تحول "مملكة الخزر" شجع بعضاً من ذوى الأصول العرقية المختلطة الذين يشكلون أجداد اليهود الشرقيين الآن إلى اعتناق اليهودية خروجاً من ديانات أخرى. ثم ينتهي "ساند" للقول: "لا يوجد شعب إسرائيلى الآن.. إن إسرائيل مشروع سياسي.. إنه بلد جديد تماماً.. إنها أمة مخترعة".

• • •

إن الكفر بالدين يتوازى معه صعود ظاهرة الكفر بالدولة.. لم تعد إسرائيل هي المكان المفضل لهجرة اليهود.. بل عادت ألمانيا موطناً جديداً لهجرة اليهود إليها.. أو بتعبير أدق: عودة اليهود إلى ألمانيا.

وقد نقلت صحفية "الأهرام" عن وكالة الأنباء الفرنسية تقريراً مهماً حول الهجرة من إسرائيل.

يرصد التقرير موجة كبيرة من هجرة اليهود الإسرائيليين إلى بلدانهم الأصلية من

جديد. فقد ترك الآلاف إسرائيل وعادوا إلى ألمانيا حيث قام (50) ألف يهودى إسرائيلى بإحراق جوازات سفرهم الإسرائيلية وعادوا إلى بلادهم فى أوروبا الشرقية، ثم قدموا طلبات هجرة إلى ألمانيا.

ومنذ عام 1989م حيْن انهار حائط برلين ويهود أوروبا الشرقية لايهاجرون إلى إسرائيل بل إلى ألمانيا.. وقد زاد عددهم فى سنوات عن الـ (100) ألف مهاجر. إن "إسرائيل الحلم" تتراجع والهجرة التى كانت مقدسة لم تعد كذلك أو بتعبير الوكالة الفرنسية "بعد سنوات من هجرة الأجداد عاد الأحفاد وبدلاً من أن يتشبثوا بحلم الأجداد باعوا الحلم وغادروا أرض الميعاد".

• • •

لقد دفعت هذه الانهيارات المتتالية رئيس الوزراء الأسبق "إيهود أولمرت" للهجوم على الذين لايزالون يؤمنون بفكرة إسرائيل الكبرى غير مدركين أن إسرائيل الصغرى تنهار.. يقول أولمرت فى وضوح : "الواهمون فقط يعتقدون أن إسرائيل الكبرى مازالت ممكنة.. هذا فقط فى خيال الواهمين الذين لايفهمون الحقيقة".

لقد أصاب أولمرت تماماً.. إن خرافة إسرائيل الكبرى لاتوجد إلا فى أذهان الواهمين.. بل إن التعاطف من نظرية "دولة إسرائيل" الصغرى يتآكل ويتراجع.. وهو ما أصاب الفكر السياسى الإسرائيلى بالإنفعال والإنفلات. لقد تجلى هذا الإنفعال فى التعامل الإسرائيلى مع الخطاب الشهير للرئيس الأمريكى باراك أوباما فى جامعة القاهرة.

بلغ الإنزعاج مداه فى إسرائيل.. ليس بسبب السياسة ولكن بسبب الفلسفة.. إنه الإنزعاج من الإطار النظرى فى خطاب أوباما.. حيث رأت إسرائيل فى الخطاب إهانة لبنى إسرائيل ولتاريخ اليهود ولأرض الميعاد والتعامل معها كأزمة سياسية فقط لا غير.

وكتبت صحيفة "جيروزاليم بوست" تقول: "إن أوباما تحدث عن المحرقة وحدها.. وتجاهل تاريخاً طويلاً من معاناة اليهود امتد ثلاثة آلاف عام. إن معنى كلام أوباما أن

أوروبا قد جاملت اليهود فأعطتهم أرض فلسطين تعويضاً لهم عن المحرقة.. إن أوباما يرسّخ عند العرب أنه ليس لليهود وجوداً تاريخياً هنا، وأننا دولة أجنبية في المنطقة.. وأن " المحرقة النازية " هي السبب في وجودنا.. وليست أرض الميعاد هي السبب في قيام دولتنا ".

وقد جاءت تعليقات القراء ساخطة هي الأخرى.. "أوباما لا يريدنا.. ونحن لا نريده. حان وقت تغيير الحليف".. وكتب آخر "إن المكان الطبيعي لخطبة أوباما هو المجارى".. وكتب ثالث "هل يعتبر أوباما أن المحرقة هي كل الموضوع.. إذا كان الأمر كذلك.. فلتذهب المحرقة إلى الجحيم .. إن الموضوع ليس المحرقة بل أرض الميعاد".. وكتب رابع "إن أوباما تحدث عن الإسلام الذى لا يعرفه.. لقد ساوى أوباما ما بين أخلاقيات الغرب المتحضرة والمتسامحة وبين أخلاقيات الإسلام المتخلّفة".. وكتب خامس "إن أوباما شبّه المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل بالمقاومة التى قادها السود فى أمريكا ضد البيض".. وكتب سادس "إن أوباما تحدث عن القدس باعتبارها مكان الإسراء والمعراج ولقاء الأنبياء.. أى أنها مدينة الجميع وليست مدينة اليهود".. وكتب سابع "لقد شاهدنا فيلماً بعنوان "البلهاء" بطولة أوباما حسين " !

* * *

لقد زاد التعصب الإسرائيلى إزاء أفكار وسياسات الرئيس الأمريكى بارك أوباما عقب دعمه لتأسيس لوبى إسرائيلى آخر غير " الايباك ".. وهو لوبى " جى – ستريت " الذى يتخذ مواقف أكثر مرونة واعتدالاً من " الايباك ".

"الايباك" أقوى جماعة ضغط فى الولايات المتحدة، وهى جماعة ضغط ليكودية متطرفة تدفع السياسة الأمريكية إلى التطرف وراء إسرائيل. يعمل اللوبى الإسرائيلى " الايباك " فى العلن وفقاً للقوانين والتقاليد الأمريكية، ولا تزيد ميزانية " الايباك " عن (70) مليون دولار سنوياً ولكن حجم التأثير على السياسة الأمريكية بلاحدود.

ويلفت الدكتور "حازم الببلاوى" الانتباه إلى أنه من الضرورى أن نتحاور مع "الإيباك" علانية وإخراجه إلى النور.. ومعرفة ماذا يريد بالضبط ؟ هل يريد القضاء على الفلسطينيين ؟ علينا مواجهته مباشرة. إنه لا جدوى من الحوار مع الحكومة الإسرائيلية أو الحكومة الأمريكية دون الحوار مع "الإيباك"، ذلك أن "الإيباك" هو قوة التنفيذ الحقيقية.. هو الذى يجبر الإدارة الأمريكية على القرارات المطلوبة لصالح إسرائيل.

ويرى عدد من الباحثين البارزين أن القيمة الإستراتيجية لإسرائيل قد تراجعت، وأن الحديث عن القيم المشتركة ومكافحة الإرهاب حديث عن مصالح غير حقيقية.. ولكن "الإيباك" هو الذى يبقى على توهّم هذه القيمة الإستراتيجية وهذه المصالح المشتركة.

• • •

على الضفة الأخرى من الأطلسى يوجد النفوذ الكبير للمجلس الأعلى لليهود فى ألمانيا. وحسب البروفيسور " هاجن هورست " وهو أستاذ فى جامعة برلين فإن " المجلس الأعلى لليهود " يتدخل فى كل شئ تقريباً.. فقد حدث أن طلب المجلس طرد لاعب كرة قدم ألمانى لأنه رفض أن يلعب فى مباراة ودية مع المنتخب الإسرائيلى، كما حصل المجلس على حكم بالسجن ضد مواطن ألمانى لأنه لم يقتنع بواقعة المحرقة.

ونجح المجلس فى إقناع عدد كبير من الشباب الألمانى بالذهاب إلى إسرائيل لمساعدة العجائز والأيتام تكفيراً عن الذنب. وفى برلين يقام أكبر متحف للهولوكوست فى العالم.. ولا يزال هناك من يرى قبول تأسيس دولة يهودية ثانية فى ألمانيا.

وفكرة الدولة اليهودية فى ألمانيا تعود إلى ما بعد هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية، حيث انتقد صحفى ألمانى يدعى "دودى بيسى" رفض ألمانيا تخصيص قطعة أرض لإنشاء دولة يهودية عقب الحرب العالمية الثانية. وكان "بيسى" يدعو لإقامة دولة يهودية فى ألمانيا فى الوقت الذى كان صحفياً آخر هو "ميشيل كابون" يدعو لإنشاء دولة يهودية فى آلاسكا.

يعمل المجلس اليهودى فى ألمانيا فى المجال العام على نحو فعّال.. لكن ضغوطه السياسية بشأن الصراع العربى الإسرائيلى ليست فى جنوح " الإيباك " كما أنها ليست فى قوته. وتظل السياسة الألمانية أكثر استقلالاً فى مواجهة الرؤى الحاكمة للمجلس.

غير أن الولايات المتحدة لا تزال أسيرة " الإيباك ".. ولكن مدى وعمق الأسر الإسرائيلى للقرار الأمريكى قد دفع بعض المثقفين الأمريكيين لإعادة النظر.. بل والسعى للتخلص التدريجى من العبء الإسرائيلى على المصالح الأمريكية.

• • •

يفنّد "ستيفن وولت" من جامعة هارفارد و "جون مير شايمر" من جامعة شيكاغو فى دراستهما الأكاديمية الرصينة عن العلاقة الأمريكية الإسرائيلية.. تلك الفرضية السائدة حول تطابق المصالح بين واشنطن وتل أبيب.

يذهب المؤلفان إلى القول بأن استفادة الولايات المتحدة من إسرائيل قول خاطئ.. وينقلان عن.. "هارون براون" رجل السياسة البارز فى فترة "جيمى كارتر" قوله للصحفى المعروف "سيمور هيرش": يبدو لى أن الفكرة القائلة بأن إسرائيل تمثل ورقة إستراتيجية هى فكرة هوجاء تماماً ".

ويقرر المؤلفان أن الدعم العسكرى الأمريكى لإسرائيل عام 1973م كان كارثياً على أمريكا.. فقد كلّف واشنطن الكثير بعد صدور قرار حظر تصدير النفط. وهو ما ألحق أضراراً إقتصادية بالغة.. ثم إن قوة إسرائيل لم تستطع حماية المصالح الأمريكية حين قامت الثورة الإيرانية عام 1979م.. حيث لم يكن فى وسع الولايات المتحدة الاعتماد على إسرائيل، فأسست " قوة الإنتشار السريع " الخاصة بواشنطن.

وفى حرب تحرير الكويت عام 1991، كانت إسرائيل عبئاً على السياسة الأمريكية.. لم تستطع الولايات المتحدة استخدام القواعد العسكرية الإسرائيلية خلال الحرب خشية انهيار التحالف.. بل كانت إحدى المهام الأساسية للسياسة العسكرية

الأمريكية هو الضغط على إسرائيل لكي لا تدخل الحرب إلى جانب الولايات المتحدة!

وحتى بعد أحداث 11سبتمبر، أصبحت إسرائيل عبئاً على الحرب ضد الإرهاب، وحتى المنظمات التي تهدد أمن إسرائيل مثل حزب الله وحماس.. لا تهدد الأمن الأمريكي.. ولم تقم بأي سلوك معادي للولايات المتحدة إلا حين تدخلت واشنطن في لبنان عام 1982م. ثم إنه – بحسب الكاتبين – لا يوجد عنف عشوائي فلسطيني.. بل هو عنف منظم وله منطق وهو دائماً رّد على ماتفعله إسرائيل.

وعلى الرغم من هذا العبء الإستراتيجي، فإن واشنطن استخدمت حق الفيتو لصالح إسرائيل بعدد يفوق العدد الإجمالي للمرات التي استخدم فيها أعضاء مجلس الأمن الآخرون حق الفيتو.

وتعرقل الولايات المتحدة وضع السلاح النووي الإسرائيلي على جدول أعمال الوكالة الدولية للطاقة الذرية.. وفي مفاوضات كامب ديفيد بين الإسرائيليين والفلسطينيين عام 2000م.. قال أحد المشاركين الأمريكيين في المفاوضات: "لقد كنّا في الأعّم الأغلب من الحالات نقوم بدور المحامي عن إسرائيل!"

وفي عام 2011م، هددت واشنطن منظمة اليونسكو بالعقاب المالي بسبب قبول دولة فلسطين عضواً في المنظمة الدولية.

وإذا أضيف لذلك جانب المساعدات المالية.. حيث منحت واشنطن إسرائيل مساعدات لامثيل لها.. فإن عبء إسرائيل الإقتصادي يضاف للعبء السياسي والإستراتيجي.

• • •

يحدّد " ستيفن وولت " و " جون ميرشايمر " حجم المساعدات التي تلقتها إسرائيل من الولايات المتحدة مابينَ عامي (1973 و2003م) بنحو (140) مليار دولار.. أي أن إسرائيل قد حصلت على هذا الحجم الأسطوري من المعونات في ثلاثين عاماً فقط!

وتتلقى إسرائيل سنوياً ثلاثة مليارت دولار مساعدات أمريكية مباشرة، الأمر الذى

يعني أن الولايات المتحدة تقدم لكل "إسرائيلي" عوناً مباشراً قدره (500 دولار) سنوياً!

لقد طرح "إيلان بابي" السؤال الأكثر جرأة.. "إن ميزان القوى العسكرية حالياً لصالح إسرائيل.. لكن هل يمكن أن يتغير في أي لحظة.. إذا ما قررت أمريكا سحب دعمها لإسرائيل ؟!"

ويمضي الكاتب الأمريكي "توماس فريدمان" قائلاً : "لقد واكب الربيع العربي في 2011 انهيار أركان الأمن الإسرائيلي : السلام مع مصر، والاستقرار مع سوريا، والصداقة مع تركيا".. "إن طرد السفيرين الإسرائيليين في القاهرة وأنقرة وإخلاء السفارة الإسرائيلية في عمان يعني انهيار جهد سنوات طويلة من العمل على الاندماج كجارة مقبولة في المنطقة تلفظ من داخلها دولة اليهود".. ثم يصل "توماس فريدمان" للقول: "إن إسرائيل تمارس سياسات تتناقض مع مصالحها هي ومع مصالح الولايات المتحدة.. إن إسرائيل لا توفر لأوباما أي وسيلة للدفاع عنها.. هي أمام خيارين الاعتدال أو العداء مع الجميع.. وإلا تدهورت عزلة إسرائيل أكثر من ذلك و أخذت معها الولايات المتحدة".

• • •

لقد هبطت إسرائيل في عام 1973م ثم واصلت الهبوط بعد عام 1977م.. ثم وصل الهبوط مدى جديداً في حرب عام 2008م.. ثم تواصل مع موجة الربيع العربي في عام 2011م.. فقدت إسرائيل بريق الدعاية، واستنفذت حملة العلاقات العامة طاقتها في الترويج والتسويق .. لم تعد إسرائيل كما كانت في عام 1967م.

المؤرخون الجدد..

الإنحراف جهة اليمين



استمرت حركة المؤرخين الجدد في إسرائيل في العمل.. وخرجت عناوين عديدة في العقد الأول من القرن الحادى والعشرين. وكان أبرز الذين واصلوا الإنتاج الفكرى من بين المؤرخين الجدد : توم سيجيف وآفي شلايم وبيني موريس وإيلان بابي.

درس "توم سيجيف" التاريخ والعلوم السياسية في الجامعة العبرية.. حصل على الدكتوراة من جامعة بوسطن وعمل أستاذاً زائراً في جامعة كاليفورنيا بيركلي.

ومثل "توم سيجيف" درس "بيني موريس" التاريخ في الجامعة العبرية.. حصل على الدكتوراة من جامعة كامبريدج وعمل أستاذاً في جامعة ميريلاند الأمريكية.. أما "آفي شلايم" فقد درس التاريخ في جامعة كامبريدج، والعلاقات الدولية في مدرسة لندن للإقتصاد والعلوم السياسية، وحصل على الدكتوارة من جامعة ريدنج البريطانية.. ووصفته مجلة "The Nation" بأنه من أكثر المؤرخين الجدد تعمقاً في إسرائيل.

يبقى "إيلان بابى" الذى حصل على الدكتوارة في التاريخ من جامعة أكسفورد. قاد في عام 2005 حملة لمقاطعة إسرائيل أكاديمياً من الخارج.. وأطلق "المؤتمر الإسرائيلى لحق العودة" والذى يدعم حق عودة اللاجئين الفلسطينيين الذين تم تهجيرهم عام 1948، وفي عام 2007 غادر "إيلان بابى" جامعة حيفا قائلاً أن ذلك لصعوبة العيش في إسرائيل، وفي عام 2006 ألف كتابه "التطهير العرقي للفلسطينيين".. وهو الكتاب الذى اعتمد فيه على إثباتات من وقائع الأرشيف الرسمي الإسرائيلي تثبت التخطيط المسبق لعملية التطهير وكيفية تنفيذها.

• • •

فاجأ "توم سيجيف" الأوساط الأكاديمية في إسرائيل بكتابه الذى أصدره في مناسبة مرور (40) سنة على حرب 1967 وعنوانه - 1967 إسرائيل.. الحرب.. العام الذى حَول الشرق الأوسط".

إن مفاجأة "سيجيف" تكمن في التقليل من قيمة الانتصار الإسرائيلى في حرب

1967.. بل إنه يذهب إلى أن إسرائيل التى حققت انتصاراً منهلاً من الناحية العسكرية فى حرب 1967.. قد أفشلت مشروعها السياسي على مدى (40)عاماً.. "إن الانتصار العسكرى لا يعني بالضرورة خطوة تجاه الحل السياسي.. الحرب لم تكن لها أى فائدة من وجهة نظرى" ١

وتمتد رؤية "سيجيف" المحبَطة من 1967 إلى ربيع 2011. يصف "سيجيف" قادة إسرائيل الحاليين بأنهم ليسوا سوى مجموعة من الموظفين محترفى السياسة.. لكنهم ليسوا قادة.. أداؤهم السياسى لايعبر عن شئ.. فقط العجرفة والغرور.

ويمضى " سيجيف "فى حديث إلى مجلة " ديرشبيجل ".. " منذ قيام إسرائيل ونحن نعتقد أننا أفضل من العرب.. لكننا الآن مفاجئون بصورة أخرى.. إنهم يفكرون الآن فى الديمقراطية بجدية،لهذا لم نعد نستطيع التباهى بأننا الدولة الديمقراطية الوحيدة فى المنطقة ".. " المخيف أننا نجد الديمقراطية تتجه نحوهم وتنسحب من دولتنا.. فوزير خارجية إسرائيل ينتمى لحزب كأحزاب اليمين المتطرف فى أوروبا. وهذا بالطبع يعنى أن الديمقراطية فى إسرائيل حالياً تتعرض لخطر داهم.. وهذا فى نظرى أخطر من أى تهديد خارجي يمكن أن يلحق بنا ".

• • •

لقد فاقمت حرب 2008 التى شنتها إسرائيل على قطاع غزة من إحساس بعض المؤرخين الجدد بهبوط إسرائيل.

وذهب " آفى شلايم " إلى أن تدمير غزة أمر مخطط له منذ (40) سنة.. تكديس عدد كبير من الناس فى مساحة صغيرة من الأرض.. حيث لا موارد ولا بنية تحتية تسمح بقيام مجتمع متفسّخ لكى تظل التبعية الكاملة لإسرائيل.. ثم قامت إسرائيل ومعها أمريكا والأمم المتحدة بفرض الحصار وقطع المساعدات.. وهذا أبشع صور الاحتلال.

وفى مقال له فى صحيفة "الجارديان" البريطانية مطلع العام 2009 بعنوان "كيف

دفعت إسرائيل بغزة إلى حافة كارثة إنسانية "

يقول "آفي شلايم" : " أنا نفس الشخص الذى التحق بالجيش الإسرائيلى فى منتصف الستينات.. ولم أتشكك يوماً فى شرعية وجود الدولة الإسرائيلية. لكن بعد هذا العدوان الوحشى على غزة.. أنا لم أتغيّر.. لكن دولتى هى التى تغيرت.. ولأكون أكثر دقة.. إن دولتى هى التى توحشت"

فى نوفمبر عام 2010، صدر كتاب مهم للمؤرخ الإسرائيلى "إيلان بابى" والمفكر الأمريكى "نعوم تشومسكى".. الكتاب بعنوان "غزة فى أزمة.. تأملات فى الحرب الإسرائيلية على الفلسطينيين" وهو من تحرير الصحفى البريطانى " فرانك بارت ".

كان "آفى شلايم" واضحاً فى إدانة إسرائيل.. وقد تجاوز فى إدانته وقائع الحرب المأساوية على غزة فى عام 2008 إلى إدانته السياسية العامة لإسرائيل باعتبارها سياسة عنصرية.

يقول " آفى شلايم " : " إن سمات الفصل العنصرى واضحة فى السياسة الإسرائيلية تجاه الأقلية الفلسطينية ومحاولة إنهاء الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا يمكن أن تكون مصدراً للإلهام السياسى فى مناهضة إسرائيل. يمكن للفلسطينيين الاستفادة من خبرة العالم الخارجى من أجل محاربة التمييز داخل إسرائيل ".

توسّع "آفى شلايم" فى مساحة نقده للنظام الإسرائيلى إلى توجيه انتقاده للنظام الأمريكى.. وفى حديث لوكالة الأنباء الفرنسية فى منتصف ديسمبر 2010 قال "آفى شلايم" : " إننى لا أرى فى نتنياهو إلا شخصاً متعنتاً.. إن أوباما هو الآخر بدأ يفقد مصداقيته.. ومن الغريب أن يلتقى ثلاث مرات وجهاً لوجه مع نتنياهو ويفشل فى اقناعه بتجميد الاستيطان فى المرات الثلاث ".

• ▪ •

إن نظرة واحدة إلى وجه نتنياهو تستدعى على الفور ما قاله الرئيس الكوبى السابق

"فيدل كاسترو" عن الرئيس بوش الابن : "كل ما أخشاه.. أن يكون هذا الرجل بالغباء الذى يبدو عليه "!

كلما تحدث العالم إلى نتنياهو عن "فلسطين" يتحدث عن "حماس" ويسأل: كيف يمكن التفاوض مع حركة لا تعترف بإسرائيل ؟

• • •

لقد سأل "فرانك بارت" هذا السؤال لإيلان بابى وكان جواب "بابى": " إن السلام يُصنع بين الأعداء وليس الأصدقاء.. إن منظمة التحرير الفلسطينية دخلت المفاوضات مع إسرائيل دون تغيير ميثاقها والذى ينطوى على نفس رؤية حماس. ماينبغى البحث عنه.. كيف يمكن أن نعيش معاً ؟"

• • •

لكن هذه الرؤية المنفتحة ليست وحدها في ساحة المؤرخين الجدد.. ثمة رؤية عنصرية يمثلها قطاع كبير داخل الحركة.. بينى موريس واحد من هؤلاء. لا يمثل "بينى موريس" قيمة فكرية رفيعة.. فهو رجل محدود ولكنه كثير الصراخ.. ترك اليسار وتحرك إلى أقصى اليمين.. ولم يقدم شيئاً ثميناً فى الجانبين.. ويقلل المحللون من قيمة مؤلفاته.

فى عام 2008، أصدر "بينى موريس" كتابه "1948.. تاريخ أول حرب بين العرب وإسرائيل".. وهو كتاب باهت لم يقدم جديداً، وكأن "بينى موريس" قد ألّف الكتاب ليُقال عنه أنه لا يزال قادراً على التأليف!

وفى عام 2009، جاء كتابه العنصرى "دولة واحدة.. دولتان".. وهو كتاب ركيك فكرياً وأخلاقياً.. أخطأ طريقه من سلة المهملات إلى أرفف المكتبات. يمتلأ هذا الكتاب بكم هائل من المقولات العنصرية الرخيصة.. "من المستحيل قيام دولة إسرائيل النقيّة بدون طرد العرب وراء الخط الأخضر".. " إن العرب والمسلمون برابرة".. "إن حياة الفرد تحت ظلال الإسلام ليست ذات قيمة على الإطلاق".

لقد جرّت هذه المقولات البغيضة على "بيني موريس" غضب الطلاب المسلمين في أوروبا.. حيث قامت حملة من مسلمي أوروبا تتهمه بالفاشية والعنصرية ومعاداة الإسلام. وقد احتج الطلاب على حضوره عدداً من المحاضرات العامة.

ويروي "بيني موريس" لصحيفة "جيروزاليم بوست" في يونيو 2011 عن واقعة من وقائع الاحتجاج الإسلامي على نشاطاته في أوروبا.. يقول: "ذهبت لإلقاء محاضرة في مدرسة لندن للإقتصاد والعلوم السياسية.. تجمّع حولي العديد من المسلمين واتهموني بالفاشية والعنصرية ومعاداة الإسلام.. إنه مشهد يشبه مجموعة من النازيين يتحلّقون حول يهودي في أحد شوارع برلين من أجل التخويف والترويع. إنني قلق من تزايد أعداد المسلمين في الغرب وصعود نفوذهم.. وقدراتهم على ترويع كل من يختلف معهم في الرأي.. إن تزايد أعداد المسلمين يضعف حرية التعبير".

وهكذا فإن "بيني موريس" يعتبر وصف المسلمين بالبرابرة ووصف حياة الفرد المسلم بأنها بلا قيمة.. هو نوع من حرية التعبير.. كما أنه يعتبر دعوته العنصرية لإلغاء كل العرب في إسرائيل وإعلان الدولة العبرية دولة يهودية نقية بعد إزاحة أكثر من مليون عربي.. هو نوع من حرية الرأي.

• • •

إن نتاج المؤرخين الجدد في إسرائيل طيلة العقد الأخير يقع إجمالاً تحت عنوان كبير هو "الإحباط" .. إنه الإحباط من التردي الأخلاقي للدولة العبرية إزاء ممارستها للسياسات العنصرية وعمليات التطهير العرقي، وهو إحباط من الصعود الإسلامي في أوروبا والعالم، ويصل الإحباط مداه في خلق شعور عدمي باللامعنى واللاجدوى.. !

إن كل الصعود في الماضي لم يؤدِ إلى شيء.. بل إن الانتصار الإسرائيلي الكبير في حرب 1967.. كان هزيمة سياسية حيث لم يتجاوز الانتصار معارك السلاح.. أما معالم الإنكسار فقد أحاطت بمجمل المشروع الصهيوني.



تكسير المحيط..

أصداء الحروب الصليبية



قبل ألف عام كانت الحروب الصليبية على العالم العربي.. كانت حروباً استعمارية لكنها أعلنت نفسها حروباً دينية ووضعت الصليب فوق أطماعها.

حين استقرت الحملات الاستعمارية "الصليبية" في سواحل الشام.. دارت معارك المائة عام بين العرب والغرب.. حتى انهزم الصليبيون في عهد القائد الأشهر صلاح الدين الأيوبي.

إن إسرائيل تضع حرب المائة عام أمام أعينها باستمرار.. ويذكر الكاتب اللبناني "محمد السماك" أن إسرائيل حين نشأت قامت على الفور بتأسيس "مركز دراسات الحروب الصليبية" لتفادى ما حدث قبل ألف عام!

رأت إسرائيل أن صلاح الدين قد نجح حين حقق الوحدة بين مصر وبلاد الشام وكانت نقطة الوصل هي منطقة "العقبة" على البحر الأحمر.. لذلك ضغطت إسرائيل بقوة في اتفاقية الهدنة في رودس عام 1949 من أجل احتلال منفذ على البحر الأحمر يقطع الطريق بين مصر وبين الامتداد العربي.

وجدت إسرائيل أيضاً أن الصليبيين يعتمدون كلياً على الدعم الخارجي.. فقررت بناء قوة عسكرية ذاتية.. تطورت باستمرار حتى امتلكت السلاح النووى.. رؤوساً وصواريخ.

ولمّا كان توحيد صلاح الدين للإمارات العربية المتنازعة في الشام بداية سقوط الغرب المحتل (الفرنجة)، عملت إسرائيل على منع أى تفاهم عربي وسعت إلى تقسيم المنطقة إلى دويلات وطوائف ومذاهب.

ومن أجل.. توحيد إسرائيل وعدم توحيد المحيط العربي، ذهبت تعتمد إسرائيل مبدأ الحرب الهجومية.. إنها لا تنتظر أبداً.

وتاريخها هو سلسلة حروب هجومية من حرب 1967 إلى حرب لبنان عام 2006

إلى حرب غزة عام 2008.. مروراً بغزو لبنان وضرب المفاعل النووى العراقى ثم المفاعل النووى السورى.

• • •

إن إسرائيل تستخدم العنف إلى آخر المدى دون أى التزام قانونى أو أخلاقى.. وفى حرب غزة عام 2008، استخدم الجيش الإسرائيلى القنابل الفسفورية الممنوعة دولياً.. وقال الأطباء: "إن جثث القتلى تأتى محترقة.. حتى عظام القتلى تحترق".. ويلتهب الفسفور الأبيض بمجرد تعرضه للأوكسجين.. حيث يشتعل ويتأكسد بمجرد ملامسة الهواء.. فيتولد لهب أصفر ينتج عنه دخان أبيض كثيف.

جاء تقرير صحيفة "التايمز" البريطانية بدلائل عديدة لاستخدام إسرائيل الفسفور الأبيض. وقالت صحيفة "الاندبندنت" إنها قنابل "الداين" وهى قنابل معبأة بمسحوق كيمائى تؤدى إلى شظايا تدخل الأنسجة وتدمرها.

وحسب طبيب نرويجى استقبل مئات الحالات: " لقد عملت ثلاثين سنة لم أجد فى حياتى هذه الإصابات.. إن الفسفور الأبيض يحرق جسم الإنسان ولحمه ولا يبقى منه إلا العظم فى أفضل الحالات ".

ويمثل استخدام هذه القنابل "جريمة حرب" طبقاً لاتفاقيات جنيف. جاء تقرير صحيفة "لوموند" الفرنسية أكثر خطورة.. قالت "لوموند": "إن الأسلحة المستخدمة ليست قنابل فسفورية ولا عنقودية.. بل هى نوع جديد من الأسلحة يصعب معرفته.. فى مدى (8) متر تقطع الأيدى والأرجل والرأس وتحرقها تماماً بما فيها العظام، وفى مدى (2) متر تقطع الجسم إلى جزأين.. وهذه القنابل معروفة داخل الجيش الأمريكى فقط"

• • •

امتدت جرائم إسرائيل ضد الفلسطينيين من "جرائم الحرب" إلى "جرائم التاريخ".. فقد سرقت إسرائيل ما بقى من التاريخ الفلسطينى والمعالم الإسلامية الكبرى.. حيث وضعت إسرائيل "حائط البراق" ضمن المقدسات اليهودية!

وحين أصدرت السلطة الفلسطينية تقريراً رسمياً يؤكد أن حائط البراق ليس يهودياً ولا صلة له باليهودية، قام نتنياهو بالهجوم على التقرير وقال: "إن حائط البراق هو حائط يهودى تماماً.. وأنه يعود لمجمع معابد يهودية تم تدميرها منذ قرون"!

إن حائط البراق هو المكّون الثّالث في الحرم القدسى الشريف.. يضم الحرم المسجد الأقصى وقبة الصخرة وحائط البراق.

قامت إسرائيل بضم حائط البراق.. ومنذ احتلالها للحرم فى عام 1967، تطلق إسرائيل على "الحرم القدسى" اسم "جبل الهيكل"!

إلى جانب ذلك.. اعتاد الفلسطينيون على جرائم منتظمة بشأن حرق المساجد.. ورسم نجمة داوود اليهودية على المنابر!

• • •

إن ما يدعو للذهول فى هذا السياق هو ابتكار الأفكار في شأن التضييق على أشخاص المسلمين.. من منع شباب المصلين من دخول المسجد الأقصى إلى تدريب كلاب الحراسة على مهاجمة كل من يقول "الله أكبر".

وهو ما دعا النائب العربى في الكنيست "أحمد الطيبى" لتقديم استجواب لوزير الدفاع الإسرائيلى حول قيام الجيش بتدريب وحدة كلاب للهجوم على أى شخص ينطق كلمة "الله أكبر".. وروى الطيبى أن أحد الأشخاص فى إحدى الحفلات صاح مبتهجاً "الله أكبر" فانقضت عليه الكلاب!

وتساءل الطيبى: ماذا لو مرّت الكلاب إلى جوار مسجد أو أناس يقيمون الصلاة ؟!

• • •

إن جرائم إسرائيل تمتد إلى غير حدود.. هى تصل إلى المياه الجوفية تحت الأرض وتمتد إلى المياه السطحية فى عرض البحر.

ويذكر تقرير المجلس العربى للمياه أن إسرائيل تسرق (85٪) من مياه الأراضى

الفلسطينية.. إنها تسحب المياه الجوفية وتمنحها للمستوطنين.. ثم تلقى بـ (40) مليون متر من الصرف الصحى إلى وديان الضفة وسهولها!

وبدورها فإن مياه الصرف الصحى الإسرائيلية وبقايا القنابل الفسفورية تتسرب إلى المياه الجوفية التى يستهلكها الفلسطينيون.. وتمنع إسرائيل تقديم أى مساعدات فى تنظيف أو تدوير مياه الصرف الصحى وترفض إقامة أى محطات للمعالجة. وقد جاء مسار الجدار العازل فى الضفة الغربية ليضع أكبر خزانيْن للمياه فى الضفة الغربية وراء الجدار خارج الضفة!

وفى الوقت الذى قامت فيه إسرائيل بتلويث البيئة البحرية لقطاع غزة، وهو ما أدى إلى ضعف الثروة السمكية فى شواطئ القطاع.. تقوم إسرائيل بالتعاون مع الولايات المتحدة بالبحث عن البترول قبالة تلك الشواطئ.

لدى الإسرائيليين قناعة دينية بوجود البترول وقرب اكتشافه واستغلاله.. ويقول الأصوليون اليهود: إن إسرائيل المعروفة بأرض اللبن والعسل.. ستصبح أرض اللبن والعسل والبترول.. فقد جاء فى التوراة أن " أبناء يوسف سيجدون الزيت".. والزيت هو البترول.. ويقول رجال الأعمال الإسرائيليون أن السبب الرئيسى فى قيامهم بالتنقيب عن البترول هو إيمانهم الكامل بالتوراة وبأن إسرائيل ستكون "مملكة البترول الجديدة" ولذلك تم إطلاق اسم "يوسف" على منصة التنقيب!

• • •

إن إسرائيل التى درست الحروب الصليبية وبدأت السياسات التى تجعل منها قوة عسكرية غير أخلاقية.. وقوة جامعة لما فيها ومانعة لاجتماع ما حولها.. تجد فى مصر العدو الأكبر الذى يمكنه أن يربك المعادلة كما أربكها قبل ألف عام حين قاد معارك إنهاء الوجود الصليبى فى المنطقة.

وعلى الرغم من أن سياسات الرئيس المصرى السابق حسنى مبارك لم تمثل أى تهديد لإسرئيل.. بل مثلت تهديداً حقيقياً لدور ومكانة الدولة المصرية.. غير أن إسرائيل عملت باستمرار من أجل مصر أكثر ضعفاً.. من الوضع الضعيف الذى حققه مبارك.

وفى تحقيق مثير لصحيفة "الكرامة" المصرية تم عرض المحاولات المستمرة لإسرائيل من أجل تهويد عدد من سكان سيوة.. تلك الواحة الواقعة على بعد (800) كم من القاهرة والأكثر جمالاً فى العالم.

يرى الإسرائيليون أنه يمكن تكرار تجربة "الفلاشا" فى إثيوبيا و"الايجو" فى نيجيريا.. أى تجربة "تهويد من هم ليسوا بيهود".. ويمكن أن يكون سكان سيوة "الفلاشا المصريين الجدد!".. ويقول الدكتور "إبراهيم نصر الدين" الخبير فى الشئون الأفريقية أن إسرائيل تدخل إلى سيوة من باب التفرقة بين أهل سيوة الشرقيين على اعتبار أنهم أفارقة، وأهل سيوة الغربيين على اعتبار أنهم "أوربيين".. وتقول إسرائيل أن أهل سيوة يشبهوننا.. شرقيون وغربيون فى سيوة وسفارديم وأشكيناز فى إسرائيل!

ثمة ضغوط على الجهة الشمالية الشرقية فى سيناء.. وقد تكرر إعلان إسرائيل إنشاء مفاعل نووى على الحدود مع مصر.. ففى صيف 2007، أعلن وزير الطاقة الإسرائيلى "بنيامين بن اليعازر" عزم تل أبيب إنشاء مفاعل نووى على الحدود مع مصر.. ليكون هذا المفاعل بديلاً لمفاعل ديمونة الذى انتهى عمره الافتراضى.. على أن يكون المفاعل بقوة (1500) ميجاوات.

وقد أعادت الباحثة السويدية "إيان أنجونى" لفت الانتباه إلى المفاعل الإسرائيلى المحتمل ومخاطره.. وتساءل الدكتور "عصمت زين الدين" رئيس قسم الطاقة النووية السابق فى كلية الهندسة جامعة الإسكندرية عن مكان دفن النفايات النووية للمفاعل الجديد.

• • •

ترى إسرائيل فى سيناء منطقة فراغ.. وحدث تفكير متواصل بأن تكون وطناً بديلاً

للفلسطينيين.. وأشاعت إسرائيل عن أهل سيناء مثلما أشاعت على أهل سيوة.. ويقول الكاتب "محمد حسنين هيكل" أن هناك تقرير أمريكي يزعم أن سيناء ليست مصرية وأن بعض الساسة الأمريكان فكروا في حل مشكلة اللاجئين الفلسطينيين بتوطينهم في شمال العراق.. لكن هذه الفكرة تغيّرت بعد الغزو الأمريكي للعراق. ويحذر " هيكل " من أن يعتبر البعض سيناء "أرض فراغ" قد تمتلئ بشئ آخر.. ويقول: "إذا تم فصل سيناء عن مصر.. تتحول مصر إلى دولة أفريقية محدودة"

ومن سيوة إلى سيناء ثم إلى أسوان.. حيث محاولات الوجود الإسرائيلي في ملف النوبة.. وعبر التلميحات المتكررة بإمكانية قيام إسرائيل بضرب السد العالى.. ولقد جاء ذلك التهديد ذات يوم على لسان وزير الخارجية الإسرائيلى "افيجدور ليبرمان" حين هدد بضرب السد العالى بالقنابل النووية وإعادة مصر إلى القرون الوسطى!

• • •

تحاول إسرائيل منع مسار الحروب الصليبية.. بابتكار جرائم حروب وجرائم تاريخ وجغرافيا.. تحاول منع احتمالات سيئة لإسرائيل بخلق كافة الأوضاع السيئة للجميع.

الفاشية الصهيونية..

تهديد الغرب



باتت الصهيونية أيديولوجياً مخيفة.. وباتت قمعها للرأى الآخر بلاحدود. إن كل القضايا مجال للنقاش والإختلاف لكن الهجوم على إسرائيل أو المتطرفين اليهود.. ليس مجالاً للرأى والحوار.

قصص عديدة تتوالى عن القسوة التى تلحق بالواقفين في الجانب الآخر إذا ما قرروا الإفصاح والتعبير.

واحدة من القصص تتعلق بمذيع شبكة CNN "ريك سانشيز".. استضاف "سانشيز" القس المتطرف "تيرى جونز" فى مواجهة تليفزيونية حول فكرة "جونز" بحرق القرآن الكريم.. وصف "سانشيز" فكرة حرق القرآن بأنها "مجنونة" قام المذيع الساخر "جون ستيوارت" وهو مذيع أمريكى يهودى بالسخرية من "ريك سانشيز".

اغتاظ "سانشيز" من طريقة "جون ستيوارت" وحين استضافته محطة إذاعية أمريكية قام " سانشيز " بنقد "جون ستيورات" وقال: "إن اليهود المتعصبون أمثال جون ستيوارت المتطرف.. يتحكمون فى الإعلام الأمريكى كله.. حتى شبكة CNN التى أعمل فيها منذ سنوات يعمل فيها موظفون متطرفون مثل جون ستيورات".

كانت المفاجأة.. أن جون ستيورات لم يرد.. واليهود المتهمون بالتعصب لم يناقشوا.. ماحدث كان شيئاً واحداً.. قامت شبكة CNN بفصل "سانشيز" من العمل!

اعتذر "سانشيز" فى عشرات البرامج عمّا قال.. اعتذر عن أقواله وآرائه، ولكن لم يتم قبولها. كان "سانشيز" لديه عروض تفاوض مع شبكتى FOX و NBC .. رفضت الشبكتان قبوله وأوقفت التفاوض.

وكان لدى "سانشيز" كتاب بعنوان " حماقة مألوفة " جرى الترويج له قبيل التصريحات، تم التضييق على الكتاب وإزاء الحملة على سانشيز فشل الكتاب تماماً..

وانتهى سانشيز معلقاً رياضياً فى دوري الجامعات.

إن "ريك سانشيز" ليس المثقف المتميز أو الإعلامي ذو المكانة الرصينة .. فهو كثير الأخطاء ومتعدد الأزمات.. لكن أزمته مع الرئيس أوباما انتهت فى هدوء.. هاجم أوباما بشكل غير لائق ثم اعتذر وانتهى الأمر لكنه حين هاجم النفوذ الإعلامي لليهود فى الولايات المتحدة تم إلغاء مستقبله المهنى تماماً.. ولم يشفع له ذلك الكم الهائل من الاعتذارات.

• • •

إن "هيلين توماس" هي الأخرى قصة مثيرة.. هيلين هي واحدة من أشهر الأسماء الصحفية فى الولايات المتحدة، وهي تلقب بعميدة الصحافة الأمريكية.. حيث عملت هيلين مراسلة لوكالة "يونايتدبرس" ستين عاماً.. ولها مقعد دائم فى الصف الأول لأى مؤتمر صحفى فى البيت الأبيض.. تحدثت هيلين توماس عن السياسات الإسرائيلية تجاه الشعب الفلسطيني واستنكرت : "كيف يكون لنا علاقة قوية بدولة قاتلة.. كيف تقول إنك تأسف.. هل الأسف يعيد الموتى ؟ ".. ثم ذهبت هيلين بعيداً وقالت: "إن حل الصراع فى الشرق الأوسط سهل وبسيط. ويتمثل فى عودة اليهود إلى ديارهم التى جاءوا منها فى بولندا وألمانيا، وعلينا أن نتذكر دوماً أنهم أشخاص محتلون".. وحين سألها أحد الصحفيين عما إذا كانت تقصد ذلك بالضبط قالت: "نعم.. قل لهم.. يخرجوا من فلسطين" ثم عقبت: "أنا أعرف أن كلامى هذا يعنى استقالتى وخروجى من البيت الأبيض.. ".

تم بث حديث "هيلين توماس" على موقع "يوتيوب" وفى اليوم الأول فقط وصل عدد مشاهديه أكثر من مليون وربع المليون شخص..

لقد ذهبت هيلين – كما تحدثنا – بعيداً، وهى مسافة أبعد كثيراً مما تراه الجامعة العربية من وجود دولتين فى فلسطين أو ما تراه بعض الأطروحات العربية من وجود دولة واحدة لكل مواطنيها العرب واليهود معاً. وعلى حين يتفق العرب على ضرورة عودة

اللاجئين الفلسطينيين غير أنه لا توجد أية قوى مؤثرة تطالب بإخلاء فلسطين من اليهود أوعودتهم إلى ديارهم.

إن هيلين التي ذهبت بعيداً.. كانت متأثرة بآلاف القتلى والجرحى في الحرب على غزة عام 2008 وبمجمل الإعتداءات الإسرائيلية على فلسطين.

على أن ردّ الفعل على تصريحات "هيلين" كان عاصفاً وبلا توقّف.. ألغت شركة العلاقات العامة تعاقدها المالى الكبير مع هيلين، وتم نزع بطاقتها الصحفية، وجرى طردها من جمعية الراسلين. وكانت هيلين قد حصلت على جائزة صحفية مهمة.. تم الضغط على الهيئة المانحة لإصدار قرار بسحب الجائزة.

وأمّا الكتاب المشترك الذى أصدرته هيلين مع كاتب أمريكى آخر عن الرئاسة الأمريكية وعنوانه "ماذا تريد أن يقول ويفعل رئيسك ؟"، فقد توقف عن الصدور بعد اعتراض الكاتب المشارك وتقديمه طلباً بعدم إصدار طبعات أخرى من الكتاب.. وأما الرئيس الأمريكي باراك أوباما الذى امتدح هيلين كثيراً والتقط معها العديد من الصور الشهيرة.. فقد هاجم هيلين قائلاً: "من العار أن أحداً بهذا التاريخ المشرّف ينتهى كذلك"!

إن "هيلين" التي ذهبت بعيداً واجهتها قرارات أبعد وأبعد.. وبدلاً من أن ينهال سيل من الرد والنقد.. كان سيل من الاتهامات والعقوبات هو الحاضر والحاسم.

• • •

ثمة قصة ثالثة مثيرة هي منع المفكر الأمريكى البارز "نعوم تشومسكى" من إلقاء محاضرة في جامعة بيرزيت الفلسطينية.

كان "تشومسكى" يزور الأردن.. وكان عليه أن يتجه من عمّان إلى الضفة الغربية في فلسطين من أجل إلقاء المحاضرة.. وصل تشومسكي إلى معبر الكرامة بين الأردن والضفة، لكن جنوداً إسرائيليين أوقفوه وحققوا معه طويلاً وتركوه ينتظر ساعات على نحو مهين.. وبعد تلك الساعات الطوال أخبره جندى إسرائيلى أنه ممنوع من الدخول وأن عليه العودة إلى الأردن.

ولمّا سأل تشومسكى عن سبب صدور قرار إسرائيلى بمنع مفكر أمريكى من الدخول، أجاب الجندى الإسرائيلى فى ازدراء: سوف نرسل خطاباً إلى السفارة الأمريكية بشأن منعك من الدخول!

* * *

يروى "إيلان بابى" فى كتابه " خارج الإطار.. النضال من أجل حرية أكاديمية فى إسرائيل " قصصاً عديدة عن الصعوبات التى تعرض لها كأستاذ جامعى داخل إسرائيل. ويحكى تفاصيل صادمة عن حجم التضييق داخل الحقل الأكاديمى، ومحاولات العزل بسبب أفكاره ومؤلفاته فى علوم السياسة والتاريخ.

ويتحدث "شلومو ساند" عن تجربة مماثلة من الحصار والتضييق. يعمل "شلومو ساند" أستاذاً فى جامعة تل أبيب وأصدر كتاباً مهماً بعنوان "اختلاق الشعب اليهودى" .. رأى "شلومو" فى كتابه أن إسرائيل أمّة جرى اختراعها.. وأنها مجرد مشروع سياسى وبلد جديد.

تعرض الكاتب بعد كتابه هذا إلى هجوم شديد، واتهمته الصحف الإسرائيلية بأنه يدعو للتحريض والفتنة، ووصف السياسيون كتابه بأنه يغذى "اللاسامية" المعادية لليهود.. ولكن المثير هو المطالبة بوقفه عن العمل وإصدار قرار بفصله من جامعة تل أبيب!

* * *

وصل الحصار الصهيونى للحرية الأكاديمية مدى أبعد حين أسس الأكاديمى "دانيال بايبس" موقع "كامبس ووتش" الذى أصبح " الرقيب الأمنى" على حرية الفكر فى الجامعات الأمريكية. يقول "بايبس" فى مقال نشره فى شهر سبتمبر عام 2007 : "إن المشروع هدفه الدراسة النقدية لدراسات الشرق الأوسط فى أمريكا وكندا والعمل على تحسينها وتطويرها ".

ولكن سرعان ما يفصح "بايبس" عن أغراضه السياسية غير العلمية.. يقول: "إن أقسام الشرق الأوسط فى الجامعات تضم أعداء أمريكا فقط ولا وجود لليمين.. إن اليسار

يسيطر على أقسام الشرق الأوسط منذ عشرين عاماً.. لذلك ينبغى أن يكون لنا – نحن اليمين – وجوداً قوياً فى الجامعات".

إن "بايبس" وثيق الصلة بإسرائيل ويضع على جدران مكتبه شهادات من جامعات إسرائيلية.. إنه ليس موضوعياً ولا علمياً.. إنه غير معنى بالعلم الأكاديمى ولا حرية الفكر فى الجامعات.. ولكنه يريد أن يصبغ تطرفه اليمينى بادعاء الرأى ووجهة النظر.

لقد أصبح موقع "كامبس ووتش" الذى يديره "بايبس" عدواً قوياً لحرية البحث العلمى.. يقول البروفيسور "زاكارى لاكمن" من جامعة كولومبيا.. إن "بايبس" يدير مع آخرين حملة منظمة تشجّع طلاب الجامعة على كتابة تقارير الأساتذة.. إنه أسلوب شهدته الجامعات الأمريكية فى الأربعينات والخمسينات ضد الشيوعيين.

ومن جامعة كولومبيا – أيضاً – يقول البروفيسور "جوزيف مسعد" إنه إزاء هذا الضغط والحصار الأكاديمى قرر التوقف عن تدريس مادة الصراع الفلسطينى الإسرائيلى للطلاب.

لكن "بايبس" مضى فى طريقه.. وزاد من الأهداف إلى أن وصل للمطالبة باصدار قوانين تضمن الولاء السياسى للجامعات تجاه الحكومة الفيدرالية.

وقد انضم الباحث الأمريكى "مارتن كريمر" إلى "بايبس" فى المطالبة بصدور هذه القوانين وهو ما يعنى سيطرة الدولة سياسياً على الحرية الأكاديمية فى جامعات الولايات المتحدة. يعمل " كريمر " فى معهد واشنطن لسياسات الشرق الأردنى وهو معهد قريب من إسرائيل.

• • •

لقد وصل جنوح " دانيال بايبس " الذى يصفه الكاتب "جهاد الخازن" بأنه داعية حرب ليكودى.. إلى التشكيك فى معايير اختيار ملكة جمال الولايات المتحدة بعد أن تم اختيار " ريما فقية " ملكة لجمال أمريكا.

و " ريما فقيه " هى أمريكية مسلمة من أصل لبنانى فازت باللقب عام 2010.. وقد أطلق عليها اليمين المتطرف فى الولايات المتحدة لقب "ملكة جمال حزب الله "!

وهكذا امتدت " الفاشية الصهيونية " من الإعلام إلى العلم.. ومن الصحافة إلى الجامعة.. ومن الإنتاج الفكرى العربى إلى الإنتاج الفكرى اليهودى.. وعبر التآكلْ البطئ لقيم الحرية.. باتت " الفاشية الصهيونية " تهدد روح الغرب.

الإنحسار..

من دولة إسرائيل إلى دولة تل أبيب



يصل عدد اليهود فى العالم إلى (14) مليون يهودى، منهم (42٪) داخل إسرائيل و(48٪) خارج إسرائيل.

يزيد عدد اليهود فى العالم بنسبة تتراوح من (صفر) إلى (نصف فى المائة).. ونسبة الزيادة تكون فى العادة بين يهود إسرائيل أما يهود العالم فهم فى حالة تراجع نتيجة اندماج اليهود فى الأديان الأخرى.

لكن المفزع بالنسبة للنخبة الإسرائيلية هو صعود أعداد اليهود المتدينين وتآكل أعداد اليهود العلمانيين.. غير ذلك ثمّة أزمتان تواجهان اليهودية : تراجع أعداد اليهود فى العالم على وجه العموم وتراجع أعداد اليهود العلمانيين على وجه الخصوص.

ويتوقع الباحث الديموغرافى الإسرائيلى "أرنون سوفير" فى بحث أصدره من جامعة حيفا عام 2010 أن المجتمع اليهودى سوف ينقلب انقلاباً تاماً.. فالعرب فى إسرائيل يزيدون وكذلك الأصوليون.

يطارد اليهود المتدينون اليهود العلمانيين.. إنهم يلاحقون المجتمع العلمانى باسم الدعوة، العودة إلى الدين، وكلما وجد يهودى متدين يهودياً علمانياً بدأ بالنصح والإرشاد ودعوته إلى إطلاق لحيته وارتداء الملابس الشرعية اليهودية والعمل بما جاء فى التوراة.

إن بعض اليهود يلجأون إلى الدعوة باللسان.. ولكن بعضهم يلجأ إلى تغيير العلمانية باليد.. حيث يسيطر المتدينون بالقوة على شارع "بارإيلان" الشهير فى القدس.. ويمنعون السيارات من المرور بها.. والسيارة التى تتورط وتدخل بالخطأ يتم رجمها بالحجارة!

ويذكر "شالوم بروشالى" فى صحيفة "معاريف" أن المتدينين اليهود يقومون بتحدّى الدولة.. ويهاجمون الشرطة ويوجهون لها الشتائم ويبصقون على وجه أفرادها. وهناك متدينون يتمنون الإعتقال وجّرهم نحو سيارة الشرطة من أجل إظهار البطولة أمام المتظاهرين.

ويجمل "شالوم بروشالى" المشهد العام يقول : "إن القدس تتجه من مدينة عصرية مفتوحة إلى مدينة مغلقة تتجه إلى الوراء".

• • •

لقد وصل تراجع "الشكل العصرى" لتل أبيب إلى التفكير فى استخدام العنف العلماني ضد العنف الديني. وحدث أن رئيس بلدية القدس الأسبق "تيدى كوليك" تحدث عن استخدام سياسة اليد الفولاذية مع الأصوليين، وقال: "سنقف لهم.. إننا نعرف كيف نرد أيضاً".

ويعلق " شالوم بروشالى" على رؤية "كوليك" بأنها تدعو لمواجهة "البلطجة" بـ "البلطجة المضادة" وهذا حلّ فوضوى.. لكنة يلقى قبولاً فى أوساط العلمانيين.

• • •

إذا كان حاضر إسرائيل غير جيد بسبب صعود التيار الدينى.. فإن المستقبل يحمل لإسرائيل ماهو أسوأ.. ذلك أن الأجيال القادمة تتجة إلى الدين على نحو مخيف. إن الأطفال والتلاميذ يتجهون إلى جانب الدين أكثر مماً يذهبون إلى جانب الدنيا. ويذكر البروفيسور "دان بن ديفيد " المختص فى دراسة السياسات الاجتماعية.. أن الطلاب الذين يلتحقون بالتعليم الدينى فى ازدياد شديد.. إن الزيادة تنذر بتحول إسرائيل إلى مجتمع دينى لا يعمل.. ولا يتعلم العلوم الحديثة.. مما سيؤدى لانهيار الدولة خلال ثلاثة عقود.. إنهم لايتعلمون الإنجليزية ولا الرياضيات ولا علوم العصر الحديث.. إنهم يتعملون فقط التوارة والتلمود ويعتمدون فى حياتهم على مخصصات التأمين الوطنى والضمانات الاجتماعية.

إن ثلثى المتدينين لايعملون نهائياً وكلهم لايؤدى الخدمة العسكرية فى الجيش. ويقول "دان ديفيد" فى حسرة : "إن إسرائيل تحتل اليوم المكان الأخير فى قائمة الدولة الغربية من ناحية نتائج الإمتحانات التى يتقدم لها تلاميذ المرحلة الإبتدائية فى العلوم والفيزياء والرياضيات واللغات.. وبعد ثلاثين عاماً ومع الزيادة الكبيرة لأعداد التلاميذ المتدينين.. سوف تتردى إسرائيل أكثر وأكثر".

لقد دفعت هذه الاحتمالات المخيفة رئيس بلدية تل أبيب "رون خلدئي" لأن يصرخ في مؤتمر "التعليم في إسرائيل" محذراً من الخطر الديني الداهم ومن انهيار جهاز التعليم الرسمي.. وقال "رون خلدئي" : "إن في إسرائيل مجتمعين.. أولهما منتج والثاني مستهلك.. ويزداد المجتمع المستهلك عدداً .. وعلى الدولة أن تتدخل فالمجتمع الأول لا يستطيع أن يحمل المجتمع الثاني على كتفيه.. إلى الأبد!"

• • •

ثمة معضلة معقدة في هذا السياق.. إن الأصولية اليهودية تتصاعد وتهدد بقاء إسرائيل.. ولكن العلمانية الإسرائيلية التي تواجه الأصوليين في الداخل تستثمر الفكر الأصولي في الخارج.

إن قادة إسرائيل العلمانيين لايكترثون بالتوراة ولايؤمنون بالإنجيل.. فبالنسبة لهم كل ماجاء في الإنجيل خطأ وكذب.. ونبّي المسيحية يسوع ابن مريم ليس نبياً ولا رسولاً.. ولا أمه عذراء ولاهي امرأة فاضلة.. وبالنسبة لليهودية فإن المسيحية برمتها ليست ديناً والإنجيل ليس كتاباً مقدساً.

ومع ذلك نجح قادة إسرائيل في عقد "صفقة كبرى" مع المسيحية.. قام اللوبي الصهيوني بدعم الإيمان البروتستانتي بضرورة قيام دولة إسرائيل وقوتها من أجل التعجيل بظهور السيد المسيح.. إن عودة المسيح بالنسبة للإيمان البروتستانتي ستكون بداية النهاية لليهود واليهودية.. ولكن المسيح لن يعود إلا إذا تجمع اليهود في فلسطين وأقاموا إسرائيل.. هنا تنشأ معركة "هرمجدون" التي بموجبها ينتصر المسيح ومن معه وينهزم اليهود ومن معهم.

• • •

الصفقة إذن هكذا.. "تقف أمريكا المسيحية البروتستانتية مع اليهود من أجل إقامة إسرائيل – إن أمريكا تفعل ذلك لأنها تؤمن بأن إنشاء إسرائيل هو الطريق لمجئ المسيح – تعرف إسرائيل أن المسيح سيخوض المعركة ضد اليهود ويهزمهم – لامانع في ذلك.. فقط

على أمريكا أن تقف مع إسرائيل الآن.. وتترك الباقي للسيد المسيح حين يجئ – النتيجة إذن.. يجب على أمريكا أن تقف مع إسرائيل تماماً وبلا تردد في جميع الأزمات السابقة لظهور يسوع المسيح"

إنها صفقة مذهلة.. صفقة تأسيس "المسيحية الصهيونية".. ولقد تم العمل بمُوجب هذه الصفقة عقوداً طويلة.. منذ أكثر من قرن وربع القرن وهذه الصفقة تتوالى.

• • •

كان أول نموذج لتحالف اليمين المسيحي الذى يؤمن بقيام إسرائيل كشرط أساسي لعودة المسيح – في نهايات القرن التاسع عشر.

حيث قام المبشر المسيحي "ويليام بلاكستون" بشن حملة على الرئيس الأمريكي "بنيامين هارسون" من أجل دعم إنشاء دولة يهودية في فلسطين. كان ذلك في عام 1891م، وقد مثلت حملة "بلاكستون" الظهور الأول للصهيونية المسيحية في السياسة الأمريكية.

لقد امتد ذلك حتى تأسيس إسرائيل عام 1948م.. وامتد حتى توسع إسرائيل عام 1967م.. وتواصل حتى ظهور شخصيات شديدة الإيمان بتلك العقيدة مثل رونالد ريجان وجورج بوش الابن.. ولا يزال ذلك الإيمان هو الأساس الأيديولوجي للتحالف الأمريكي الإسرائيلي.

يذكر الباحثان الأمريكيان "ستيفن وولت" و "جون مير شايمر" في دراستهما عن تحالف اليمين المسيحي مع اليهودية الصهيونية، أن ذلك التحالف زاد بقوة بعد حرب 1967.. حيث رأى المجتمع البروتستانتي الأصولي أن حرب 1967 ونتائجها كانت تحقيقاً لنبوءة التوراة بانبثاق دولة يهودية في فلسطين. وكتب أحدهم في دورية " المسيحية اليوم " بعد حرب 1967 يقول : "للمرة الأولى منذ أكثر من (2000) سنة القدس الآن في أيدى اليهود، وهو ما يعطي دارسي الكتاب المقدس إيماناً متجدداً في دقته وصحة مضمونه ".

ويكمل "ستيفن وولت" و "جون ميرشايمر" : "لقد زادت صلابة التحالف بين اليمين المسيحي واليهودية الصهيونية في نهاية السبعينات وبداية الثمانينات وسطع نجم المسيحية الصهيونية "جيرى فالويل".

في عهدى كارتر وريجان أسس " فالويل " حركة دينية باسم " الأغلبية الأخلاقية " وكان من أبرز مقولاتها : " الوقوف ضد إسرائيل يعادل الوقوف ضد الرب ".. وعلى الفور كانت إسرائيل تدفع المكافأة.. ففي عام 1981م قدم رئيس الوزراء الإسرائيلي "مناحم بيجن " إلى " فالويل " جائزة " جابوتنسكي " تقديراً لدعمه الكبير لدولة إسرائيل.

• • •

بمثل ما مثّل عام 1967م محطة أساسية في تطور صفقة "المسيحية الصهيونية"، كان عام 1977م هو الآخر محطة مهمة.. حيث وصل حزب الليكود إلى السلطة في إسرائيل في ذلك العام، وكان بيجن يعتبر ذلك التحالف أساس مشروعه.

توسع مناحم بيجن في بناء المستوطنات بدعم وتأييد من اليمين المسيحي، وكان يتحدث عن "الضفة الغربية" بالاسم الذى جاء في التوراة.. وهو "يهودا والسامرة " من أجل إحياء فكرة قيام الدولة اليهودية وارتباط ذلك بعودة المسيح.

• • •

استمر النفوذ المتصاعد للمسيحية الصهيونية بلا انقطاع.. وزاد النفوذ إلى حدّ القدرة على الضغط على البيت الأبيض.. وعلى قرارات السياسة الخارجية الأمريكية الخاصة بالصراع العربي الإسرائيلي.

وعندما أعلن الرئيس جيمي كارتر ترحيبه إقامة دولة فلسطينية مستقلة، قامت المنظمات المسيحية الصهيونية بالاعتراض على كارتر.. ونشرت إعلانات بارزة في الصحف تدين التصريحات.. واضطر كارتر إلى نسيان تصريحاته بعد قليل!

كانت إسرائيل تزداد قوة في أمريكا.. ورأى قادتها أن اليمين المسيحي داعم كافٍ

لإسرائيل ربما لا يتم الإحتياج معه كثيراً إلى البيت الأبيض ذاته!

ففى حادث القصف الإسرائيلى للمفاعل النووى العراقى عام 1981م.. لم يقم مناحم بيجن بالاتصال بالرئيس.. بل اتصل بأكبر زعماء اليمين المسيحى "جيرى فالويل" ليقوم "فالويل" بنشر ذلك إلى الرأى العام الأمريكى.. إن واحداً فى وزن "جيمس هيلمز" رئيس لجنة العلاقات الخارجية فى مجلس الشيوخ كان ضد الضربة ولكن "فالويل" نجح فى إقناعه بتأييدها!

كان الرئيس رونالد ريجان مؤمناً فى الأصل بالصلة بين إنشاء إسرائيل وعودة المسيح.. ونقل رئيس منظمة الإيباك عن الرئيس ريجان إيمانه التام بذلك دون الحاجة إلى إقناع.

• • •

جاء الرئيس كلينتون من خارج هذه العقيدة ولم يكن على وفاق مع "الإيباك".. ولكن عهد الرئيس بوش جدّد تلك العقيدة ودفعها خطوات بعيدة للأمام وحين طالب بوش الابن بالانسحاب من الضفة الغربية هاجمته المسيحية الصهيونية.. فعاد إلى إيمانه الراسخ بنظرية " إسرائيل ومجئ المسيح ". وفى عهده ظهرت منظمات جديدة مؤيدة لإسرائيل.. من أبرزها منظمة "قف بجانب إسرائيل Stand For Israel" التى أسسها "بادى بوار" أحد رموز المسيحية الصهيونية.

لقد كانت المسيحية الصهيونية سبباً فى تلك التحولات التى طرأت على الحزب الجمهورى الذى صار أكثر تديناً وتحول تدريجياً من حزب الأغنياء إلى حزب الأخلاق المسيحية.

يرصد "ستيفن وولت" ذلك التحول قائلاً : "كان الحزب الجمهورى يستهدف الطبقات المتوسطة.. لكن أدرك أن هذه الطبقات التى يسعى للحصول على تأييدها هى الطبقات المتضررة من سياساته الإقتصادية.. فالحزب متمسك بمبادئ الإقتصاد الحر

وتقليص البرامج الحكومية التى تدعم الطبقات المتوسطة. كان التحدى الكبير إذن أمام الحزب الجمهورى : كيف يمكن للحزب أن يكسب الطبقات التى يقوم برنامجه على الإضرار بها ؟

وكان الحل السحرى الذى توصل إليه هو "المبادئ المسيحية" و"قيم الأسرة".. وبدأ الحزب يروج فى دعايته أنه المحافظ الرئيسى على الأخلاق المسيحية الأصيلة التى تراجعت فى المجتمع نتيجة صعود التيارات الليبرالية ".

* * *

الصافى إذن.. أن إسرائيل نجحت فى تأسيس الإطار السياسى للعقيدة الصهيونية المسيحية.. وباتت تلك العقيدة منجم الذهب الذى لا ينفذ فى دعم مشروع دولة إسرائيل.

لكن إسرائيل التى تلعب بالعلاقات بين الدين والسياسة.. لم تستطع منع المتلاعبين بالدين من استخدام نفس السلاح ضد إسرائيل.. إنهم المتدينون اليهود الذين يجدون رواجاً فى الخارج.. ولكنهم سوف يحطمون الداخل.. إنهم يؤمنون بالتوراة ولا يؤمنون بالدولة.. يقرأون التلمود ولا يقرأون الفيزياء.. إنهم "مستقبل إسرائيل" أوبالأحرى إنهم "لا مستقبل إسرائيل".

خاتمة.. ما بعد إسرائيل أو ما بعد العرب

إن إسرائيل في مفترق طرق.. ولكن العالم العربى فى مفترق طرق هو الآخر..!

إمّا إشراقةٌ جديدة مع بشائر الربيع العربى.. وإمّا إخفاقة جديدة تمتد عقوداً أخرى.

نحن وإسرائيل فى نفس المفترق.. يمكن أن يكون المستقبل على نحو ما مضت الفرضيّة العامة لهذا الكتاب.. "خريف إسرائيل وربيع العرب"..

ويمكن أن يتحول ربيع العرب إلى خريف متجدد.. ويعاود العالم العربى الفشل من جديد.

وحيث أن العلاقة عكسية بين العرب وإسرائيل.. فإن هبوط العالم العربى يعنى بالضرورة صعود إسرائيل.. وقتها لن يكون العنوان الدقيق هو "ما بعد إسرائيل" بل سيكون "ما بعد العرب"!

• • •

إننى واحد من أعضاء مدرسة الأمل.. وواحد من المؤمنين أن ربيع السياسة سوف يأتى وراءه ربيع الحضارة..

إننى مؤمن تماماً.. أن مشروع النهضة لبلادنا قد بدأ.. وأننا نستطيع.





• • •

ما بعد إسرائيل

انتهت خرافة "إسرائيل الكبرى" وبدأت حقيقة "إسرائيل الصغرى".
في شتاء عام ٢٠١٢ أخذت فلسطين مقعدها دولة مراقب في الأمم المتحدة .. للمرة الأولى، ثم طالبت الأمم المتحدة بخضوع اسرائيل للتفتيش النووي.. للمرة الأولى.
ورغم أن العالم العربي يمضي أيامه نصف ربيع ونصف خريف..إلا أن إسرائيل التي تشهد زيادة السكان العرب وصعود الأصولية اليهودية .. باتت هي الأخرى نصف إسرائيل.
هذا كتاب في الدين والسياسة.. في الجغرافيا والتاريخ.. في الخلل والفرص.. في الخطأ والأفق.
انه كتاب في المعرفة والأمل.

تصميم الغلاف كريم ادم






Exclusive
For
www.ibtesama.com